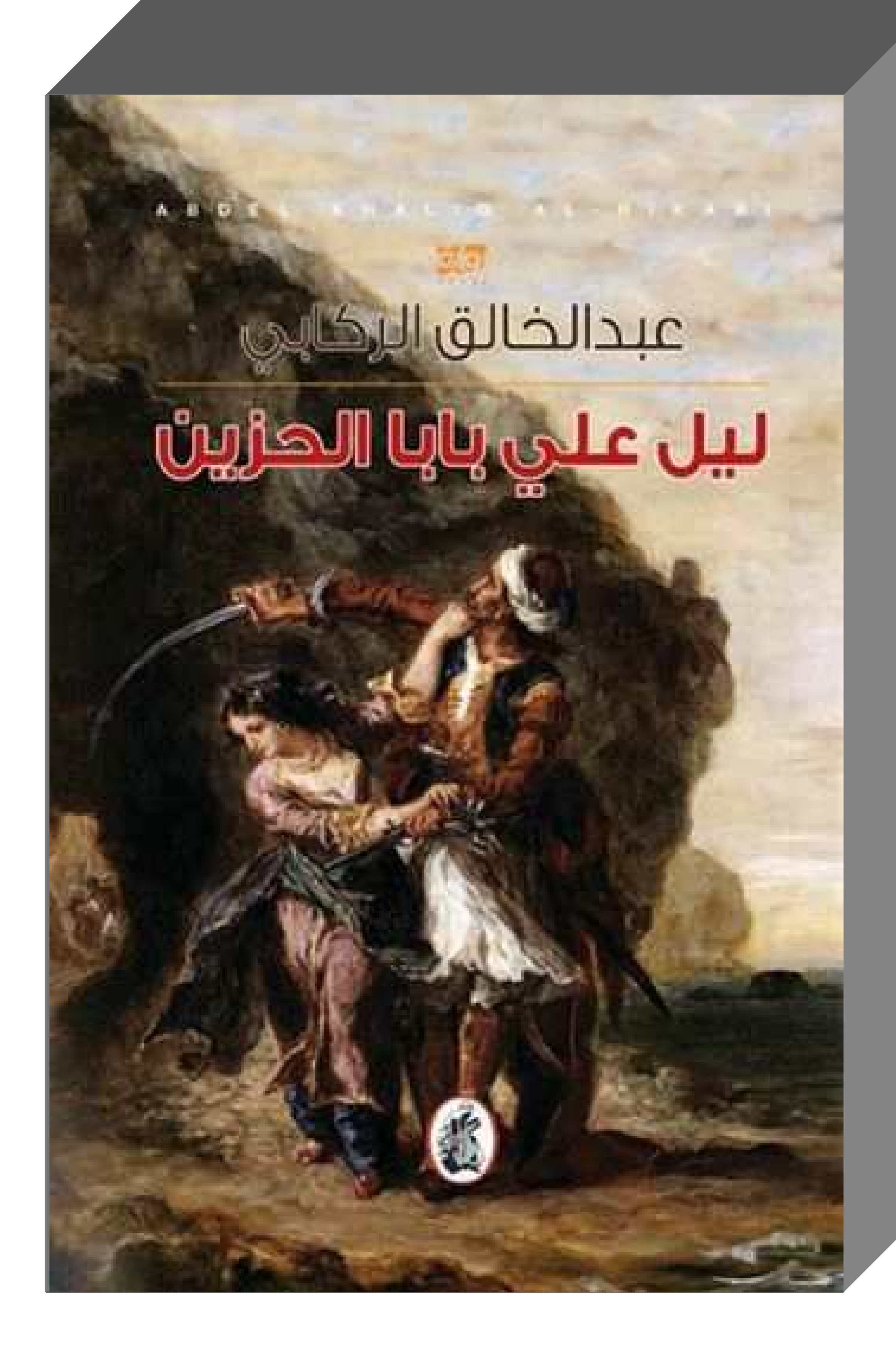

عبدالخالق الركابي
ليل علي بابا الحزين

ليل علي بابا الحزين

رواية

عبد الخالق الركابي

الخروج من المغارة

يوم عدت بأسرتي إلى بغداد – عقب رحلة كابوسية إلى مدينة الأسلاف انتهت باعتقالي – فوجئت بالجيران يرددون كلاماً غريباً غير قابل للتصديق مفاده أن "كهرمانة"، في نصبها القائم في منطقة "الكرادة"، توقفت، يوم التاسع من نيسان، عن سكب الزيت في جرارها؛ حيث شوهد أربعون لصاً يثبون تباعاً مغادرين تلك الجرار ليتوزعوا، تحت جنح الظلام، في شتى أحياء العاصمة!!

شائعة لم أقتنع بصحتها بطبيعة الحال؛ فقد عزوتها إلى شعور الجميع بافتقاد الأمن منذ احتلال البلاد: فما من مرة التقيت أحداً عند باب البيت أو قرب حانوت "أبو منير" إلا وبادرني بسؤال وحيد يتعلق بالإجراءات التي اتخذتها لتحصين بيتي بالشكل الذي يردع اللصوص عن التفكير بالإقدام على ما لا يحمد عقباه!

وفوجئت، ذات يوم، بأحد الجيران ينزوي بي في جانب من الطريق ليسرّ لي باستعداده لتزويدي بقطعة سلاح!

قال هامساً وهو يدير عينيه حوله بنظرة متآمرة:

– في وسعي تزويدك بما تشاء بسعر الطماطة والخيار؛ فمعسكرات الجيش نهبت عن آخرها، وأفرغت مشاجب الأسلحة من محتوياتها.

وعاد يذكّرني بأعمال السلب والنهب الجارية على قدم وساق بعدما لم تعد ثمة سلطة تتحكم بالناس. وحينما وجدني لا أعير تحذيراته الاهتمام المتوقع كرر على سمعي، بكل جدية، أسطورة "كهرمانة" ولصوصها الأربعين ليغادرني وهو يؤكد مجدداً استعداده لتزويدي بالسلاح وقتما أشاء!

حينها كنت أحاول، ما وسعتني الحيلة، "التأقلم" مع الوضع الجديد: أصمّ السمع عن هدير "السمتيات" الأمريكية وهي تصول وتجول في السماء على هواها، وأغضّ الطرف عن مرأى مدرعات "المارينز" وهي تسابق بعضها بعضاً في شوارع بغداد المستباحة، مقنعاً نفسي بضرورة استثمار كل هذه الأمور مادة لرواية مضت عليها سنوات وهي لا تزال أسيرة أدراج مكتبي على شكل ملفات ووثائق ورسائل تتطلب الكثير من الجهد و"المزاج" قبل أن أفلح في تطويعها بالطريقة التي ترضيني.

كنت يائساً – نعم، لِمَ لا أعترف بالحقيقة؟ – فقدتُ إيماني بجدوى الكلمات؛ لا قدرة لي على إضافة كتاب آخر إلى عالم تحوّل فيه الإنسان إلى محض رقم مهمل بين مليارات الأرقام الأخرى؛ يزيده التقدم التكنولوجي عزلة وبؤساً.

كنت في انتظار الومضة السحرية، تلك الومضة التي تذكي حرائق الإبداع على غير توقّع دون أن يخطر لي أن ذلك لن يحصل إلا بعد مرور ثلاث سنوات وعشرة شهور وتسعة عشر

يوماً على الاحتلال على وجه التحديد؛ وذلك على أثر قدوم "دنيا"، تلك المسيحية "المحجّبة"، إلى بغداد!

***

يومذاك، وأنا أرافق "دنيا" في تحرّكها على امتداد شارع "الكندي" وهي تبحث عن العيادة المنشودة، كنت كالمسرنم: يتبدى لي كل ما حولي – من عمارات وشوارع وسيارات وبشر – بهيئة غير واقعية كما تتبدى الأشياء من حولنا في الحلم!

كنت لا أزال أسير فترة اعتكافي الطويل في البيت على مدى الشهور المنصرمة التي احتدم خلالها الصراع الطائفي على أثر تفجير قبّة الإمامين في سامراء، لا أستطيع التعامل مع ما حولي بالتلقائية المطلوبة؛ حتى إن "دنيا" اعتادت أن تطلب مني، كلما كنا بصدد عبور أحد الشوارع، ضرورة التروّي والحذر، لتضيف، في كل مرة، معتذرة:

– يؤسفني اضطراري إلى فرض نفسي عليك في وقت غير ملائم على الإطلاق.

حتى إذا ما اهتدينا إلى العيادة، وارتقينا درجات سلّم العمارة داخلين غرفة الفحص، طلبت الطبيبة مني تركها لتنفرد بـ"دنيا"، فخرجت مطبقاً الباب ورائي لأتهالك جالساً على إحدى أرائك غرفة الانتظار الخالية، أراقب بنظرات شاردة عقرب الثواني وهو يتواثب في دورانه على محيط الساعة الجدارية، مسجّلاً الدقائق وهي تنصرم ببطء قبل أن ينفرج الباب ثانية عن وجه "دنيا" المكفهرّ، تتعقبها الطبيبة التي خاطبتها مودّعة:

– الأمر مؤكد يا ابنتي، مضت عليه شهور؛ فلا مجال للخطأ في التشخيص!

وأردفت وقد استدارت نحوي محملقة بي بنظرة اشمئزاز واحتقار:

– عليك الإسراع، قبل فوات الأوان، بمعالجة الموقف!

وحينما وجدتني أتلجلج بطريقة خرقاء وأنا أنهض، محاولاً إفهامها أنها تسرعت في حكمها عليّ، وأن الأمر ليس كما تتوهم، أخرستني بإشارة حاسمة من يدها نحو الباب مشفوعة بكلمتين:

– مع السلامة!

وعادت تشيّع "دنيا" بنظرة إشفاق لكونها ضحيّة وغد مثلي لم يمنعني بياض شعري من إغواء شابة مثلها لا تكاد تبلغ نصف عمري!

– ما سبب تحامل الطبيبة عليّ؟!

سألتُ "دنيا" حال مغادرتنا العيادة، فأجابتني متمتمة:

– لعلها فهمت خطأ أن لك دوراً في ما حصل بعدما أخبرتها أنني غير متزوجة بعقد رسمي، وأنك الشخص الوحيد الذي أأتمنه على سري.

وتقدمتني هابطة درجات السلّم، حتى إذا ما بلغت المنتصف توقفت على حين غرة لتدير وجهها الشاحب نحوي رامقة إياي بنظرة مذعورة من عينيها الكبيرتين الغارقتين وسط كثافة أهدابهما لتنطق بالسؤال الذي كنت أتوقع سماعه منها:

– ما الذي يتوجّب عليّ الآن عمله؟!

وانتظرتْ لحظات دون أن تطرف بعينيها ولو مرة واحدة قبل أن تستطرد بنبرة فاجعة:

– وبأي وجه أعود إلى الأسلاف؟!

اقترحت عليها ناصحاً:

– لم لا تحاولين الاتصال مجدداً بالشيخ غازي؟ فهو وحده الذي في وسعه حلّ هذه المعضلة.

– لن يغامر هذا الرجل بمساعدتي أبداً؛ فمنذ فشله في الانتخابات البرلمانية السابقة وهو يتهيأ لترشيح نفسه للدورة القادمة بادئاً ذلك بتبييض صفحته بالتنصل من إقحام نفسه في أمر على هذه الشاكلة من التعقيد.

أجابتني وهي تمسك دموعها بصعوبة. وأردفت متجنّبة، هذه المرة، مبادلتي النظر:

– هناك طريقة وحيدة تضمن لي الستر وسأعوّل على شهامتك لتحقيقها.

ازداد وجيب قلبي ارتفاعاً: فقد أدركت من فوري ما ترمي إليه بكلامها، بيد أنني تجاهلت الأمر ملاحظاً إياها وقد عادت تتأملني برجاء، حتى إذا ما وجدتني لا أحير جواباً لوت فمها الراجف بابتسامة يائسة واصلت بعدها هبوط بقية الدرجات.

كان الزحام في شارع "الكندي" على أشدّه: زحام مراجعي العيادات الطبية والمختبرات والصيدليات، وروّاد "الكوفي شوب" والمطاعم الفاخرة، والمتسكعين عند مداخل المخازن والأسواق و"السوبر ماركات" المتخمة بكل ما يخطر في البال، وكأني بالجميع يعيشون حياتهم الطبيعية التي وفّرها لهم قربهم من "المنطقة الخضراء" حيث يسود الأمن والسلام على النقيض من الأحياء النائية المشاعة لنزوات "الميليشيات" التي لا يوجد ما يردعها عن الاحتكام إلى السلاح وقتما تشاء!

بدت "دنيا"، بملابسها المحتشمة الفضفاضة ذات الألوان الداكنة، وبالشال التقليدي الملفوف حول وجهها، كمن ضيّع سبيله وسط ذلك الزحام. كانت تبدو وكأنها تبحث عن ملاذ، عن ركن ما تنفرد به بعيداً عن تيار السابلة الجارف.

انزويت بها قرب عمود. وقفنا دقائق صامتين، تتعالى، من حولنا، ضجّة المولّدات التي شرع أصحاب المحلات في تشغيلها عقب انطفاء الكهرباء، كأننا نستمتع بتأمل الإعلانات الضوئية، وهي تتوهج تباعاً بألوانها الزاهية، في عتمة الغروب.

– لن يسعني الإقدام على هذا الأمر؛ فصداقتي ليحيى تحول دون ذلك.

كلّمتها برفق متجنباً مبادلتها النظر، مستعيضاً عن ذلك بمتابعة السيارات المنطلقة في الشارع، مفكراً بحقيقة حبها ليحيى؛ ألم تكشف اللحظة زيف تلك العاطفة؟

– وأين هو يحيى الآن؟

سألتني ببرود، فعدت أردد بشيء من الحذر:

– وهناك.. الدين... والتقاليد التي تمنع اقتراناً على هذه الشاكلة بعدما أكدت الطبيبة الأمر، فضلاً عن كوني – كما تعلمين – متزوجاً.

– إنه محض إجراء شكلي غايته الحفاظ مؤقتاً على المظاهر فقط.

قالتها بحذر. وأكملت بعد لحظات صمت ملأتها سيارة إسعاف انطلقت بعويلها الفاجع:

– ... وستكون في حلّ منه فيما بعد.

وانتظرتْ لحظات، وحينما وجدتني لا أحير جواباً غادرتني دون وداع، فأسرعت من خطوي محاولاً اللحاق بها طالباً منها الانتظار دقائق ريثما أعود بسيارتي من الموقف القريب، بيد أنها صاحت بي قبل أن تختفي في الزحام:

– دعني!

قفلتُ راجعاً متخذاً سبيلي نحو موقف السيارات دون أن أستطيع الامتناع عن أن أكيل لنفسي اللوم والتقريع؛ فقد كان بوسعي اللحاق بـ"دنيا" قبل أن تختفي في الزحام، لكنني أحجمت عن القيام بذلك دون وعي مني لأنني كنت، في دخيلتي، أريد للأمر أن ينتهي بهذا الشكل!

وتذكرت على حين غرة – وأنا أتراجع واثباً إلى الوراء متجنباً، في آخر لحظة، سيارة انخطفت على مقربة شديدة مني، لافحة وجهي بعصف انطلاقها، تاركة صدى نفيرها المحذّر ينصبّ في سمعي كشتيمة – تذكرت صوت "مي" وهي تعلق بمرارة يوم وجدتني أتهرّب من الحسم بين تعلّقي بها وحبي لزوجتي:

– ستبقى كما عهدتك موزّع العاطفة بيني وبينها وكأن ثمة مستر "جيكل" ومستر "هايد" يكمنان في أعماقك؛ لا تستطيع الحسم في أخص شؤونك!

– حزّري إذن أيهما فاز اللحظة منك بهذه القبلة: أهو المستر "جيكل"؟ أم المستر "هايد"؟

سألتها مازحاً بعدما التقمت شفتيها الممتلئتين بقبلة مباغتة جعلتها ترتد برأسها إلى الوراء مديرة عينيها في المتنزه الواسع، الذي كنا قد انزوينا على أحد مقاعده البعيدة عن الأنظار، خوفاً من أن يكون قد لمحنا أحد الحراس.

وأجابتني باستياء وهي تتفحص منديلاً ورقياً مسحت به فمها لتتأكد من أنني لم أجرحها:

– في وسعك أن تطرح هذا السؤال على زوجتك بعدما تختلي بها لتحظى منها بالجواب المناسب!

ترى تحت أيّ نجم أمست "مي" الآن؟

سألت نفسي وأنا أدلف خلف مقود السيارة متخذاً طريق العودة إلى البيت متجنباً أن أسلك الطرق الجانبية التي لم تستطع السلطة بسط سيطرتها عليها بعد، مكتفية بنشر وحدات من "الحرس الوطني" على امتداد الشوارع الرئيسية بعد مضي شهور الفوضى التي احتلت خلالها الميليشيات وفرق الموت معظم الشوارع؛ فانتشر، في أعقاب تفجير سامراء، رجال ملثمون مزودون بأسلحة أوتوماتيكية كانوا يقيمون نقاط سيطرة وهمية لغرض الخطف والقتل على الهوية.

في البيت هرع الجميع لاستقبالي لحظة ركنت السيارة في الكراج. وغالبت زوجتي دموعها لعودتي سالماً معترفة بأنها أدت "صلاة الخوف"، في حين أحاط بي ابناي أحمد وطه وهما عاجزان عن الكلام، وتعلقت صغيرتي ندى بعنقي لتغرق وجهي بالقبلات وكأنني عدت بعد غياب أشهر لا ساعات فقط!

بكّرتُ، تلك الليلة، في الصعود إلى الطبقة العليا لأنفرد بمكتبتي حيث حاولت أكثر من مرة الاتصال بـ"دنيا" عن طريق هاتفي النقّال، ولكنْ دون جدوى؛ فجهازها كان مقفلاً. وشعرت بالندم لأنني أجهل عنوان بيت قريب يحيى الذي اعتادت النزول عنده كلما قدمت إلى بغداد؛ فكل ما أعرفه عنه أنه – مثل غالبية فقراء مدينة الأسلاف الذين يهاجرون عادة إلى العاصمة سعياً وراء رزقهم – يسكن في واحد من تلك البيوت التي تؤجر غرفها للأسر والتي تنتشر عادة في تلك المحلات المجاورة لأسواق "الشورجة" مثل "القشل" و"الدهانة" و"صبابيغ الآل".

عزمت على المرابطة في المكتبة طوال الليل عسى أن تتصل "دنيا" بعدما تتجاوز انفعالها، مزجياً الوقت بتصفح ملفات عملي الجديد التي اعتدت تركها مهملة على المكتب سعياً مني لمراجعتها وقتما أشاء مؤملاً نفسي بأن أخرج منها يوماً ما بتلك الرواية التي تأبى، بعد مرور كل هذه السنوات، الاستقرار على شكلها النهائي؛ ذلك لأن "الاحتلال" فاجأني بجملة أمور جديدة تقتضي مني إعادة النظر بالكثير مما كتبت حتى الآن انسياقاً مع الأحداث وقد اتخذت لها مساراً آخر لم يخطر لي من قبل!

كانت تلك الملفات خليطاً من حوارات، وملخصات بأحداث تاريخية، وملاحظات لا أول لها ولا آخر، تتخللها تشطيبات وإضافات دوّنتْ على الهوامش قد لا يصدق من يلقي عليها نظرة عابرة أنني صرفت سنوات من عمري في تدبيجها مؤملاً نفسي بأنْ أخرج منها برواية اعتاد "بدر" أن يشدّ من أزري لمواصلة العمل فيها، مؤكداً أن "الوقائع على الأرض" هي التي سترفدني بالأحداث؛ فالأمريكيون – ولاسيما بعد مأساة الحادي عشر من أيلول – قادمون لا محالة؛ وبذلك سيتسنى لي الجمع بين احتلالين ما هما، في واقع الحال، إلا كوجهين لعملة واحدة: الاحتلال البريطاني الذي كان هو شاهداً عليه، والاحتلال الأمريكي القادم الذي يفترض بي أن أكون خير شاهد عليه!

لقد بقي "بدر" مصدر إلهام دائم لي، لم تمنعه الجلطة الدماغية التي تعرّض لها – مسببة بإصابته بشلل نصفي – من مدّ يد العون لي في تلك الفترة العصيبة التي كوت العراقيين دون استثناء بجحيمها، فترة الحصار الرهيبة؛ فكلما اتصلت به هاتفياً محدداً له تاريخ وصولي إلى الأسلاف، في إحدى زياراتي الدورية، فوجئت، لحظة وصولي إلى هناك، برياض في استقبالي في "كراج" المدينة: يتفقّد الركاب وهم يغادرون تباعاً السيارة القادمة من بغداد، حتى إذا ما شخصني عمد من فوره إلى انتزاع حقيبتي من يدي حاملاً إياها نيابة عني إلى السيارة الصغيرة الجاثمة على بُعد خطوات، ومحرّكها يهدر بهدوء، في انتظار أن ينطلق بها رياض على امتداد الشوارع المزدحمة بالسيارات بطريقة كنت آمن بأنها ستوردني حتفي ذات يوم؛ فوسط سلسلة اندفاعات صاروخية، تتخللها انحرافات لولبية إلى الجانبين مشفوعة بـ"شحطات" فجائية، توصلني آخرها إلى المكان المنشود، كنت أترجل من السيارة وأنا أتلمس ما حولي بحثاً عما أستند إليه تلافياً لأن أنهار لفرط شعوري بالدوار، تاركاً "رياض" يقودني وهو يكرر بإلحاح أن "عمه" ينتظرني على أحرّ من الجمر!

وكنا نجتاز ممراً طويلاً مرصوفاً بالمرمر – تحفّ به أشجار حديقة واسعة – ينتهي ببوابة أشبه ما تكون ببوابة قلعة، تظللها شرفة قائمة وسط واجهة رخامية لبيت بطبقتين، حيث يكون بدر في انتظاري حقاً، ولكنْ ليس على أحر من الجمر، إنما على عربة خاصة بالمعاقين تعترض سبيلي وسط مجاز يزدان أحد جوانبه بلوحة نهرية – بيوت تطل على شاطئ دجلة المكتظ بقوارب وقفف – تعود لعبد القادر الرسام، تقابلها في الجانب الآخر لوحة لجواد سليم حافلة بالوجوه البغدادية والأهلّة والأقمار.

وبعدما أنحني نحو بدر، متيحاً له فرصة معانقتي بذراعه السليمة، تاركاً إياه يعنّف "رياض" لتأخره بإعادة ذراعه المعطوبة إلى موضعها بعد انزلاقها من مسند العربة، كنا نتخذ، على إيقاع صرير عجلات العربة، سبيلنا نحو الداخل، تحيط بنا أبواب الغرف على الجانبين، وثمة تشكيلة متنوعة من لوحات تزين الجدران تعود لفنانين عراقيين مشهورين فضلاً عن فنانين إنكليز قدموا إلى العراق في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وكانت رحلتنا القصيرة تلك تنتهي بصالة بالغة السعة بارتفاع طبقتين، وثمة شرفة على شكل نصف دائرة تطل من خلالها الطبقة العليا عليها، في حين يتكون الجانب الرابع من مكتبة هائلة بارتفاع الطبقتين، تتكون من عشرات الرفوف المثقلة بآلاف الكتب والمخطوطات والملفات وهي تدرج صاعدة لتنتهي قرب السقف الشاهق.

والغريب في الأمر هو أنه ما من مرة دخلت فيها ذلك الموضع إلا وتذكرت تلك الأفلام الكلاسيكية التي تدور أحداثها أبان القرن التاسع عشر في قصور برجوازية لا ينقصها شيء: فوسط الصالة تقوم مائدة مثقلة بكل ما يستطاب، تجاورها مدفئة رخامية تستعر النار فيها شتاءً،

وبالقرب منها ثمة باب يؤدي إلى مطبخ يعبق دائماً برائحة طبخة شهية موضوعة على النار، وإلى الجانب الآخر يمتد "مقصف" حافل بأصناف المشروبات التي سبق لي وأن تفقّدتها عشرات المرات من "ويسكي السكوتش" الأسكتلندي، و"الويسكي البوربون" الأمريكي، إلى "الكونياك" الفرنسية المقطرة من العنب والمعتّقة في براميل الخشب، و"الجن" الهولندي، و"التيكيلا" المكسيكية، و"ساكي" الرز الياباني، و"شامبانيا" العنب الفرنسية، فضلاً عن أصناف النبيذ والجعة والعرق العراقي العتيد.

في تلك الصالة كنا نتخذ جلستنا المعهودة حول كأسي وسكي تاركين لرياض مهمة إحاطتنا برعايته وقد وقف بالقرب منا ليصدع لأدنى إشارة تصدر عن بدر سواءً تعلق الأمر بجلب كتاب في وسع بدر تحديد موقعه له وسط آلاف الكتب، أو تزويدنا بمكعبات الثلج، أو بأطباق الطعام في خاتمة المطاف.

وبرغم أن الكلام لم يعد يطاوع "بدر" بيسر منذ إصابته بالجلطة، بيد أنه، ومع أول رشفة من كأسه، كان يأخذ بزمام الأحاديث بادئاً إياها بترديد جملة لم يكن يمل من تكرارها بين فينة وأخرى:

– ثق يا صديقي بأنني خير شاهد على أحداث جسام تتابعت على مدى عقود من الزمن لتنتهي بما نحن عليه الآن من مهانة وقد بلغنا "خراء" الختام لا مسكه!

كان ينطلق بعدها في سرد ذكرياته عن تلك الأحداث الدموية التي سبقت وصوله إلى بغداد لتتوج بأفظعها حين مغادرته إياها؛ فقبل استقراره فيها بأشهر وقع أول اغتيال سياسي تمثّل بقتل أول وزير داخلية في أول حكومة تأسست في الدولة الناشئة، لتتابع بعدها المآسي على مدار السنوات؛ فقد جرت محاولة لاغتيال نائبين في المجلس التأسيسي، وأُبرمتْ فيها أول معاهدة بريطانية عراقية كبديل لصك الانتداب، وعمد أحد رؤساء الوزراء إلى الانتحار، كما وقع أول انقلاب عسكري، ولم يغادرها، بعد مرور خمس عشرة سنة على استقراره فيها، إلا في أعقاب موت أول ملوك العراق ومصرع الثاني واندلاع الحرب العالمية الثانية!!

وبعد هدنة قصيرة يلتقط خلالها أنفاسه كان يواصل الكلام معرّجاً هذه المرة إلى سرد جانب من ذكرياته عن سنوات دراسته في "المدرسة الأمريكية"، وإتقانه الإنكليزية فيها، وتعلقه – بعدوى من المستر "تيلر تومسون" الذي اشتهر بلقب "فوكس وايت" – بحب الآثار والتنقيب عنها، حتى إذا ما قاطعته مستوضحاً إياه عن أمر ما، أصغى إليّ بكل جوارحه، لكنه سرعان ما يستأنف أحاديثه السابقة دون أن يولي استفساري ذاك أدنى اهتمام وكأنه أشبه بآلة تسجيل لا مفر لها من بث ما هو مسجل على شريطها المغناطيسي!

وكنت أستميت أحياناً بسؤاله عن رأيه بما يجري الآن؟ فكان يتأملني طويلاً بعينيه الزرقاوين المحاطتين بالغضون وقد انفتحت إحداهما على سعتها، في حين تبدو الأخرى –

الواقعة في الجانب المشلول – مرخية الجفن أشبه ما تكون بنافذة مسدلة الستارة إلى النصف، قبل أن يقول ملخّصاً رأيه بعبارة قاطعة لا تحتمل التأويل:

– الأمريكيون قادمون لا محالة!

وكان يضيف بعد لحظات صمت لم يكن خلالها يكفّ عن تأمّلي:

– .... نعم... سيحتلون بلادنا، ولكن ليس الآن، بل حين تسنح الفرصة الملائمة لهم؛ فهم ليسوا في عجلة من أمرهم بعدما استوعبوا جيداً درس هزيمتهم في "فييتنام"، إنما سيتجملون بالصبر تاركين لهذا الحصار البربري، الذي فرضوه علينا بأداتهم المتمثلة بالأمم المتحدة، أن يفعل فعله على مهل، معوّلين على فرق التفتيش الدولية في تجريد الجيش العراقي من أصناف الأسلحة التي قد تشكل عليهم خطراً... وعندها فقط سيضربون ضربتهم وقد أوشكت الثمرة أن تسقط بين أيديهم من تلقاء نفسها!

وكان يقطع كلامه أحياناً ليومئ إلى رياض بحركة خاصة كان هذا يترجمها من فوره على شكل كأس ويسكي جديدة يعدّها له على عجل ليعود إلى موضعه مترصداً حركات "عمه" بدر وسكناته خوفاً من أن تفوته إحداها فيقع ضحية إحدى نوبات غضبه التي كان السكر يزيدها استعاراً.

وكان بدر ينهي أحاديثه عادة بتكرار جملته وقد أوشكت ستارة عينه المعطوبة على الانغلاق من أثر السكر:

– ثق يا صديقي بأنني خير شاهد على أحداث جسام تتابعت على مدى عقود من الزمن لتنتهي بما نحن عليه الآن من مهانة وقد بلغنا "خراء" الختام لا مسكه!

وكنت أعاود التدخل محاولاً مجادلته فيما يقول، ولكن عبثاً؛ فقد كان يكتفي بأن يسدي إليّ نصيحة بلسان أثقله السكر:

– عليك باستثمار ذكرياتي في كتابة روايتك المنتظرة لترى أن نصف إنسان مثلي بذراع واحدة وساق واحدة لا يخلو من منفعة.

وكان يضيف وهو يغالب إحدى ضحكاته الثملة:

– نعم... عليك باستثمار كوني حياً لأنني حين أموت لن أعود بالخير إلا على هذا "البومه"...

وكان يردف وهو يومئ برأسه نحو رياض:

– إنه الرابح المؤكد من موتي بحكم كونه الوريث الوحيد لي.... تصوّر!.. سيرث هذا "البومه" كل ما أملك من عقارات وبساتين وأرصدة في البنوك.... بل سيرث أيضاً جبل المخطوطات والكتب والملفات هذا الذي يرتفع أمامنا حتى السقف...

وكان رياض يقاطعه، في كل مرة، داعياً له بطول العمر، فكان بدر يصيح به وقد احمرّ وجهه وجن جنونه:

– اخرس أيها الحمار... أتتوهمني غبياً لا أدرك سر تفانيك في خدمتي؟

وبغتة كان ينطلق ضاحكاً على طريقة السكارى ليعلق وقد عاوده المرح:

– تماماً إنه ليس أكثر من حمار مثل حمار "التوراة" المحمّل بالأسفار!

هكذا بقيتُ أستعيد ذكرياتي عن بدر، معاوداً دون جدوى الاتصال بـ"دنيا" بين فينة وأخرى. وكان اليأس قد داخلني لحظة جفلت على هاتفي وقد شرع في الرنين؛ فسارعت في اختطافه وفي ظني أن "دنيا" هي المتصلة، بيد أنني فوجئت بصوت الأستاذ حسيب رجب وهو يكلمني بلهفة مفصحاً عن شوقه لي، فأكدت له بدوري افتقادي إياه متجنباً بذلك أن أغدو ضحية إحدى نوبات غضبه؛ فقد اشتهر بين معارفه بـ"فلتاته" الجنونية التي كانت تتطور أحياناً إلى معارك لم يكن يتورع فيها من استعمال يديه مع كل من يخطئ فيرتكب "جريمة" مناداته باسمه مجرداً من كنية "الأستاذ"!

وكما توقعت: قضى الرجل – كدأبه في كل اتصال – وقتاً طويلاً في ثرثرة مطعمة بـ"لازمته" التقليدية "أتسمعني يا أستاذ؟" التي لا يملّ من تكرارها وسط دفق متلاطم من شكوى وأنين وتفجّع لكل ما يجري على الكرة الأرضية من مآسٍ ومحن!

حتى إذا ما أفرغ كل ما في جعبته بادرني – كما توقعت – بسؤال بالغ البلاهة يتعلق بسر استمراري في الإحجام عن حضور لقاءاتنا الأسبوعية يوم الجمعة في مقهى "الشابندر" بعد هذا التحسن الواضح في الوضع الأمني؟

ومضى يزيّن لي الأمر زاعماً أن العديد من الأصدقاء، ولاسيما أمجد سالم وهاني الأحمد، يفتقدونني. وأضاف حينما وجدني أتلكأ في الرد:

– وهناك صديقك "الغندور" بهجت لطيف؛ فهو دائم السؤال عنك: لا يكاد يتفقّد حلقتنا بحثاً عنك، مفعماً أنوفنا برائحة أحد العطور المستوردة، حتى يغادرنا ليواصل تجواله في المقهى متنقلاً من تخت إلى آخر عارضاً للأنظار، في كل مرة، بزة جديدة!

وختم اتصاله بقوله:

– تعال يا رجل؛ فزاويتنا المعهودة لن تكتمل إلا بحضورك!

هبطت في ساعة متأخرة دون أن أتخذ قراري النهائي بالذهاب غداً الجمعة إلى المقهى؛ فقد ألفت الاعتصام ببيتي منذ تفجّر الأحداث الدموية، ولولا "دنيا" لما غامرت بمغادرته إلا عند الضرورة القصوى.

كان الجميع قد ناموا، فعمدت إلى تشغيل الحاسوب والتلفاز مستثمراً وجود الكهرباء. وبعدما ألقيت نظرة على بريدي الالكتروني تحولت إلى التلفاز؛ فأخذت أتنقل بين مختلف الفضائيات التي أجمع معظمها على أن الوضع الأمني في العراق غير مستقر. وبثّت إحداها تقريراً مصوَّراً عما يجري في بغداد من صراع طائفي تضمّن لقطات حية تدمي القلب يظهر فيها شباب

متحمسون وهم يلقمون مدافعهم "الهاون" بقذائف يطلقونها، دون لحظة تردد، من وسط أحياء سكنية نحو أحياء مماثلة دون توجيه أو تحديد الهدف المنشود إنما الرمي عشوائياً كيفما اتفق!

وتتبع التقرير صوراً كبيرة، رفعت في الميادين وعلى مفترق الطرق، لمطلوبين للسلطة تمت تصفيتهم في ذروة احتدام القتال الطائفي، بيد أن صورهم بقيت من بعدهم وقد وشحت بتلك العبارة التي تمنّي السلطات الأمنية من يلقي القبض عليهم أحياء أو موتى بمكافآت سخية، وكانت أكبر تلك المكافآت، وقدرها خمسون ألف دولار أمريكي، مرصودة باسم شاب ملتحٍ اشتهر بلقب "الزرقاوي".

أطفأت التلفاز وقد حسمت أمري على الذهاب؛ فما رأيته جعلني أدرك عبث الحذر والتحسّب في وضع على هذه الشاكلة قد تنسفك فيه قذيفة "هاون" طائشة وأنت نائم في سريرك!

صباح اليوم التالي بكرّت في الذهاب إلى شارع المتنبي سعياً مني لإيقاف سيارتي في أقرب موضع من المقهى مستبقاً بذلك تقاطر السيارات التي سيضيق بها الشارع المحاذي للقشلة.

كان الوقت لا يزال مبكراً للجلوس في المقهى؛ فأزجيت أكثر من ساعة، كدأبي في كل مرة، في التجوال مستعيداً ذكرياتي عن هذا الشارع الأثير إلى نفسي حينما كنت على موعد أسبوعي معه، أتفقّد خلاله ليس أصحاب المكتبات وباعة كتب الأرصفة فحسب، بل حتى المتسولين والمجانين والحمالين وفي مقدمتهم "عصفور" بطبيعة الحال؛ فقد كان اسماً على مسمى: محض هيكل عظمي يبدو وكأنه خرج، بتلك الهيئة، من تحت ريشة أحد رسامي الكاريكاتير المولعين بجمع التناقضات كلها في شخص واحد: عينان جاحظتان حولاوان في وجه ضامر بوجنتين ناتئتين، وساعدان نحيلان ينتهيان بقبضتين ضخمتين، وساقان مقوستان معروقتان تستندان إلى قدمين مفلطحتين عاريتين صيفاً وشتاء، في وسعهما الصمود تحت أثقل الأوزان؛ فما أكثر ما تنبهت من شرودي على صوت مجهد يهيب بالسابلة إفساح الطريق، وحين التفت إلى مصدر الصوت أجفل على منظر كتلة هائلة بعلو سيارة حمل تمخر متخطية إياي لتشق سبيلها وسط الحشود، تلوح من تحتها ساقا "عصفور" المقوستان الهزيلتان وهما تدبان بهمة ونشاط!

وكان ثمة متسول عجوز يتجول على نقر عصا لم يكن يتورع عن أن ينال بها أقرب الناس إليه بضربات عشوائية، مرسلاً من حوله الشتائم واللعنات عوضاً عن كلمات الاستعطاف والدعاء المعهودة!

وتذكرت بائع شاي كان ينصب عدته، قبل الاحتلال، في جانب من الشارع. وكان قد أصبح مصدر تفكّه أصحاب المكتبات؛ إذ شاء سوء حظه أن يحمل اسم رئيس الجمهورية نفسه؛ فكان زبائنه يستثمرون أدنى هفوة تصدر منه ـ كأن يكون شايه لم يعد بشكل جيد أو ينقصه السكر ـ فينفثون عما في صدورهم بأن ينهالوا عليه باللعنات والشتائم مقترنة بذكر اسمه بطبيعة

الحال، في حين كانوا يكنونه باسم ابنه البكر حينما كانوا يستحسنون شايه، فكان الرجل يجابههم، في الحالتين، بابتسامة متسامحة.

ولعل أطرف الشخصيات تمثّل بغافل النجار؛ فعلى النقيض مما عرف به عن كونه مجنوناً – فقد حمل هذه الوصمة على أثر إيداعه مدة من الزمن مستشفى "الشماعية" للأمراض العقلية – كان مثال الرزانة والعقل؛ لا ينحرف قيد أنملة عما تقتضيه الأعراف والأصول: يقدم عادة حليق الذقن، مضمخاً برائحة عطرة، يبادر بإلقاء التحية دون أن ينسى ترديد "الله بالخير" المعهودة حال جلوسك، حتى إذا ما مرت لحظات دنا منك على استحياء ليدس في كفك – أو أحياناً في جيبك – ورقة مطوية وهو يهمس لك بصوت خفيض:

– تفضّل يا أستاذ... اقرأ لترى كيف أنني...

وبقية كلامه تتلخص بأفعال جنسية قام بها بحق "خوات" مجموعة من "أساتذة" يحاربونه بسبب حسدهم من "مشروعه الفلسفي" المتمثل بـ"جمهورية غافل النجار الديمقراطية" – هذه الجمهورية التي أهدى إليّ نسخة منها على شكل قرص مدمج استعصى على حاسوبي فلم ينفتح برغم استماتتي لتشغيله! –

أما الورقة التي منحك إياها فيكفيك إلقاء نظرة عابرة عليها لتدرك مبلغ جنونه الذي تخطى الحدود كلها يوم أعلن، في إحداها، ترشيح نفسه منافساً لصدام حسين في تلك الانتخابات التي كان من المألوف أن يخرج بها الرئيس بنتيجة قدرها تسعة وتسعون وتسعة أعشار بالمئة!

استعدت ذكرياتي تلك وأنا أقوم بجولتي المعهودة ملاحظاً أن القلق لا يزال مهيمناً؛ لا يكاد الرواد الذين دأبوا على التزاحم في مثل هذا اليوم يعدون على الأصابع.

في "سوق السراي" كان أول من تفقّدتهم من باعة الكتب "الزوبعي" ذلك الرجل العجوز الذي ما من مرة التقيته إلا وحسبتها آخر مرة أراه فيها؛ ذلك لأنه يبدو نموذجاً مثالياً للموت: تكفيه نزلة برد طارئة ليسلم على أثرها الروح.

بدا الرجل كما تركته في آخر مرة: متربعاً وسط خليط عجيب من كتب ومجلات وصحف بالية أشك بوجود مجنون سيسعى يوماً ما لاقتنائها، يدير عدستي نظارته السميكتين سمك عقب إستكان شاي حوله متتبعاً السابلة، دون أن ينسى الرد بحيوية على تحيات أصدقائه ومعارفه!

في شارع "المتنبي" مررت بمكتبة "عدنان"، فاستقبلني الشقيقان المرحان عدنان ومحمد سلمان بطريقتهما المعهودة شاكرين الله لكوني لا أزال حياً أرزق ولم أذهب ضحية أحد التفجيرات اليومية التي كانت ستحيلني مباشرة – دون صادرة أو واردة – إلى جهنم لكوني لم أسدد ما بذمتي لهما من ديون متراكمة!

ولم أنس تفقّد أحوال بعض أصدقائي من باعة كتب الأرصفة حيث استقبلني "عبد شندي" بجديته الملازمة له؛ فانزوى بي جانباً كمن هو بصدد أن يسرّ لي بأمر بالغ الخطورة:

– الكتب التي سبق لك أن أوصيتني عليها يا أستاذ اقتنيتها لك وبأسعار زهيدة.

همس بها في أذني ليردف دون أن يغادر بعينيه كتبه المفروشة على الرصيف خوفاً من أن يُسرق أحدها في غفلة منه:

– لكنني لم أجلبها معي ظناً مني أنك ستتغيب هذه الجمعة أيضاً أسوة بالشهور التي مضت.

ولوّح لي، من بعيد، "واثق الحيالي" بكتاب، حتى إذا ما دنوت منه انطلق يعرض عليّ، بحركاته العصبية المشفوعة بكلماته المتلاحقة بسرعة خارقة، آخر منشورات "مركز دراسات الوحدة العربية" التي كان ينفرد ببيعها، مبشّراً إياي، وهو يطرف بعينيه الصغيرتين، أن ثمة عناوين جديدة قد وصلت إليه بعدما تحسن الوضع الأمني بعض الشيء وأنه سيعرضها في الجمعة القادمة.

في طريقي إلى المقهى مررت بالشقيقين "اللدودين" اللذين كان أحدهما يناصب العداء للآخر؛ لا يكاد يمر عليهما يوم لا يتورطان فيه بمشادة يكون فيها والدهما المسكين ضحيتهما المشتركة؛ يكيل كل واحد منهما الشتائم بحق والد الآخر غير متنبهين إلى الالتباس الحاصل؛ فالمسكين الذي نال كل هذه اللعنات المضاعفة من الطرفين ليس سوى والدهما نفسه!

وكان المقهى بدوره شبه خالٍ: لا يشغل التخوت المنتظمة يميناً وشمالاً سوى عدد من الرواد أغلبهم عجائز استغرقوا في تدخين نراجيلهم مستمتعين، في حين انصرف آخرون إلى متابعة ما يعرضه جهاز التلفاز المعلق في إحدى الزوايا. وكانت البلابل المحبوسة في القفص المدلى من السقف تواصل تنقلها من جانب إلى آخر، مرسلة تغريدها العذب.

وارتفعت ضجة الأصدقاء، من زاويتنا المعهودة المحاذية للواجهة الزجاجية المطلّة على شارع المتنبي، مرحبين بي. وسارع الأستاذ حسيب رجب بإفساح موضع لي للجلوس بجانبه وهو يردد:

– الآن اكتملت زاويتنا حقاً!

وعاد الجالسون إلى ما كان يشغلهم لتتخذ الجلسة طابعها المألوف: حيث أمجد سالم يوزع، مع كل نفثة دخان من نارجيلته، صراخه على القريبين منه مشفوعاً بالرذاذ، وفي مواجهته بدا هاني الأحمد منطلقاً على سجيته: يدير صلعته المتألقة يميناً وشمالاً وهو مسترسل في ثرثرة كان يطعّمها – كما هو دأبه دائماً – بكلمات نابية من العيار الثقيل، وبجانبي كان الأستاذ حسيب رجب يتطلع حوله بعبوس خرافي وكأنه يحصي على الجالسين أنفاسهم في انتظار صدور أدنى هفوة من شخص ما ليفرغ فيه غيظه!

على هذه الوتيرة استمرت الأحاديث على مدى ساعات، تخللتها، بطبيعة الحال، قهقهات أمجد المجلجلة التي كانت تطغى على صوت هاني الأحمد المنهمك بحديث "سياسي خطير" مطعّم بمفردات الساعة مثل "الشفافية" و"الأجندة" و"الاصطفاف الطائفي" و"الفوضى الخلاقة"،

في حين بقي الأستاذ حسيب، طوال مكوثي، يتنقل بنظراته الضارية بين الاثنين وكأنه لم يحسم بعد من منهما سيكون ضحيته المنتظرة!

وكانت الصور المعلقة فوق رؤوسنا على الجدران – صور فوتوغرافية قديمة بالأسود والأبيض لسلاطين وملوك وولاة ووزراء وقادة وساسة وشعراء اشتهر أمرهم أواخر الفترة العثمانية وخلال العقود الأولى من القرن العشرين – كانت تلك الصور، بالتيجان والطرابيش والقبعات التي تعلو الرؤوس، وبالنجوم والنياشين والأوسمة التي تزين الأكتاف والصدور، تبدو وقد شخصت بأبصارها وكأنها تبحث دون جدوى عن بطولات وأمجاد غابرة أمست أثراً بعد عين.

حين رجعت إلى البيت، قبيل انتصاف النهار، عاودت الاتصال بـ"دنيا" لأكتشف أن هاتفها كان لا يزال مقفلاً، بيد أن ذلك لم يمنعني من تكرار الاتصال بين فينة وأخرى مثيراً بذلك انتباه زوجتي؛ فقد سألتني، في إحدى المرات، مازحة عن سر هذا الرقم العصي على الحصول؟! بقيت بعدها تتابعني بنظرات شك ذكّرتني بفترة تعلّقي بـ"مي"!

انفردت، طوال اليومين اللاحقين، بالمكتبة وقد عاودتني حماستي القديمة للشروع في كتابة روايتي المنتظرة. كان كل شيء قد هيئ؛ فلا عذر لي الآن إذن في التلكؤ والإرجاء، ولا مفر لي من الانطلاق بأحداث الرواية من لحظة عودتي بأسرتي من الأسلاف إلى بغداد مع الرجوع، من حين إلى آخر، إلى فترة الاحتلال البريطاني، مستثمراً في ذلك أحاديثي المطولة مع بدر.

هكذا تلبّستني حمّى الكتابة على مدار ساعات النهار والليل: لا أكاد أتبلّغ بما يخفف عني غائلة الجوع لأعقبه بفنجان قهوة حتى أسارع بإلقاء نظرة عابرة على بريدي الالكتروني قبل أن أثب طاوياً درجات السلّم نحو المكتبة مواصلاً العمل، حتى إذا ما حلّ يوم الاثنين الخامس من آذار – وهذا تاريخ لن أنساه أبداً – جفلت، وسط انهماكي بالعمل، على رنين الهاتف، فالتقطته خوفاً من أن تكون "دنيا" هي المتصلة، لكنني فوجئت باسم حسيب رجب يطالع عيني؛ فلعنته في سري وأنا أفتح الجهاز مردداً عبارات الترحيب المعهودة، فجاءني صوته من خلال الهاتف نحيلاً مثقلاً بالرعب وهو يطرح عليّ سؤاله التقليدي ولكنْ بصيغة مغايرة بعض الشيء:

– أسمعت يا أستاذ؟!

– ما الذي سمعت؟

سألته وأنا أكبح رغبة لا تقام في استفزازه، بيد أنه أجابني مستنكراً:

– هذا الانفجار الهائل الذي هز بغداد كلها منذ أقل من ساعة!!

– لقد الفت دوي الإنفجارات اليومية فلم أعد أنتبه لها حتى لو حصلت عند عتبة بيتي!

أجبته باستهانة، لكنه مضى يصرخ في الهاتف متحدثاً عن تفجير مروّع حصل قبل قليل في شارع المتنبي بين مكتبة صديقنا عدنان ومقهى "الشابندر" على وجه التحديد!

صاح بصوت هستيري:

– لقد سقط العشرات شهداء وجرحى حتى غطت الجثث الشارع!!

قاطعته، وأنا أغالب وجيب قلبي، راجياً إياه التحدث بهدوء لأفهم ما يقول؛ ذلك لأنه خيّل إليّ أنه ليس في وعيه؛ يهذي بالكلام كيفما اتفق، لكنه بدا وكأنه لا يسمعني؛ فقد واصل الصراخ على الوتيرة نفسها:

– لم يكن بيني وبين الموت سوى لحظات، أتسمعني يا أستاذ؟ فقد حدث الانفجار بعد ثوانٍ من مغادرتي مكتبة "عدنان"، بل رأيت عربة الموت عياناً؛ فقبل أن أستدير يساراً لأدخل "القيصرية" لاحظت بدهشة جراراً قادماً من جهة "القشلة" وقد حُمّلتْ العربة الملحقة به بتل من قناني الغاز السائل... فتساءلت: إنْ كان صاحب الجرار قد ضيّع سبيله؟ إذ ما شأن المكتبات بقناني الغاز؟ أتسمعني؟ ولم أكد أنحرف نحو المكتبة القائمة في الركن الأيسر من "القيصرية" – وبذلك كتب الله لي النجاة – حتى اختلّ الكون من حولي.. تصوّر؛ لم أسمع ذلك الدويّ الذي عرفت الآن أن صداه تردد في أرجاء بغداد كلها.. فما سمعته لم يتخط وشيشاً غامضاً تسبب في انسداد أذنيّ... بيد أن ما رأيته كان العجب العجاب وكأن القيامة قامت: فوسط خليط من تراب ودخان لمحت خطفاً أجساداً بشرية تتطاير كيفما اتفق في خضم عصف من الكتب والأوراق والألواح وقطع الإسمنت والطابوق.. ولم أشعر إلا وأنا منبطح على الأرض انتزع الهواء المثقل برائحة غريبة انتزاعاً..

عدت أصيح به طالباً منه أن يهدأ. توسلت إليه أن يكتفي بما قال مرجئاً الاتصال إلى وقت آخر، لكنه واصل هذيانه وقد شرع ينتحب بحرقة متحدثاً، هذه المرة، عن عشرات الجثث التي خلّفها وراءه لحظة اندفاعه للنجاة بنفسه من ألسنة اللهب التي شبّت وسط آلاف الكتب!

تلك الليلة تصدرت كارثة شارع المتنبي نشرات الأخبار في معظم الفضائيات؛ فتتبعت بنظرات غير مصدّقة تلك المكتبات، التي ألفتُ ارتيادها على امتداد عمري، وقد تحوّلت إلى أنقاض؛ فعوضاً عن الرفوف المثقلة بآلاف الكتب انتشر، على مدى البصر، لهب نيران متأججة لا تزال تلتهم بحمية المزيد من الكتب. بدا ذلك الشارع المسالم أشبه بساحة قتال لم تهدر فيها الدماء وحدها، بل المداد أيضاً!

في تلك اللحظة رنّ هاتفي، وكانت "دنيا" هي المتصلة، فانطلقت نحو السلم لأنفرد بالمكتبة، تتعقبني زوجتي بسؤال ماكر مفاده إنْ كان صاحب الرقم العصي قد استجاب لي أخيراً؟!

هنأتني "دنيا" على سلامتي، معترفة بأن الهدف من اتصالها لا يتخطى الاطمئنان عليّ؛ فما كانت تخشاه، طوال متابعتها لصور الكارثة في التلفاز، أن أكون من جملة الضحايا لملازمتي مكتبات ذلك الشارع، فأخبرتها بأن نجاتي مما حصل لم تنته دون خسائر فادحة؛ إذ من المحتمل أن أكون قد فقدت العديد من أصدقائي!

ومضيت أحدثها عن ذكرياتي مع هؤلاء الأصدقاء، وكيف أن أكثر من واحد منهم تكفّل بمد يد العون لي حينما بلغت أزمة الحصار ذروتها وذلك بعرض ما يفيض من كتب مكتبتي الخاصة على الرصيف وسط كتبه، حتى إذا ما شعرت بأنني موشك على الانخراط في البكاء سارعت إلى تغيير الحديث سائلاً إياها إنْ كانت لا تزال مقيمة في بيت ذلك القريب؟ فأخبرتني بعودتها يوم الجمعة إلى الأسلاف، فسألتها عما تنتظره الآن بعدما قطعت الطبيبة الشك باليقين؟ فأجابتني بصوت منطفئ:

– أنتظر رحمة ربي!

– وصاحبنا الشيخ، ألم تحاولي الاتصال به مجدداً؟

– لقد بات الأمر الآن أكثر صعوبة بعدما أحاط نفسه برهط من أقاربه ومريديه، فضلاً عن مجموعة من أعتى "أشقياء" المدينة!

وأضافت بعد لحظات:

–... ثم من المؤكد أنه، وفي مثل هذه الظروف العصيبة، لن يفكر أبداً بمد يد العون لفتاة... مسيحية مثلي!

ووجدتني أستعيد صورة الشيخ غازي فياض وعمامته البيضاء المركونة في أحد أدراج مكتبته في انتظار مناسبة عابرة – عقد قران، أو حضور مجلس فاتحة – ليلتقط تلك العمامة العتيدة نافضاً عنها التراب قبل أن يعتمرها لينطلق نحو المكان المنشود لا يلوي على شيء لقاء مكافأة ضئيلة قد لا تتخطى وجبة طعام!

من المؤكد أن دخوله البرلمان سيتطلب منه اعتمار عمامة جديدة لم يلوثها التراب بعد!

وعدتُ "دنيا" باحتمال توجهي قريباً إلى الأسلاف عسى أن أفلح في حل هذه المعضلة، ملاحقاً، في الوقت نفسه، آخر ما استجدّ بشأن يحيى. واستدركتُ مذكّراً إياها بتلك السفرة الكابوسية التي قمت بها إلى هناك قبل أكثر من ثلاث سنوات والتي انتهت باعتقالي، مؤكداً أنني لن أخوض التجربة مجدداً إلا إكراماً لها، فأنهتْ اتصالها وهي تلهج، وسط نحيبها، بالدعاء لي.

***

والحق أنني كنت قد عاهدت نفسي على استحالة عودتي إلى تلك المدينة بأي عذر من الأعذار؛ فما حصل هناك – ولاسيما بعد انتشار خبر دخول "المارينز" بغداد – أصابني باليأس والقنوط. وكانت أعمال السلب والنهب قد عمت الشوارع؛ فارتفعت أعمدة دخان الحرائق من الدوائر والمؤسسات الحكومية، وباتت أصداء العيارات النارية لا تكفّ عن التردد على مدار الساعة، فاتفقت مع زوجتي على ضرورة الإسراع بالنجاة بأنفسنا؛ فالأسلاف لم تعد بالمكان المناسب لنا. وبشّرتُ أطفالي الثلاثة بأنه آن لهم التمتع من جديد بممارسة ألعابهم الإلكترونية في

الحاسوب، وهكذا سارعتُ، صباح اليوم التالي، إلى تحميل سيارتي بالحقائب لأنطلق بها، وسط كرنفال هياج جماعي ساد الشوارع كلها، مغادراً تلك المدينة كالهارب!

يومذاك كانت زوجتي الجالسة في السيارة إلى يميني، تغالب بصعوبة نشيجها المكتوم. وكان أطفالي الثلاثة قابعين، على غير عادتهم، بصمت في المقعد الخلفي. وعلى صفحة المرآة الداخلية كانت المدينة تتراجع إلى الوراء مكللة بسحب دخان الحرائق.

تمنيت لو كان في وسعي مواساة زوجتي ببضع كلمات، بضع جمل منمّقة تجعلها تدرك أن الأمر أكبر من محض عواطفنا الشخصية؛ فالحريق لم يكن وقفاً على مدينة الأسلاف؛ فمنذ احتلال البلاد والإذاعات لا تكف عن التحدث عما يجري في مختلف المدن، ولاسيما بغداد، من أعمال سلب ونهب تُتوج عادة بإضرام النيران في حريق هائل نما وتشعب، خلال أيام، ليغدو بحجم الوطن.

تمنيت لو كان في وسعي القيام بذلك لولا يقيني بعبث مسعاي ذاك؛ فمنذ إطلاق سراحي – أو "تحريري" بفضل الأمريكان كما قالها نجيب شكري حينها متفكهاً! – فقدت الكلمات لديّ شرف مغزاها؛ إذ كيف تصحّ معادلة أنْ يتم "تحريري" من سجني على أيدي من "يحتل" بلادي؟!

كان الطريق الإسفلتي المتجه غرباً يمتد على مدى بصري وسط صحراء قاحلة دبّ الجفاف حتى في نباتاتها الشوكية، تتوزع على جانبيه، كل بضعة كيلومترات، مفارز متنقلة لرجال "المارينز" الذين كانوا يشيرون إليّ من بعيد – وقد صوبوا أسلحتهم الأوتوماتيكية نحو سيارتي – آمرين إياي بأن أخفف من سرعتي، وهذا ما كنت أعمد إلى إتباعه تلقائياً؛ إذ كانت تكفيني رؤية إحدى دباباتهم الضخمة جاثمة على جانب الطريق، وقد وجّهت مدفعها نحوي، حتى كانت قدمي تسترخي عن دوّاسة الوقود تاركة للقدم الثانية مهمة إيقاف السيارة وسط خليط من رجال بيض وسود بقامات عملاقة وببدلات قتال كاملة التجهيز وقد صالبوا أكفهم على بنادقهم الرشاشة المتقاطعة على امتداد صدورهم مهيأين لإطلاق النار مع أدنى بادرة تنذر بالخطر.

وكان قائدهم يكتفي بإلقاء نظرة عابرة من خلف عدستي نظارته المعتمتين ليشير بمسدسه المستقر في كفه اليمنى آمراً إياي، وقد اطمأن إلى أننا إحدى الأسر العائدة إلى بغداد، بمواصلة السير؛ فكنت أعاود الانطلاق بسيارتي بمشاعر ازدادت انسحاقاً؛ إذ كان يكفيني المرور بسيارة محمّلة، مثل سيارتي، بالحقائب والأمتعة وهي تسير في الاتجاه نفسه، حتى كنت أدير وجهي جانباً محاذراً مبادلة ركابها النظر؛ فالشعور بالعار والخذلان كان يثقل الوجوه كلها دون استثناء؛ فها هي بلادنا وقد أُحتلت أخيراً فأمسى كل ما حولنا يستدعي اليأس والقنوط؛ فالطائرات الأمريكية في حومانها فوق رؤوسنا أشبه ما تكون بالقدر المسلّط على الأعناق، ومفارز "المارينز" المنتشرة على الأرض تجابهنا، أينما تحرّكنا، بفوهات أسلحتها المصوّبة نحو الصدور.

وكان صمت أطفالي الثلاثة مبعث ألم لي طوال تلك الرحلة؛ فكنت أتفقدهم، من حين لآخر، باختلاس نظرات سريعة إلى المرآة الداخلية: فأرى أحمد وطه وقد انصرف كل واحد منهما عند نافذته إلى التطلع نحو الخارج وكأنهما نسيا تلك الضجة التي لم يكفّا عن إثارتها قبل أسابيع – حين كنا نجتاز الطريق نفسه بالاتجاه المعاكس نحو مدينة الأسلاف – والتي لم تكن تخرج عن نطاق التعبير عن شغفهما بجهاز الحاسوب الذي اقتنيته لهما مؤخراً، وتنافسهما المحموم على حلّ معضلات تلك الألعاب الإلكترونية الساحرة. ووسطهما كانت شقيقتهما الصغيرة ندى تغالب النعاس دون أن تعمد إلى الوثوب بين فينة وأخرى – كما كان دأبها في تلك الرحلة – لترتمي على مسند مقعدي لافحة مؤخرة عنقي بأنفاسها الدافئة وهي تناديني بكنية "بابي" – هذه الكنية التي لم تكن تخاطبني بها إلا حينما تكون بصدد طلب شيء ما، مكتفية بكنية "بابا" في الأحوال الاعتيادية! – لتفصح لي عما يشغلها مذكّرة إياي بقرب موعد تسجيلها في المدرسة في الموسم الدراسي القادم، وضرورة ألا أنسى الأشياء التي لا مفر من اقتنائها لها وفي مقدمتها، دون شك، الحقيبة المدرسية والصدرية والقميص، فضلاً عن القرطاسية والمماحي المعطرة وما أشبه!

كنت أسترسل، مع نفسي، في استعادة ذكريات على هذه الشاكلة، محاولاً، قدر الإمكان، إرجاء التفكير بما حصل خلال هذه السفرة المشؤومة، ولاسيما على مدى الأيام الثلاثة الأخيرة منها، حرصاً مني على الإبقاء على "حيويتها" للحظة الكتابة حين يصبح في وسعي أن أنكأ جراحي بسنّ قلمي وصولاً إلى استئناف الكتابة في تلك الرواية التي حاز فيها "بدر" حصة الأسد؛ فها هي شخصيات جديدة تفرض نفسها عليّ: يحيى شفيق، ودنيا، ونجيب شكري، والشيخ غازي فياض، وعطا الملقّب بـ"الديْو"، وعبود، والمسكين موسى الحداد الحريص على إبراز هويته لكل وافد جديد للتأكد من حقيقة اسمه، ورياض صبار بشار، وأيوب العرضحالجي – سفسطائي مدينة الأسلاف! – وحمزة... حمزة "مقطاطه" بعجيزته الأنثوية الضخمة المزدانة أبداً بذلك المسدس الذي كان عليّ أن أنتظر طويلاً لأكتشف أخيراً أنه... للزينة فقط!

– انظر... انظر!!

هكذا كنت أجفل من أفكاري على صوت زوجتي وهي تنبهني على أحد المعسكرات العراقية المهجورة – هذه المعسكرات التي نمت وتعددت بعدد سنوات الحرب الثماني مع إيران على امتداد المسافة التي تفصل الأسلاف عن طريق بغداد البصرة – فأتطلع مرغماً إلى ذلك المعسكر الذي كان يبدو وكأنما قد تعرض لزلزال مدمر قلب الدنيا رأساً على عقب؛ فمعدّات القتال الثقيلة مبعثرة على جانبي الطريق وقد تحطمت كلها دون استثناء، واسودّ بعضها الآخر وذاب فلم يبق منه إلا بقايا هياكل معدنية.

كانت خليطاً من دبابات، وعجلات استطلاع مدرعة، وناقلات أشخاص، وراجمات، ومدافع ذاتية الحركة محمولة على سرفات، ومدافع رباعية لمعالجة الأهداف الجوية، وقد تناثرت على مدى البصر وسط خنادق ومواضع قتال مغطاة بشبكات التمويه.

وعلى امتداد الطريق الإسفلتي تناثرت أكداس من العتاد: رمانات يدوية، أشرطة طلقات رشاشة مقاومة للطائرات، قنابر هاون، قذائف مدفعية مختلفة الحجوم، وآلاف من إطلاقات الأسلحة الفردية.

وكانت أبراج الكهرباء العملاقة – الضغط العالي – القائمة بمحاذاة الطريق قد انثنت، من شدة عصف الصواريخ، على نفسها، لتمسّ بقممها الأرض، وكأنها صيغت من المطاط!

وكانت زوجتي تهتف في كل مرة وقد أطلقت لنشيجها العنان:

– حتى الفولاذ ذاب بفعل حمم القصف، فكيف بأجساد الجنود المجبولة من لحم ودم؟!

***

هكذا بدأنا رحلة العودة إلى بغداد بعدما سبق لنا، قبل أسابيع، أن سلكنا الطريق نفسه في اتجاه مدينة الأسلاف: يومها كان يملؤني شعور مبهم بالخجل وأنا أتذكر آخر كلمات "مي" في الهاتف؛ فحين أبلغتها بقراري بالسفر بأسرتي إلى الأسلاف علّقت متهكمة:

– يبدو أنك تستبق وقوع الكارثة بالهرب منها مثلما تعمد الفئران إلى هجر المركب المهدد بالغرق!

فرجوتها الكفّ عن تهكمها؛ فواجبي يحتم عليّ ألا أفرط بأحد أفراد أسرتي في زمن أمسى فيه العراقي محض رقم قد يضاف، في أية لحظة، إلى قائمة الضحايا الذين بات من المألوف أن يتساقطوا بفعل صواريخ قادمة، دون سابق إنذار، من خلف البحار والمحيطات!

– وأنا؟ ألا يؤرقك أن تعرف القائمة التي سأضاف إليها؟

سألتني معاتبة قبل أن تضيف وقد عاودها تهكمها:

– ستبقى كما عهدتك موزع الإرادة بين المستر "جيكل" والمستر "هايد": لا تستطيع الحسم في أخصّ شؤونك!

واستطردت بنبرة متسامحة بعدما وجدتني لا أحير جواباً:

– على كل حال اذهب صحبتك السلامة وبلّغ زوجتك تحياتي دون أن تنسى أن تقبّل نيابة عني الصغار ولاسيما العزيزة ندى.

– كأنني بك تودعينني الوداع النهائي!

– الأمر كما تقول؛ فقد آن لحكايتنا الصغيرة أن تنتهي.

ومرت لحظات صمت أنهتها قائلة:

– نعم آن لها أن تنتهي، وأنا، كما تعرفني جيداً، عند قولي، وستتأكد من ذلك حينما تعود إلى بغداد؛ فالتردد، كما هو شأنك، ليس من شيمي.

ما الذي كانت "مي" ترمي إليه بكلامها المبطّن في ذلك الاتصال الهاتفي؟

سؤال لم يشغلني طويلاً برغم أنه أورثني الحزن؛ فنذر الحرب التي أخذت تلوح في الأفق طغت على كل ما عداها. وكانت سنوات الحصار الثلاث عشرة قد لقنتني درساً استثنائياً تكفّل بتسفيه مجمل الدروس التي كنت قد تشرّبتها على امتداد عمري عن حضارة الغرب ورقيّه وتقدمه ورسوخ روح الديمقراطية لديه؛ ذلك لأن كل الدلائل كانت تؤكد أن هذا "الغرب" يستثمر، على أفضل وجه، حماقة السلطة الحاكمة في بغداد وذلك بتجنيد كل قواه لاحتلال وطني متخذاً من فرق التفتيش الدولية الباحثة عن أسلحة الدمار الشامل خير ذريعة لتجريد الجيش العراقي بالتدريج من أسلحته التقليدية، حتى إذا ما وقعت كارثة الحادي عشر من أيلول في نيويورك بات الاحتلال أشبه بالقدر الذي لا مفر منه.

وكانت مدينة الأسلاف، شأنها شأن المدن والقصبات النائية المتاخمة للحدود الإيرانية، قد أضحت مقصد مئات الأسر النازحة بحثاً عن أمان حتى لم يكد بيت من بيوت المدينة يخلو من وافدين. وكان بيت القريب الذي لجأت إليه بأسرتي قد ضاق بأسر الأقرباء والمعارف المتدفقين عليه بشكل يومي حتى أوشك على ألا يستوعبهم؛ فاضطر بعضهم إلى الاستقرار في زوايا الحوش معولين على جنوح الجو للدفء.

وكان الضجيج والصخب الدائمان قد باتا من سمات البيت اليومية؛ لا يكف عشرات الأطفال عن التدافع وسط الحشود مستمتعين بألعاب يساعدهم تجمعهم على ابتكارها. وكانت هناك معارك جانبية تنشب على غير توقع بين النساء في ازدحامهن حول صنابير الماء أو التنور أو الحمام. وكانت هناك أيضاً النداءات الصاعدة والهابطة بين الحوش والطبقة العليا، تتخلل ذلك ضجة أجهزة المذياع الصادحة بالأغنيات الشائعة، ودقات ساعة "بك بن"، وأصوات المذيعين وهم يلخّصون آخر الأخبار العاجلة وفي مقدمتها استمرار تدفق القوات الأمريكية على الخليج استعداداً لإعلان ساعة الصفر

كنت أستميت لانتشال نفسي من تلك الفوضى وذلك باللجوء إلى زاوية إحدى الغرف حيث اعتدت الانفراد بحقيبتي الجلدية المتخمة بأرشيف الرواية الموزّع بين تلك المسودات التي خرجت بها من حواراتي مع بدر فرهود الطارش، ومجموعة نصوص مستنسخة عن وثائق، وبضعة ملفات ودراسات أثنولوجية عن تاريخ مدينة الأسلاف، فضلاً عن مجموعة صور فوتغرافية قديمة.

وكان هناك أيضاً عدد نادر من مجلة "ناشونال جيوجرافيك" الأمريكية صدر في شهر "مايو" عام ١٩٢٣ – وقد خصص لمقبرة "توت عنج آمون" التي كانت قد أُكتشفت آنذاك – وكتاب "العصور القديمة" لمؤلفه "بريستيد" بترجمته العربية الصادرة عام ١٩٢٦ عن المطبعة

الأمريكانية في بيروت، وقد تنازل لي عنهما بدر في لحظة كرم مفاجئة؛ ذلك لأنه كان يعتز بهما بالغ الاعتزاز لكون "المس بيل" نفسها هي التي أهدتهما إليه قبيل وفاتها بأسابيع.

كنت أحسب أنني سأستثمر هذه الرحلة بالرجوع إلى ذلك الأرشيف للاستعانة به في استئناف العمل في روايتي دون أن يخطر لي أن ما سيكون في انتظاري ليس أكثر من ضرب من كوميديا "دانتي" الإلهية مع فارق تمثّل بعدم وجود حدود فاصلة بين الجحيم والمطهر والفردوس؛ فالحدود بدت متداخلة: ففي الوقت الذي ألمح فيه رجلاً عجوزاً انفرد بإحدى زوايا البيت مواجهاً "القِبلة" لأداء صلاته، أشم رائحة الخمر تفوح من شاب تهالك جالساً بالقرب مني وقد انصرف إلى مراقبة كل ما يحيط به بعينين ماجنتين باحثاً عن مادة للتسلية تجعله يطلق ضحكات ثملة!

كان في وسعي، بطبيعة الحال، مغادرة البيت مزجياً ساعات يومي المملة بالتجوال في تلك الأماكن المعهودة التي قضيت فيها أغلب سنوات عمري قبل هجرتي إلى بغداد، بيد أن ما كان يثبط من همتي للقيام بذلك افتقادي لأغلب أصدقاء "تلك الأيام"؛ فالعديد منهم – وفي مقدمتهم بدر فرهود الطارش – كان قد مات، في حين هجر آخرون المدينة؛ فكنت أبدو كالتائه وأنا أحاول التجوال أو الجلوس في تلك الأماكن وحيداً إلا من ذكريات يزيد افتقادي هؤلاء الأصدقاء من وطأتها، ولولا يحيى شفيق لاضطررت إلى البقاء أسير كوميديا "دانتي" الإلهية طوال تلك الأسابيع.

وكان يحيى، ومنذ اليوم الأول لوصولي، يحرص على تفقّد أحوالي: أتنبه لقدومه لحظة يتخطى عتبة الدار داخلاً؛ فقد كانت ترتفع جملة أصوات دفعة واحدة من هذه الغرفة أو تلك، كما كانت تتردد صيحات ترحيب من الطبقة العليا بجوقة أصوات مازحة لا تخلو – على الطريقة العراقية – من الشتائم واللعنات؛ فقد اتصف يحيى، ومنذ عرفته، بخصلة استثنائية تتمثل بسرعة تآلفه مع الآخرين: لا يكاد "يرتاح" إلى شخص ما حتى يأخذ على عاتقه مهمة تذليل كل ما تحيط به من عقبات دون أن يبخل عن مد يد المساعدة إليه كأنْ يقدم متأبطاً حزمة حطب وقوداً للتنور، أو يشمر عن ساعديه لينهمك في تصليح أداة عاطلة لأسرة صديقه الجديد، أو يعمد إلى سحب إمدادات كهربائية نحو أحد الأركان لغرض تثبيت مصباح وما أشبه. وكان يدخل عليّ أحياناً بيدين ملطختين بالنفط حتى الكوعين مجنّداً إياي للإسهام في إنجاز المهمة التي أخذ على عاتقه القيام بها!

وبقدر ما كان مقدم يحيى مصدر سعادة لي كان، في الوقت نفسه، مبعث الكثير من التوجس والقلق؛ إذ ما من مرة جاءني إلا وانتقدني لاختياري مدينة الأسلاف ملجأً لي ولأسرتي، وحين كنت أجابهه بقولي:

– وأين تريدني أن ألجأ وبغداد ستكون الهدف الرئيسي للحرب؟

كان يجيبني مستنكراً:

– وهل تحسب أن الأسلاف ستكون بمنجاة منها؟

– لا بطبيعة الحال، بيد أن بغداد ستستهدف بالقصف أكثر من المدن الأخرى لكونها العاصمة.

– ومن قال لك إن الحرب ستقتصر على القصف فقط؟

كان يسألني وهو يتأملني بنظرة ثاقبة ليضيف حينما يجدني لا أحير جواباً:

– ما أخشاه حقاً هو اندلاع حرب أخرى... حرب الأحقاد الدفينة والثارات المؤجلة التي تطفو على السطح عادة بعد حروب القنابل والصواريخ؛ أنسيت ما جرى عقب انتهاء "عاصفة الصحراء"؟

وكان مما يضاعف من قلقي، كلما كنا بصدد مغادرة البيت، حرص يحيى الدائم على السؤال عن ولديّ أحمد وطه، وضرورة ألا أدعهما يغيبان عن عينيّ. وكان يستدرك قائلاً إنه لا خوف على الطفلة؛ فهي أصغر من أن تفلت قبضتها من تنورة أمها، أما الولدان... وكان يعود ليؤكد ضرورة ألا أدعهما يغيبان عن نظري!

وكان يحيى يقدم عادة وقد ارتدى أفضل ما لديه، وهنا المشكلة؛ فقد انفرد الرجل بأسوأ ذوق عرفته في اختيار ملابسه: يجمع مثلاً بين قميص أحمر وبنطال بمربعات بيض وسود – مثل رقعة الشطرنج! – وثمة "كاميرا" تتدلى من رقبته مضفية عليه هيئة سائح غجري!... وكان يتوج كل ذلك، حال خروجنا من البيت، بوضع نظارة سوداء على عينيه – مثل نظارات العميان – بعدستين زئبقيتين تعكسان الصور كالمرآة. وحينما كنت أسأله بضيق عن مغزى ما يقوم به؟ كان يزعم أن ذلك يعود لحساسية عينيه من الضوء!

كان في واقع الحال يشعرني بالإحراج وهو يرافقني بتلك الهيئة الشنيعة التي كان من البديهي أن تلفت أنظار الآخرين؛ فكانوا يشيعونه بنظرات استنكار كان هو الوحيد الذي لم يكن يتنبه لها!

***

كنا نبدأ جولتنا اليومية باجتياز ذلك الزقاق الضيق الذي يفضي بنا إلى ساحة لوقوف السيارات، حيث انزوت سيارتي في جانب منها، فيقف يحيى عند دكان معين، من جملة دكاكين متراصفة حول الساحة، سائلاً صاحبه العجوز عن أسعار مختلف البضائع العطارية الموزعة من حوله على الرفوف، مساوماً إياه طويلاً على أثمانها ليكتفي في النهاية – وسط استياء البائع المكتوم – بشراء علبة سجائر يبادر باستلال اثنتين منها مقدماً لي إحداهما – برغم معرفته المؤكدة أنني غير مولع بالتدخين – لينصرف، بعد إيقاد الأخرى، إلى التحدث عما يجنيه أصحاب الحوانيت هؤلاء من أرباح مستغلين تقاطر الناس على المدينة هرباً من الحرب الموشكة على الاندلاع وتهافتهم على شراء كل ما يعرضونه في دكاكينهم من بضائع كاسدة.

كان يستطرد في كلام على هذه الشاكلة – تاركاً إياي أتملى انعكاس وجهي على عدستي نظارته كلما قام بالتفاتة نحوي – مؤكداً أن الجميع من حوله، باستثنائه هو، يعيشون حياتهم بـ"شطارة": يحيلون التراب بين أيديهم إلى ذهب على النقيض منه هو الذي لم يرث من أبيه "المبيضجي" سوى سواد الهباب الذي لوّث حياته إلى الأبد.

وبعد قيامه بالتفاتة أخرى نحوي يتطرق هذه المرة إلى سيرة أبيه وبخله المرضي وقسره إياه على الزواج وهو لا يزال طفلاً مغتنماً فرصة كون عروسه "الميمونة" يتيمة لن تطالبهم بأي مهر!

كان "المال" عقدة حياة يحيى: لا شيء يشغله سوى التفكير بالوسائل التي تكفل له حياة أفضل حتى بلغ به الأمر أنه وجد في الحرب الموشكة على الاندلاع فرصة ذهبية لاستثمار ما يملك من مدخرات شحيحة بشراء مواد غذائية – كالباقلاء واللوبياء والماش والعدس والبرغل – ليبيعها، عند احتدام الأحداث، بأسعار "مناسبة"!

وكنت، طوال تجوالنا، أحاول، ما أمكنني ذلك، نسيان حقيقة اقتراب موعد نشوب الحرب، بيد أن يحيى لم يكن يترك وسيلة إلا ويستثمرها لتذكيري بها: يحرص مثلاً، ونحن نجتاز زحام الشوارع الصاخبة، على تنبيهي إلى خيط دخان دقيق يخترق زرقة السماء محدداً ببياضه مسار إحدى طائرات الاستطلاع الأمريكية وهي تطير على ارتفاع شاهق في جولة رصد يومية قد تتمخض عن اختيار أهداف ستنقض عليها فيما بعد طائرات أخرى لتدكها بما فيها من بشر وحجر، أو يعمد إلى أن يقودني نحو بناية تعرضت لعملية قصف أحالتها إلى ركام، أو يتقدمني نحو إحدى ساحات المدينة المزدانة بعشرات اللافتات السود التي تنعي ضحايا آخر الهجمات!

ولم يكن يحيى ينسى أن يرفع صوته، وسط صخب السابلة محاولاً، مع نفثات الدخان، أن يوجز لي أهم الأحداث "المأساوية" التي وقعت عقب آخر رحلة قمت بها إلى المدينة، معدداً أسماء من مات ومن هاجر من الأصدقاء والمعارف. وكانت أحاديثه تقاطع أحياناً باعتراض شخص ما سبيلنا لينقض عليّ معانقاً إياي، مغرقاً وجهي بالقبل قبل أن يقف في مواجهتي متمعناً بي النظر ليطرح عليّ، وهو يبتسم، سؤالاً تقليدياً مفاده إن كنت أتذكره؟ وهو سؤال كان يتطلب مني تضييق العينين وهرش الرأس وأنا أتأمل ذلك الوجه محاولاً أن أتذكر الهيئة التي كان عليها قبل أعوام!

وكان يحيى يحرص على أن يعرج بي على الأماكن التي كانت أثيرة لدي في الماضي دون أن يخامره الظن أنها لم تعد كذلك الآن؛ فقد كان يحزنني مثلاً أن نمرّ بمقهى "أبو بلقيس" بعد موت صاحبه واضطرار بناته إلى تأجيره لتاجر تمور أحاله إلى "علوة" تتراصف فيها خصاصيف التمر حتى السقف، ملطخة بعصيرها الدبق الجدران التي كان "أبو بلقيس" يزينها بلوحاته "الفطرية" وبديكوراته التي كان من أبرز معالمها شبكة صيد ودراجة هوائية كانت تحمله، من حين إلى آخر، إلى الريف المحيط بالمدينة مصدر إلهامه للوحاته المائية.

كان من المحزن أن أمر بين خصاصيف التمر المتراصفة على الجانبين لأنتهي بالشرفة الخلفية المطلة من حالق على "وادي المر" حيث تتدفق المياه غرباً.

كنت أقف في تلك الشرفة مستعيداً ذكريات لقاءات غابرة جمعتني بأصدقاء عديدين، متأملاً الأبنية القائمة على الجرف الشمالي للنهر والتي هي خليط من مشارب ومقاه ودور لهو كانت تضج يوماً ما بصخب الأغاني والموسيقى.

كان الصمت يخيم عليها الآن؛ فبعد "عاصفة الصحراء" تم تبنّي فكرة "الحملة الإيمانية" التي تقضي بمنع تعاطي المسكرات علناً التزاماً بـ"أحكام الشريعة"؛ فكان أن هجرت تلك الأماكن، وتحول بعضها إلى محلات لبيع السمك أو صالات للعب "البليارد".

كنت أستغرق طويلاً، وسط صخب النوارس وهدير المياه، في تأمل تلك الأبنية الممتدة على مدى البصر، مثبتاً عيني على بناية المتحف، القائمة في أقصى الشمال، كابحاً رغبة ملحّة بالاستفسار عن آخر أخبار المتحف بعد موت مؤسسه بدر فرهود الطارش؛ وذلك ليقيني أن سؤالاً على هذه الشاكلة سيثير شجون يحيى مذكراً إياه برياض صبار بشار مدير المتحف الجديد وخصمه الوحيد في مدينة يعدّ قاطنيها كلهم دون استثناء أصدقاءه!

ولم يكن يفوت يحيى، ونحن نستأنف التجوال، تنبيهي على المتاريس المقامة عند أغلب منعطفات الشوارع والساحات، حيث أعداد من الجنود وأفراد من الجيش الشعبي كانوا يربضون خلفها بأسلحتهم الشخصية، وثمة أعداد أخرى كنا نلمحهم على أسطح الدوائر الحكومية أو الأسواق المركزية وقد تجمعوا حول مدافع مضادة للطائرات.

وكان يحيى يحرص على تبديد رتابة تلك الجولات وذلك باصطحابي إلى مقاهٍ وأسواق نشأت بعد هجرتي إلى بغداد ولاسيما تلك الأسواق المرتجلة التي كانت وليدة أزمة الحصار، حيث يباع على أرصفتها كل ما يخطر على البال من كتب وملابس مستعملة وأقفاص طيور وتحفيات ولوحات فنية واسطوانات موسيقية وأجهزة مذياع قديمة ومسابح... بل كانت هناك أسرّة نوم وأبواب وشبابيك أقتلعها أصحابها من بيوتهم لغرض بيعها سعياً لتوفير لقمة خبز لأسرهم!

وكان هناك مقهى يقع شرقي المدينة على حافة البحيرة، يؤمه عادة المهربون واللصوص وشذاذ الآفاق، حيث تعرفت فيه إلى نجيب شكري ذلك الكهل المرح الذي تميز بشعر غزير غزاه الشيب وعينين صغيرتين ماكرتين كان يديرهما حوله لحظة دخوله المقهى باحثاً عمن يجعله موضع سخرياته قبل أن يرابط على تخته المعهود لينصرف إلى تدخين نارجيلته. وكان يحيى يقع، في الغالب، ضحية تلك السخريات؛ لا يكاد نجيب يناديه بـ"ابن شفيق المبيضجي" حتى تثور ثائرته!

كان يحيى سريع الانفعال، يأخذ سخريات نجيب على محمل الجد؛ فيصيح وينزل أقذع الشتائم بحقه معيّراً إياه بلقب "الكذّاب" الذي أصبح لا يعرف إلا به، فكان نجيب يرد عليه ضاحكاً:

– خير لي من أن أعرف بهذا اللقب من لقب "الفاسق" الذي ستشتهر به لو واصلت غرامياتك السرية مع صاحبتك المسيحية!

وكان يردف مذكياً ضحكات رواد المقهى:

– أليس من العار أن تقسر هذه المسكينة على التحجّب لقاء مرتب شهري؟!

وكان يضيف مستشهداً بمن حوله على صحة ما يقول:

– ثم خبّروني يا جماعة الخير: أسبق لكم أن سمعتم بمسيحية محجّبة؟!

فكان يحيى يضطر، وقد صعقه الهجوم، إلى أن يلوذ بالصمت وسط ضجة الضحكات، مكتفياً بأن يردد هامساً أن في وسعه "إنهاء" نجيب لولا أن "الوشاية" ليست من شيمه وأنه يترفع عن الانحدار إلى مستوى شخص وضيع مثله ليس أكثر من مهرّب يصول ويجول بزورقه على امتداد البحيرة وصولاً إلى المدن الإيرانية المتاخمة للحدود، حيث يهرّب إليها كل ما يخطر على بال بما في ذلك قطع آثارية لا تقدر بثمن!

وحين كنت أبدي له شكي بحصول ذلك بسبب استحالة اجتياز الحدود بعد حرب السنوات الثماني كان يجيبني باستهانة:

– من الواضح أن معلوماتك عتيقة؛ فالحكومة لم تعد تتحكم بالحدود كسابق عهدها، بل الحال انقلبت إلى محض فوضى في الأشهر الأخيرة ولاسيما بعد ترسخ اليقين من أن الحرب ستقوم دون شك وأن الأمريكيين قادمون لا محالة.

وكان يضيف وهو يومئ برأسه إلى الجالسين من حولنا:

– في وسعك أن تتأكد أن نصف الرواد ينتمون إلى سلك الأمن، بيد أن مرابطتهم في المقهى لا تعود لحرصهم على ممارسة مهامهم، بل لكون مصالحهم قد ارتبطت بهؤلاء المهربين: ييسرون لهم اجتياز الحدود ويحمونهم لقاء عمولة تخفف عن أسرهم وطأة الحصار!

وكان ينهي كلامه الهامس بالتأكيد أن "نجيب" يبقى من أكثر المستفيدين من علاقاته بهؤلاء الرجال: يعوّل عليهم في حمايته من كل مساءلة غير مأمونة العواقب وهو يمارس التهريب على هواه.

وفوجئت، ذات يوم، بيحيى وقد فاض به الكيل من سخريات نجيب؛ فما اكتفى، هذه المرة، بأن يردد لي هامساً جملته المعهودة من أن "الوشاية" ليست من شيمه، بل جابه خصمه الماكر منذراً:

– يستحسن بك أن تعمد إلى إغلاق فمك وإلا سأضطرك إلى ذلك بكشف أوراقك القديمة حينما تمَ تجنيدك في صفوف "التوّابين"!

ولم أصدّق نفسي وأنا ألاحظ أن تلك الكلمات المعدودة فعلت فعلها في نجيب؛ فقد غاض الدم عن وجهه؛ فأخذ يتلفت حوله بهيئة محرجة، حتى إذا ما سيطر على نفسه سارع إلى إطراء يحيى مؤكداً أنه لا يضارع في طيبة قلبه، وأن عيبه الوحيد يتمثل بسرعة فقده لأعصابه، عمد بعدها إلى لف خرطوم نارجيلته حول عنقها ليغادر المقهى بحجة ارتباطه بموعد مع شخص ما!

لقد أدهشني رد فعل نجيب؛ فألحفت على يحيى بالسؤال راجياً إياه أن يفسر لي سر ما حصل، بيد أنه امتنع مكتفياً بالتنويه بمرارة سنوات الحرب الكريهة التي قضيا معظمها – هو ونجيب – في "أقفاص الأسر" في إيران!

وسألت يحيى، في إحدى المرات، عن ذلك المقهى الصغير القائم وسط المدينة، في مواجهة المحكمة، والذي اشتهر أمره في أعقاب حرب "عاصفة الصحراء" بفضل "أيوب العرضحالجي"، فأكد لي أنه لا يزال كما عهدته: يتقاطر عليه أصحاب القضايا طمعاً في أن ينصفهم أيوب فيسترد حقوقهم ممن ظلمهم!

واصطحبني، في اليوم نفسه، إلى هناك حيث طالعني العجوز أيوب وقد ازداد نحولاً حتى كاد جسده العظمي يضيع في ثنايا ملابسه الفضفاضة. وكان وجهه المستطيل قد غزته التجاعيد وابيضّ حاجباه تماماً. كان كل شيء قد تغيّر فيه خلا أمرين: "سدارته" السوداء التي تعلو رأسه مثل عرف الديك، وصوته الذي بقي، كما عهدته، مجلجلاً يُسمع في الجانب الآخر من الشارع!

راقبته مستمتعاً، من خلال رؤوس الجالسين، وقد تحصنّ في ركنه المعهود، يدبج دون ملل، العرائض على طاولته المبقعة بآثار أعقاب إستكانات الشاي، واعداً المحيطين به بأنه الكفيل باسترداد حقوقهم.

وبعدما يتمخط في منديله، ويرفع صوته آمراً صبي المقهى بإسعافه بإستكان شاي، يكرر حكمته الخالدة:

– "ما ضاع حق وراءه مطالب"!

يشرع بعدها في تدبيج عريضة جديدة دون أن يكفّ عن مواصلة ثرثرته مضمّناً إياها كلمات فصيحة يدير بها رؤوس المتحلقين حول طاولته العتيدة الذين يؤخذون عادة بمثل تلك الكلمات؛ فيتطلعون إليه بتهيّب وهم يزدردون لعابهم باحتراس!

هكذا عهدت "أيوب": لا يوجد لمفردة "الفشل" موضع في قاموسه، لا بل إن إخفاقه يزيده إصراراً وتحدياً، لا يهدأ له بال إلا بعدما ينال وطره!

إنه نموذج فريد يذكّرني بنماذج "السفسطائيين" الذي ناصبهم "أفلاطون" العداء في محاوراته: لا يردعه وازع من ضمير في سعيه لتحقيق أهدافه!

لقد أضحى أيوب أسطورة مدينة الأسلاف على أثر مقتل زوج شقيقته بائع اللبلبي "نجم الأعرج" بطلقة طائشة في أعقاب الفوضى التي سادت المدينة بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت؛ فقد دأب على التأكيد أنه لن يدع دم "الرجل" يذهب هدراً؛ ذلك لأنه لم يُقتل "جزافاً" إنما "أُستشهد" – وكان يلفظ تينك المفردتين بالفصحى! – وذلك ما حصل تماماً: فعلى أثر رحلات دورية قام بها إلى بغداد أفلح في ضم اسم زوج شقيقته إلى قائمة المشمولين بنوط الشجاعة!

***

على تلك الوتيرة كان يحيى يقودني في جولات يومية نمرّ خلالها بشوارع وأسواق ومقاهٍ ومحلات وبيوت لا مفر لنا من الاستجابة لإلحاح أصحابها بالجلوس بعض الوقت واحتساء إستكان شاي أو فنجان قهوة يوفر ليحيى فرصة الاستعانة بكاميرته لتوثيق تلك الجلسات بلقطات تذكارية كان يعمد فيها إلى ارتداء نظارته اللعينة!

وكانت الأحاديث التي تثار عادة تصيبني باليأس؛ ذلك لأنها تتطرق إلى مجريات الحرب الوشيكة وما سيتمخض عنها من مآسٍ، متطرقة إلى ذكر حروب سابقة وما ارتبطت بها من ويلات. وكنت، طوال إصغائي لتلك الأحاديث، أتحصن بالصمت مقلّباً نظرات حزينة في تلك الوجوه التي يفصح كل ملمح فيها عن طول المعاناة دون أمل، حتى إذا ما استأنفنا التجوال عاودتني تلك الفكرة الملحّة التي مفادها أنني بصدد فقدان مدينة الطفولة والصبا إلى الأبد، فكرة كانت قد لازمتني على امتداد سنوات الحصار مقترنة بضرورة تجسيدها في عمل روائي كنت أرى الأحداث المتسارعة – وهنا المفارقة! – تزيده استحالة على التنفيذ؛ كنت أشعر وكأنني على مشارف حلم يوشك أن يتحول إلى كابوس؛ ذلك ليقيني أن كل ما يحيط بي من سابلة وشوارع وبنايات وسيارات مهدد بالفناء!

وكانت جولاتنا تلك تنتهي عادة بمكتب يحيى للاستنساخ، وكان يقوم في "قيصرية" تتراصف فيها محلات صغيرة بواجهات زجاجية تتوزع بين مطاعم للأكلات السريعة، ومحلات للمرطبات والحلويات والمعجّنات، ومكتبات وحوانيت لبيع القرطاسية وأخرى للأدوات المنزلية والخياطة وما أشبه.

كان مكتب يحيى للاستنساخ يقوم وسط تلك المحلات حيث تكون في استقبالنا "دنيا" – تلك المسيحية المحجّبة – بابتسامتها الخجلى وتمتماتها الهامسة وهي ترحب بنا متهربة بعينيها الغارقتين وسط كثافة أهدابهما مني لتنصرف إلى جهاز الاستنساخ مستأنفة عملها الذي قطعناه عليها بدخولنا.

كانت "دنيا" في حدود الثلاثين من عمرها، ضئيلة الحجم على شيء من شحوب، تهفهف من حولها ملابسها الفضفاضة المحتشمة المتوجة بالشال التقليدي المحيط بوجهها الصغير الذي تميّز بعينين كبيرتين ترتسم فيهما دائماً نظرات مذعورة توحي بأن صاحبتها تتوقع الزجر في أية

لحظة. ولم أسمعها قط تضيف على تمتمات الترحيب كلمة واحدة، مكتفية بالابتسام لي كلما التقت أعيننا مصادفة، بيد أنها كانت ذات تأثير واضح على يحيى؛ فقد كان يتحول بحضورها إلى كائن آخر؛ يحاورني بشيء من استعلاء ولا مبالاة ليست من طبعه، ينادي بنبرة متسلطة:
– شاي يا ولد!

وسرعان ما يتحفنا، بعد دقائق، بإستكاني شاي "الولد" الذي كان شيخاً تخطى الستين من عمره، يتخذ من إحدى زوايا "القيصرية" موضعاً لعمل الشاي.

كنت أخمّن وجود صلة عاطفية تربط يحيى بـ"دنيا"؛ ففضلاً عن ادعاءات نجيب شكري التهريجية كانت هذه الصلة تفضح نفسها أحياناً دون وعي منهما: ففي إحدى المرات مثلاً انشغل يحيى بتصليح جهاز الاستنساخ على أثر تعطله، فكشف الغطاء الجانبي عن عشرات الأسلاك الدقيقة المتداخلة ببعضها، وانهمك، بخبرة من سبق له المرور بالتجربة نفسها، بتلمس تلك الأشياء، في حين بقيت "دنيا" تحوم حوله وهي تناوله هذه الأداة أو تلك، مبادلة إياه تمتمات مبهمة وقد انسجم الاثنان في عملهما متناسيين وجودي، حتى إذا ما دبت الحياة في الجهاز من جديد فأخذ يواصل صوته الرتيب مدت "دنيا" طرف شالها بحركة تلقائية نحو وجه يحيى محاولة إزالة بقعة دهان عنه، فأبعد يدها مزمجراً وقد تنبه لي وأنا أراقبهما منتشياً!

منذ ذلك اليوم بات من دأبي، كلما اختليت بيحيى، السعي إلى كشف سر الصلة التي تربطه بـ"دنيا"، ولكن دون جدوى؛ فقد كان يجابهني بكلمات احتجاج واستنكار يضمنها عذره التقليدي:

– أنسيت أنها مسيحية، فضلاً عن أنني متزوج وأب لنصف دزينة من البنات؟!

وكان يضيف محاولاً تسويغ حرصه على الفتاة:

– كل ما هنالك هو أنني أعتمد عليها في إدارة المكتب لقاء مبلغ محترم؛ فهي، برغم خجلها وتحفّظها، ذات ثقافة رفيعة؛ مهووسة بقراءة الروايات العالمية، تحرص على اقتباس ما ترد فيها من مقاطع تثير انتباهها فتدوّنها في دفتر سيعجبك لو استطعت إقناعها بالسماح لك بالاطلاع عليه.

وكان يختم كلامه زاعماً أنه لم يعمد إلى استنساخ أية رواية من رفوف الروايات المعروضة في مكتبه إلا بعد استشارتها!

بيد أنني لم أكن أقتنع بكلامه ذاك؛ فثمة هاجس داخلي بقي يوسوس لي بوجود علاقة عاطفية تربط أحدهما بالآخر، وقد برهنت الأحداث على صحة ذلك الهاجس؛ فذات يوم، ونحن نجتاز سوق المكتبات في طريقنا إلى مكتب الاستنساخ، فوجئت بيحيى يتوقف على حين غرة داعياً إياي إلى العودة من حيث قدمنا واختيار طريق آخر للوصول إلى المكان المنشود. وحينما سألته مستنكراً عما دهاه؟ أجابني وهو يقوم بإيماءة مبهمة إلى اتجاه ما:

– ألا ترى الشيخ "مولانا" واقفاً لنا بالمرصاد وقفة ملك الموت بعباد الله؟!

وأمامنا، على بُعد بضعة محلات، لمحت الشيخ غازي فياض واقفاً في انتظارنا وقد فتح ذراعيه على مداهما ليحتويني بينها، لحظة دنوّي منه، معانقاً إياي باندفاع، مردداً مع كل قبلة مدوّية يطبعها على وجنتيّ بالتناوب:

– أهلاً مولانا.. أهلاً، قدمت أهلاً ووطأت سهلاً.

وقبل أن يتسنى لي الوقت اللازم للتنفس بيسر، وقد تحررت من بين ذراعيه، فوجئت به يحكم قبضته، هذه المرة، على ساعدي ليقودني نحو مكتبته القريبة آمراً، في طريقه، "الجايجي"، المنزوي بأدواته في أحد الأركان، الإسراع بإسعافنا بثلاثة إستكانات من "رأس القوري" دون أن يكف عن ترديد عبارة "أهلاً مولانا".

وعلى مدى الدقائق التي قضيناها في احتساء الشاي ونحن وقوف عند الحاجز الخشبي الممتد عند مقدمة المكتبة – وهي تسمية تطلق تجاوزاً على ذلك المحل الضيق الذي لا يكاد يستوعب قامة صاحبه على قصرها، والذي كادت محتوياته الموزعة بين الكتب القديمة وأدوات التجليد وتصليح أقلام الحبر تملأ بفوضاها السريالية كل ركن فيه – على مدى تلك الدقائق بقي الشيخ لا يكف عن إدارة رأسه الحليق يميناً وشمالاً مسترسلاً في ثرثرة حافلة بقهقهات صاخبة مطعّمة بشتائم مبطّنة بحق جيرانه من أصحاب المكتبات القريبة، تاركاً إياي أستعيد مع كل رشفة شاي تاريخ هذا الرجل الذي أخطأ في شبابه بما يخالف طبيعته وذلك بانتمائه إلى إحدى المدارس الدينية ليكتشف أنه لا يصلح لهذا الأمر؛ فقد كان رجلاً دنيوياً بكل معنى الكلمة: لا شيء لديه يعادل التمتع بملذات الحياة، فكيف به وثمة عمامة بيضاء تثقل رأسه فارضة عليه الحافظ على مظاهر الوقار والتجهم؟!

وهكذا اضطر، غير آسف، إلى ترك تلك المدرسة والنزول إلى سوق العمل محتفظاً من تلك الفترة بلقب "الشيخ" وببضع كلمات، أشهرها كلمة "مولانا" التي لقب بها، فضلاً عن عمامته البيضاء القابعة في أحد أدراج محله في انتظار أن يعتمرها حينما يستدعى لإحياء إحدى المناسبات الدينية أو ليؤم مجلس فاتحة أو ليعقد قراناً وما أشبه.

– سأكون في انتظارك في المكتب.

خاطبني يحيى متبرماً وقد ضاق ذرعاً بطول مكوثي، فعلّق الشيخ بخبث وهو يغمزه بإحدى عينيه:

– يبدو أنه لم تعد بك حاجة إليّ بعدما يسّرت لك أمرك وجعلتك تنال وطرك من ملكة الاستنساخ!

– أي أمر هو هذا الذي يسّرته لي؟ ألا تكف عن الكلام بهذه الطريقة الملغزة التي لا تليق بك يا مولانا؟

صاح به يحيى ثائراً، فكان رد فعل الشيخ غازي أن أغرق بقهقهة صاخبة علق على أثرها وهو يغمزني، هذه المرة، بإحدى عينيه:

– إنه معذور في انفعاله؛ فمتطلبات صاحبته المسيحية لا نهاية لها!

– أخشى أن الخرف قد دب إلى رأسك فأصبحت تهذي بكل ما يخطر لك على بال!

أجابه يحيى وقد انطلق متخذاً سبيله نحو مكتب الاستنساخ، فودّعه الشيخ بأن هتف بمرح وسط قهقهاته الصاخبة:

– اطمئن؛ سأحتفظ بسرك ولن أفشيه لأي مخلوق!

هرعت في أثر يحيى وأنا في دهشة مما سمعت، حتى إذا ما لحقت به سألته عما عناه الرجل بكلامه المبطّن؟ فسألني بدوره ناقماً:

– ولم لم تسأله هو؟

فهدّأت من ثائرته راجياً إياه أن ينسى الأمر. لم أجد الوقت ملائماً لاستدراجه ليكشف لي سر علاقته بـ"دنيا"، بيد أن ما تأكدت منه هو أن ما يجمعه بها أعمق من محض علاقة عابرة. ووجدتني أفكر بـ"مي" وبعلاقتي الملتبسة بها؛ فهي بدورها كانت مرشحة لما لا يحمد عقباه لولا لجوئي بأسرتي إلى هذه المدينة النائية.

***

في مكتب يحيى شفيق، وعلى إيقاع صوت جهاز الاستنساخ الرتيب وهو ماضٍ في تصوير صفحات كتاب ما، كنت أتهالك جالسا على كرسي بعدما أنهكني التجوال، يواجهني يحيى في جلسته على كرسي مماثل وثمة طاولة صغيرة بيننا وقد استقرت فوقها منفضة سجائر.

كنا نجلس في الغالب صامتين، وكل واحد منا مستغرق في أفكاره، يندر أن نتبادل الكلام، وإن حدث فعلى شكل جمل "برقية" مبتورة نرممها بما سبق لنا التحدث به. كنت أنصرف، دون وعي مني، إلى تأمل الواجهة الزجاجية للمحل المقابل، وكان صالون حلاقة، لا يكف صاحبه البطين عن الظهور، كل بضع دقائق، بالباب ليبادلني النظر قبل أن يصفّق مريلته في الهواء مخلّصاً إياها من بقايا الشعر، أو ينهمك – وعيناه مثبتتان في عينيّ – بشحذ موساه، أو يطقطق بمقصه في الهواء قبل أن يغوص في داخل محله لينكب على رأس زبونه.

وكان يحيى ينشغل بتدخين سجائره تاركاً إياي أنصرف إلى تقليب كتبه المستنسخة والمرتبة على رفوف، باحثاً عن عنوان كتاب قد يغريني بقراءته، بيد أن النتيجة تكون عادة مخيبة لي؛ ذلك لأن مصدر غالبية تلك الكتب لم يكن سواي؛ فبفضل عملي محرراً في إحدى المجلات الثقافية كانت تسنح لي فرصة الحصول على كتب جديدة، فكنت أعمد إلى إرسال ما أنتهي من قراءته إلى يحيى لغرض استنساخه لزبائنه من القراء؛ فمنذ فرض الحصار على العراق، في أعقاب حرب "عاصفة الصحراء"، عُدّت الكتب من ضمن "الكماليات" التي لا ضرورة لاستيرادها؛

فبات الحصول على الإصدارات الجديدة أمراً بالغ الصعوبة: يتم التعامل مع النسخ الشحيحة التي تتسرب إلى الداخل عبر الحدود مثل منشورات سرية يهرع أصحاب مكاتب الاستنساخ إلى تصويرها وتجليدها قبل بيعها إلى زبائنهم بأسعار مغرية.

وانتهى تقليبي لتلك الكتب، في إحدى المرات، بعثوري على نسخة مصورة عن روايتي "سابع أيام الخلق"، فعدت بها إلى كرسيي لأسأل يحيى، وأنا أتصفح تلك النسخة، عما دفعه إلى تصويرها؟ فأوضح أن سبب ذلك يعود لكون أحد أقسام كلية الآداب في جامعة الأسلاف قرر روايتي تلك على طلبته ضمن منهاجه الدراسي في إحدى السنوات؛ فازداد الإقبال على الرواية، فوجدها فرصة سانحة لتصوير نسخته الشخصية المتوجة بإهدائي.

وعلق ضاحكاً وسط نفثتي دخان:

– وبذلك أسهمت في ذيوع شهرةِ روايتك بين مثقفي الأسلاف؛ فقد وجدوا فيها سجلاً حافلاً لتاريخ مدينتهم ولأساطيرها ومأثوراتها وصراعاتها العشائرية و...

وقطع كلامه ليستدرك جاداً هذه المرة:

– .... وشاء سوء حظك أن "رياض" كان أحد هؤلاء المثقفين!

وتأملني لحظات قبل أن يضيف موضحاً:

– ... فقد تعامل معها لا كنص إبداعي، بل كوثيقة اتهام تقتضي التدقيق في كل ما ورد فيها!

والحق أنني كنت أُدرك مبلغ استياء رياض من تلك الرواية؛ فما من مرة تطرّقنا، في لقاءاتنا في بيت بدر، إلى ذكرها إلا أفصح عن ذلك الاستياء بحذر دون أن يجرؤ على فضح حقيقة مشاعره نحوها، حتى أنه تساءل، مرة، بشيء من التردد، إن كان يحق لمن يؤلف رواية ثلب ماضي الناس على هواه دون أن يدرك أنه بذلك يوقع نفسه تحت طائلة القانون؟! فلم يملك بدر إلا أن يطلق ضحكة واهنة ليعلّق بعدها ساخراً:

– أتسمع؟ إنه يحلم بمقاضاتك قانونياً، ومن المؤكد أنه يتحين الفرصة الملائمة للإيقاع بك!

فكرتُ بذلك وأنا أُبادل يحيى النظر متذكراً تحذيره الدائم لي من اختيار مدينة الأسلاف ملجأً!

وكانت الحرب قد بدأت منذ أيام؛ فبات من المألوف أن نجفل، أكثر من مرة في اليوم، على دوي الطائرات الأمريكية وهي تمرق مخترقة حاجز الصوت فوق مدينة الأسلاف، تتعقبها – متأخرة بطبيعة الحال – المدافع المضادة بصليلها، مزينة بومضها زرقة السماء، كما أخذت تتردد أصداء عمليات القصف التي كانت تلك الطائرات تستهدف بها معسكرات الجيش العراقي المتناثرة غربي المدينة على امتداد الطريق الذي يربط الأسلاف بطريق البصرة بغداد، بل شملت عمليات القصف بعض المنشآت الحكومية داخل المدينة نفسها.

وتنبهت ذات يوم، وأنا مسترخٍ على الكرسي المعهود في مكتب الاستنساخ، إلى أن ثمة أمراً ما يجري من حولي على غير ما يرام؛ فيحيى بدا في شاغل عني بالتنقل خلال المسافة القصيرة الممتدة بين باب مكتبه وجهاز الاستنساخ – حيث "دنيا" منصرفة إلى عملها – لا يكاد يوقد سيجارة ويسحب بضعة أنفاس منها حتى يطيّرها بحركة ماهرة من أصابعه نحو الخارج.

بدا متوتراً، يراقب بانتباه الواجهة الزجاجية لصالون الحلاقة المقابل حيث كان يتناوب بالظهور، كل بضع دقائق، شابان ممتلئان بملابس أنيقة – بزّة باللون نفسه تضفي عليهما هيئة توأم – يكتفيان بمراقبة مكتب الاستنساخ بنظرات جانبية محاذرة ينسحبان على أثرها مفسحين المجال للحلاق نفسه ليقف بالباب لحظات مستعيضاً عن القيام بحركاته المعهودة بالاكتفاء بشحذ موساه دون كلل قبل أن يقفل داخلاً صالونه لينصرف إلى رعاية زبون من ذوي الشأن كما يبدو.

– قل لي: أسبق لك أن لمحت، على غير توقع، عقرباً سوداء وهي تدب زاحفة نحوك مقوسة ذنبها المخيف المتوج بالحمة الطافحة بالسم بحركة تهديد؟

سألني يحيى وهو يواصل التنقل ليردف بعد لحظة صمت ملأها جهاز الاستنساخ بهديره الرتيب:

– ذلك هو رياض صبار بشار: محض عقرب مرفوعة الذنب مهيأة للسع في أية لحظة!

بدا من الواضح إذن أن مصدر كل ذلك التوتر لم يكن سوى رياض – زبون الحلاق العتيد – ووجدتني أتذكر، بلمحة خاطفة، كلاماً مشابهاً ردده يحيى على سمعي في بغداد قبل أشهر حينما زارني في المجلة؛ يومها بدا ناقماً على رياض – الذي كان قد تسلم حديثاً إدارة المتحف بعد موت مؤسسه بدر – لا يكف عن تشبيهه بالعقرب المهيأة للسع دون سابق إنذار؛ فلم أملك يومذاك إلا أن أسأله عن "اللسعة" التي ناله بها، فأجابني أنه استغنى عن خدمات موظفة كانت تعمل في المتحف في زمن المرحوم بدر بعقد مؤقت، فعدت أسأله إن كانت تلك الموظفة تمت إليه بصلة قربى؟ فتلجلج بالجواب قبل أن يوضح أن تلك الموظفة جارة له، يواجه بيتها بيته، فضلاً عن كونها مسيحية تعيل وحدها بيتاً هاجر أغلب رجاله إلى أوربا وأمريكا – كما هو دأب هذه الطائفة في السنوات الأخيرة – يضج بحشد من عجائز وعوانس فاتهن قطار الزواج.

وهكذا، تأكد لدي الآن أن تلك "الموظفة" لم تكن سوى "دنيا" نفسها؛ وبذلك تعززت شكوكي من وجود صلة عاطفية تربط يحيى بها، وهي صلة لا تخلو، كما يبدو، من منافس خطير يتمثل برياض!

وأخذت أراقب بدوري واجهة الصالون بمزيد من الفضول، حتى إذا ما مرت دقائق "هلّ" رياض خارجاً وسط جوقة المحتفين به: الرجلان الأنيقان الممتلئان يتواثبان أمامه مثل كلبين سلوقيين حسني التدريب، والحلاق يحوم حوله بهمة ونشاط: ينفض عنه بقايا الشعر، ويبخّ العطر بكثافة محيطاً رأسه بسحابة من الرذاذ.

بدا رياض وكأنه تحول إلى كائن آخر لا عهد لي به؛ فعلى النقيض من لقاءاتنا السابقة – حينما كان لا يكفّ عن بذل أقصى جهوده محاولاً إرضائي – بدا، هذه المرة، مترفّعاً يكاد يتأملني بازدراء!

وقف بطوله الفارع عند العتبة، يفصله عني عرض الممر الفاصل بين المكتب والصالون. بدا بالغ الأناقة، يرتدي بزة على أحدث طراز، ووجهه الأبيض المتورد الوسيم، الذي تتألق فيه عينان عسليتان واسعتان تضفيان عليه سمة أنثوية، متوج – كما عهدته – بكتلة شعر يميل لونه إلى الشقرة بعض الشيء وقد رتب على شكل تقليعة اشتهر بها أحد الممثلين الأمريكيين في الخمسينات.

حيّاني بإيماءة أنيقة من رأسه، وسألني، وقد تسمّر عند باب صالون الحلاقة، عن صحتي وأحوالي؟ فشكرته مكتفياً بدوري بالوقوف عند باب مكتب الاستنساخ مستجيباً بذلك لهمس يحيى اللحوح بضرورة عدم التنازل باجتياز المسافة القصيرة الفاصلة بين المحلين والدنو منه لغرض مصافحته.

– آمل أن تطول إقامتك في مدينتك هذه المرة.

عاد رياض يكلمني بطريقته المتعالية وقد لوى رأسه جانباً كأنه يتطلع إليّ من فوق مرتفع، فأجبته بعد لحظات ملأتها طائرة أمريكية مرقت مجتازة حاجز الصوت بهديرها:

– الأمر مرتهن بضيوفنا الثقلاء هؤلاء!

– اطمئن، اطمئن؛ فهؤلاء سيندحرون، بعد أيام، على أسوار بغداد.

فعلّقتُ متفكّهاً محاولاً تلطيف توتر الجو:

– المعروف أن بغداد أمست دون أسوار منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد أمر الوالي العثماني نامق باشا بهدمها بعدما ألغى اختراع المدافع مسوّغ وجودها، حتى إذا ما خلّفه مدحت باشا عمد إلى استثمار لبنات تلك الأسوار في بناء القشلة!

فهتف رياض بازدراء:

– بغداد غير معنيّة بأسوار الآجر والطابوق؛ إنما تحميها صدور الرجال... رجال الحرس الجمهوري، والحرس الخاص، والمليشيات الفدائية والحزبية، وأفواج جيش القدس، والمتطوعين العرب.

فعلّق يحيى من داخل المكتب ساخراً:

– يبدو أنه لا مفر من الاستعانة بمفارز شرطة المرور لتنظيم كل هذه الحشود من المقاتلين وهم يجتازون الشوارع في محاولتهم التصدي للأمريكان!

فأجابه رياض من فوره:

– سنترك لشرطة المرور تنظيم تحركاتك المريبة في الأسلاف، أما المقاتلون فليست بهم حاجة إلى دليل يرشدهم إلى خصومهم!

وتشجّع يحيى أكثر؛ فغادر المكتب ليقف بجانبي عند المدخل مخاطباً "رياض" بوقاحة:

– في هذه الحالة ألا يفترض بك الانضمام إلى هؤلاء الذين "ليست بهم حاجة إلى دليل يرشدهم إلى خصومهم" عوضاً عن الانصراف إلى حلاقة الشعر والتزيين والتعطير وما أشبه؟!

فتأمله رياض بنظرة متباطئة صعّد بها من أخمص قدميه حتى قمة رأسه قبل أن يجيبه باحتقار وهو يتنقل بعينيه بيني وبينه:

– ما يمنعني عن ذلك إيماني بأن الحرب ليست مقتصرة على جبهات القتال؛ فثمة جبهات داخلية ملغومة بأعداء محليين لا يقلون عن الأمريكان خطراً!

لم يعد تجاهل الأمر ممكناً؛ فعلقتُ وأنا أفتعل الضحك :

– يبدو أنك مولع اليوم باتهامنا بالجملة!

– بيد أن ولعي هذا لن يتخطى، دون شك، ولعك في تشويه ماضي الآخرين، في رواياتك، بكل ما يخطر لك على بال!

صاح بي وقد فقد السيطرة على نفسه، فبدا ذلك وكأنه إيذان لحارسيه بالتحرك؛ فقد دنا الاثنان من المكتب وأعينهما تنطق بالشر، فتقدمت منهما بدوري معترضاً سبيلهما وأنا أصيح:

– أحذركما من أن الإساءة لأي واحد منا هو ضرب من تهور سيضطرني إلى اللجوء إلى الشرطة!

وكان أصحاب المحلات المجاورة قد أطلوا برؤوسهم وثمة نظرات ترقب وفضول تطل من أعينهم. وهدّأ رياض صاحبيه، لكنه لم ينس أن ينذرني قائلاً:

– شكراً على تذكيري بالشرطة؛ فهم، كما تعلم، رجال عمليون لا تمنعهم الحرب من القيام بواجباتهم الوطنية حينما يجد الجد!

– أو القيام بخدمات "خاصة" لقاء حجز قاعة ما في أحد النوادي والاتفاق مع فرقة من "الكاوليه" لإحياء حفلة ماجنة حتى الفجر على شرف بعض ذوي الشأن!

قلتها وقد فاض بي الكيل، فتأملني رياض بنظرة طويلة قبل أن يصيح:

– سأجعلك تندم على تهورك في الكلام؛ فاتهام المسؤولين بالقيام ببعض الخدمات لقاء تلقي الرشوة جرم لن تفلت منه دون عقاب!

واندفع منصرفاً والرجلان يهرولان في أعقابه، فتساءلت وأنا أدخل المكتب:

– ما معنى كلامه؟

فأجابني يحيى وهو يحاول دون جدوى إيقاد سيجارته بأصابعه المرتعدة:

– مغزى كلامه واضح؛ فقد آن له استثمار صلاته الوثيقة بمدير المخابرات أو الأمن على خير وجه!

وتنبهت لـ"دنيا" وهي تتطلع نحوي، من خلف جهاز الاستنساخ، بعينيها المذعورتين وقد امتقع وجهها وانحسر الدم عنه!

***

يومذاك، وأنا في طريق العودة إلى البيت، لم أستطع الامتناع عن التلفت حولي والاستدارة إلى الوراء أكثر من مرة لأتأكد من أنني غير ملاحق. ووجدتني أستعيد تحذيرات يحيى الدائمة لي بضرورة ألا أدع ولديّ أحمد وطه يغيبان عن عيني؛ فأسرعت في سيري لأبادر، حال وصولي إلى البيت، بالسؤال عنهما، فرمقتني زوجتي بنظرة دهشة قبل أن تغادر الغرفة لتعود بعد دقائق وابناي في أثرها.

وعلى مدى ساعات ذلك اليوم انصرفت إلى متابعة أخبار الحرب عن طريق المذياع، مبادلاً رب الأسرة التي تشارك أسرتي في السكن في الغرفة نفسها، الأسئلة المعهودة عن توقعاتنا عما يجري. وكنت أعود بذهني أحياناً إلى ما حدث اليوم في مكتب الاستنساخ، متوجساً مما قد يقدم عليه رياض، لكنني سرعان ما كنت أعود فاستهين بما حصل؛ فأنا من أدرى الناس بحقيقة شخصيته برغم مظهره المهيب؛ فسبق لي – كما يقول المثل – أن "عجنته وخبزته" فخبرته على حقيقته جيداً طوال سنوات الحصار؛ إذ ما من مرة قدمت فيها إلى مدينة الأسلاف زائراً إلا وكان ملزماً، لحظة ترجلي من السيارة، في أن يكون في استقبالي: يسارع من فوره – امتثالاً لأوامر "عمه" الصارمة بدر – إلى اختطاف حقيبتي مكرراً على سمعي عشرات المرات أن "عمه" في انتظاري على أحر من الجمر!

وطوال مكوثي في المدينة كان رياض ينصرف – كأي طباخ ماهر! – إلى إعداد أشهى المأكولات بعدما سبق له أن حضّر أفخر المشروبات، مجابهاً اعتذاري إليه لكوني أكلّفه فوق طاقته بالاعتراف، دون خجل، أنه يجد في زياراتي فرصة لنسيان الحصار المفروض على العراقيين منذ سنوات؛ ذلك لأن كرم "عمه" كان يتبدى حينها بأكثر صوره "الحاتمية"!

آنذاك كان بدر فرهود الطارش، ومنذ اضطراره إلى ملازمة بيته بسبب مرضه، يجد في قريبه رياض خير معين له في تذليل ما تعترضه من عقبات حتى بات في نهاية المطاف بمثابة حلقة الوصل بينه وبين المتحف: يمر به يومياً ليزوده بآخر الأخبار حاملاً إليه المراسلات والكتب الرسمية المتعلقة بهذا الشأن. وكان بدر يضطر إلى الاستعانة بعربة خاصة بالمعاقين في تنقله داخل بيته الفسيح لقضاء حاجته، فكان رياض هو الذي يعينه في هذا الأمر متقبلاً، برحابة صدر، تقريع بدر العنيف له لأدنى هفوة تصدر منه مما كان يدفع بي أحياناً إلى أن أطلب من

بدر همساً بأن يعامل الرجل بشيء من الرفق والاحترام، فكان بدر يلتفت نحو رياض ليسأله ساخراً إن كان قد ساءه انتهاره إياه؟ فكان جواب رياض الدائم:

– أبداً... بل أنت تأمر يا عمي!

– أتسمع؟ أنا عمه، فما شأنك أنت لتتدخل بيني وبينه؟

كان بدر يسألني متفكهاً ليضيف مخاطباً "رياض" هذه المرة:

– المهم هو أنك ستتسلم إدارة المتحف بعد موتي الوشيك؛ وبذلك سيكون في وسعك إحاطة نفسك بأجمل الموظفات!

ووسط احتجاجات رياض المتلاحقة كان بدر يلتفت نحوي ليقول:

– لقد ضحى رياض بأربع سنوات من زهرة شبابه في كلية الآداب قسم الآثار؛ فبرغم كراهيته للقطع الأثرية – اللهم إلا حينما تكون مصدراً للرزق – أقدم على هذه التضحية قرباناً للتربع على كرسيي الدوار في غرفتي في المتحف، فما مسوغ إقحام نفسك بيني وبينه؟!

وكان من المعروف أن "صبار"، والد رياض، هو أخ غير شقيق لبدر، رزقت به أمه بعد سنوات من موت فرهود الطارش على أثر زواجها بقريبها "بشار"؛ فكان من البديهي أن يغدو بدر موضع رعاية رياض ليس طمعاً في أن يخلفه في موقعه في المتحف فحسب، بل وصولاً إلى الاستحواذ على ثروته الطائلة وعقاراته التي لا تعد ولا تحصى لكونه سيكون دون وريث؛ وذلك ما حصل الآن: إذ ها هو رياض يصول ويجول في شوارع الأسلاف يتقدمه حارسان شخصيان متحفزان لتنفيذ أدنى إشارة منه.

صباح اليوم التالي تخلّف يحيى عن القدوم؛ فعاودتني مشاعر القلق مجدداً مما اضطرني إلى مكاشفة زوجتي بما جرى البارحة مع رياض، فاقترحتْ عليّ ضرورة الإسراع بالتوجه إلى مكتب الاستنساخ لمعرفة جليّة ما حصل؛ فرياض – كما سبق لي أن أخبرتها أكثر من مرة – لا يؤمن جانبه أبداً. بيد أن نشرات الأخبار، التي كانت تنذر بتفاقم الأوضاع باقتراب قوات "المارينز" من بغداد، جعلتني أصرف النظر عن الاستجابة لإلحاح زوجتي.

وكانت الطائرات الأمريكية قد أخذت تجوب سماء الأسلاف بكثافة لافتة للنظر: فمن حين لآخر كانت إحداها تمرق مخترقة حاجز الصوت، فكان أفراد أسرتي يتجمدون من حولي وقد كتموا أنفاسهم في صدورهم، في حين تدنو ندى مني حتى تلتصق بي، فكنت أحتضنها مطمئناً إياها أن تلك الطائرات غير معنيّة بقصف المدنيين فضلاً عن كونها مزوّدة بأحدث الأجهزة التي تحدد لهم أهدافهم بدقة لا تصدّق. وحدث أنْ اهتزّ البيت من حولنا بفعل دوي انفجار هائل انطفأت المصابيح الكهربائية على أثره في الغرفة؛ فعلّقتُ وأنا أمعن في احتضان ندى:

– أرأيت؟! إنهم كانوا يستهدفون بقذائفهم، هذه المرة، محطة الكهرباء!

وفكرت بضرورة الإسراع بشراء بطاريات لمذياعي قبل أن تنفد من السوق.

مع انتصاف النهار يئست من قدوم يحيى. بدا غيابه في مثل هذا اليوم، وبعد الذي حدث البارحة مع رياض، مثيراً للقلق. لا شك من وجود سبب قاهر حال بينه وبين القدوم؛ فقد عرفته – ومنذ توثّقتْ علاقتي به في الأعوام الأخيرة – مثالاً للدقة والانتظام: يتصل بي هاتفياً، بين أسبوع وآخر، لا لشيء إلا للاطمئنان على صحتي. ولم يحدث أن غفل عن زيارتي حين قدومه إلى بغداد سواءً في مقر عملي في المجلة، أو في مقهى "الشابندر" – إن كان اليوم جمعة – وكان يقتحم المكانين في الحالتين بهيئته الشنيعة اللافتة للأنظار: يرتدي خليطاً عجيباً متنافراً من ملابس اقتناها من أسواق "البالات" في "الشورجة" و"تحت التكية"، تسبقه رائحة الوجبة التي تناولها قبل قدومه – وتكون في الغالب وجبة كباب مشفوعة بكمية محترمة من البصل – وثمة كيسان بلاستيكيان متخمان بعشرات الكتب يثقلان ذراعيه.

وكان حال جلوسه وإجهازه على إستكان شاي برشفة واحدة – يعقبه بإطلاق تجشؤ عميق – يعمد إلى إخراج الكتب من الكيسين ليريني إياها واحداً واحداً معلناً عن استعداده للتنازل لي عن أي كتاب يعجبني لقاء مجموعة كتب أكون قد أعددتها سلفاً وجلبتها معي من البيت.

بعدها كان ينصرف إلى التحدث عما يجري في الأسلاف ولاسيما في المتحف الذي بات رياض مديره الفعلي عقب انزواء بدر في بيته: يعمد دون كلل إلى تهريب القطع الآثارية عبر الأهوار إلى إيران لقاء مبالغ مجزية، ملاحقاً، في الوقت نفسه، أجمل موظفات المتحف ملاحقة ديك "هراتي" لسرب دجاج، دون أن يغفل، بطبيعة الحال، عن توطيد نفوذه بترسيخ علاقاته بالسلطات الأمنية والحزبية في المدينة حتى بات من المعروف أن هناك صالة محجوزة باسمه، كل يوم خميس، في أحد النوادي؛ إذ إنه يسهر مع مدير أمن المحافظة أو مدير المخابرات أو المسؤول الحزبي سهرات صاخبة تتواصل حتى الفجر تحييه، في الغالب، فرقة من "الكاوليه"!

وكنت أقاطع استرسال يحيى في الكلام لأسأله من أين يأتي بكل هذه المعلومات في الوقت الذي لا يمت فيه إلى المتحف بصلة؟ فكان يرمقني بنظرة استياء يجهز بعدها على إستكان شاي جديد قبل أن يعلن:

– إنها معلومات موثقة تزودني بها إحدى موظفات المتحف.

تلك الموظفة لم تكن سوى "دنيا" كما اكتشفت في سفرتي الأخيرة تلك إلى الأسلاف.

***

عصراً، ومع ارتفاع روائح الأطعمة التي شرعت ربات الأسر في إعدادها للعشاء، قررت التوجه إلى مكتب الاستنساخ للاطمئنان على يحيى. ولم أكد أحاول الشروع في استبدال ملابسي حتى قدم من أبلغني بوجود من يطلبني عند الباب.

– أيكون يحيى؟

تساءلتْ زوجتي وهي تبادلني النظر، فأجبتها مستنكراً:

– ليست بيحيى حاجة لطلب الاستئذان للدخول وهو الذي بات من المألوف أن يحتفي الجميع بقدومه.

– من يكون إذن؟!

عادت زوجتي تسأل بخوف هذه المرة. وتعقبتني وأنا أتخذ سبيلي نحو الباب الخارجي حيث فوجئت بثلاثة شبان في انتظاري، فخفق قلبي توجساً؛ ذلك لأنهم كانوا يرتدون ملابس "زيتونية" موحدة الزي من تلك التي اعتاد "الحزبيون" ارتداءها.

– مرحباً يا أستاذ.... نأمل ألا نكون قد سببنا لك إزعاجاً.

خاطبني واحد منهم بدا أضخمهم حجماً وهو يدنو مني لاهث الأنفاس ليسألني هذه المرة، وقد احتضنني مفعماً أنفي برائحة عرقه النفّاذة، مغرقاً، في الوقت نفسه، وجهي بالقبلات، إن كنتُ أتذكره؟ أردف بعدها دون أن يكف عن الابتسام:

– لقد درّستني سنوات لا تعد ولا تحصى؛ ذلك لأنني كنتُ من طلاب الثانوية المزمنين؛ أرسب بين عام وآخر!

بدا شكله – بهيئته الأنثوية المتميزة بكتفين ضيقتين وعجيزة ضخمة – مألوفاً لديّ؛ فحاولت، وأنا أدقق، في ضوء الغروب الشحيح، النظر في وجهه، تذكّره، وحينما فشلت اعتذرت إليه منوهاً بصعوبة أن يتذكر المدرّس طلابه الذين يتلاحقون بعضهم في أثر بعض على امتداد سنوات عمله. لكنه أبى الانهزام؛ إذ إنه استطرد وقد تحولت ابتسامته إلى قهقهة:

– ولكنْ لا يعقل أن تنسى "حمزة مقطاطه"!

– "حمزة مقطاطه"؟!

تساءلت وأنا أبادله النظر، فأجابني وهو يربت على الكتلة البارزة، تحت ملابسه، في الجانب الأيمن من وركه الهائل:

– أجل... "حمزة مقطاطه"!!

وعلى الفور وجدتني أتذكر تلك الحادثة العصية على النسيان والتي سمّي حمزة بسببها بهذا اللقب؛ ففي العام الدراسي الأخير الذي سبق هجرتي إلى بغداد كان حمزة قد أصبح، بفضل خاله "أيوب العرضحالجي"، نجم مدينة الأسلاف دون منازع وذلك على أثر ظهوره في التلفاز ليتسلم، نيابة عن المرحوم أبيه، نوط الشجاعة؛ فكان أنْ ترأس منظمة "الإتحاد الوطني" في الثانوية التي كنت أعمل فيها مدرساً، فانصرف إلى إدارة الشؤون الطلابية والحزبية في فترة الحصار العصيبة التي أعقبت حرب "عاصفة الصحراء": يدخل المدرسة ويخرج منها متى شاء بهيئته الأنثوية وبملابسه "الزيتونية" التي لا تخفي أثر تلك الكتلة في الجانب الأيمن من وركه حيث يجثم مسدسه الذي لم يكن يفارقه برغم كون حمل الأسلحة النارية، داخل المدارس، ممنوعاً. وكان مستواه الدراسي قد ازداد تردياً؛ فبات من المألوف أن يلجأ إلى كل وسائل الغش المتاحة للطلاب

ليحصل على درجة النجاح بشق الأنفس، بيد أنه فوجئ، في أحد امتحانات الرياضيات الفصلية، باستعصاء الأسئلة على الحل، فعمد إلى سحب مسدسه من مكمنه واضعاً إياه بجانب الورقة، فلم يملك مدرس المادة المسالم إلا الدنو منه بحذر ليسأله بمنتهى الرقة وهو يشير إلى المسدس:

– ما هذا يا ابني حمزة؟

فأجابه حمزة وهو يبادله نظرة ضارية:

– إنها "مقطاطه" يا أستاذ أبري بها قلمي عند الحاجة!

– "مقطاطه"؟!

تساءل المدرس وهو يزدرد لعابه بصعوبة، انسحب بعدها، وسط ضحكات الطلاب المكتومة، بعيداً عن حمزة تاركاً إياه يستعين بزملائه القريبين منه في الإجابة عن أسئلة ذلك الامتحان!

– يبدو أنك لا تزال تحتفظ بـ"مقطاطتك" يا حمزة!

علقتُ وأنا أومئ إلى كتلة جنبه الأيمن، فأجابني معاوداً الربت على ذلك الموضع:

– معلوم يا أستاذ... إنني أحتفظ بها لكي أُبري بها شوارب "المارينز" هذه المرة!

وشاركتُ زميليه في قهقهاتهما برغم معرفتي أنه ندر أن يطلق رجال "المارينز" شواربهم!

وانحسرت موجة الضحك، فبادل حمزة زميليه النظرات أرجح بعدها عجيزته الضخمة وهو يعاود الدنو مني ليقول بهيئة محرجة:

– أرجو أن تعذرني لاضطراري إلى إبلاغك بضرورة مرافقتنا للقيام بزيارة خاطفة إلى "الأستاذ" ستعود بعدها لتشارك أسرتك في العشاء.

– ومن هو هذا "الأستاذ" الذي يتوجّب عليّ زيارته في مثل هذا الوقت؟!

سألته متبرماً، فعاد حمزة يبادل زميليه النظرات قبل أن يجيبني بجفاء:

– ستعرفه حين تلتقيه!

– ألا يمكننا إرجاء القيام بهذه الزيارة إلى يوم الغد؟

عدت أسأله وقد ازداد وجيب قلبي ارتفاعاً، فأجابني بلهجة حاسمة:

– محال؛ فـ"الأستاذ" شدد على ضرورة عدم تبديد الوقت في أمور جانبية في زمن أصبح لكل لحظة – بفضل الأمريكان – قيمتها.

وتحوّل خوفي إلى هلع حقيقي؛ فحمدت الله في سري لكون الظلام الآخذ بالتكاثف قد ستر شحوب وجهي، فاستأذنت حمزة طالباً منه إمهالي بعض الوقت لارتداء ملابس الخروج فضلاً عن إخبار أسرتي بالأمر.

– تفضّلْ.. على مهلك.

أجابني وهو يوسع ما بين قدميه موازناً عليهما ثقله الجبار، فقفلت داخلاً البيت وأنا لا أكاد أبصر سبيلي؛ فكنية "الأستاذ" المبهمة – ترى أيعني بها رئيس المنظمة الحزبية؟ أم المسؤول الأمني؟ أم مسؤول المخابرات؟ – بقيت تدوي في ذهني بإيقاع ينذر بالخطر.

استقبلتني زوجتي سائلة إياي هلعة عمن يكون هذا الشاب "الزيتوني السمين" الذي انفرد بي عند باب البيت؟

– إنه حمزة.. حمزة نجم الأعرج.

– ابن أخت أيوب العرضحالجي؟

– هو عينه.

أجبتها مضيفاً أنه حدث ما يستدعي المرور بأحد الأجهزة الأمنية. ورجوتهم، وأنا أتنقل بنظراتي بين العيون الست – عيون أحمد وطه وندى – المحدقة بي، ألا يقلقوا؛ فمن المرجح أن أتأخر ساعة أو اثنتين قبل أن أعود لأشاركهم في تناول العشاء. وأضفت بشكل عابر:

– وحتى إن حدث وتغيبت الليلة عن البيت، فآمل أن تطمئنوا؛ فعهدي بزيارات مفاجئة على هذه الشاكلة أن تمتد إلى يوم الغد، هذا إن لم تطل أياماً!

وانصرفت دقائق إلى استبدال ملابسي وأنا أستعيد ليلة ظهور الصبي حمزة – بوجنتيه الممتلئتين المتوردتين وهو يرفل ببزة جديدة خيطت لتلك المناسبة وقد زررها بإحكام على كرشه الناتئ – على شاشة التلفاز ليتسلم، من رئيس الجمهورية، نوط شجاعة نيابة عن المرحوم والده "نجم"!

بدا من المضحك حقاً أن يضاف "نجم" الأعرج إلى قائمة المشمولين بأنواط الشجاعة وهو الذي لم يكن له شأن بالشجاعة قط؛ فما شوهد إلا وهو يضلع بساقه العرجاء في طريقه إلى السوق ليعود منها محمّلاً بكيس من الحمص ينصرف، طوال ساعات الليل، إلى وضعه، مع الكمية اللازمة من الماء، على النار، صارخاً، بين فينة وأخرى، بامرأته إنْ تأخرت في جلب الملح أو الكركم، حتى إذا ما أشرقت الشمس شوهد وهو يدفع عربته المقرقعة ليقف بها عند أبواب المدارس أو المستشفيات أو نادي الموظفين أو قرب الأسواق وهو يصرخ مردداً عبارته اليتيمة:

– حارْ.. وطيّبْ لبلبي!

هكذا دأب "نجم" الأعرج على مواصلة حياته حتى نهايتها التراجيدية دون أن يخطر له أنه سيكون سبب اشتهار ابنه حمزة على أثر حصوله على ذلك النوط الذي بات من المألوف أن يزين به صدره الناهد في الاحتفالات المدرسية ولاسيما في ذلك الاحتفال الذي أقيم على شرفه يوم فوزه بـ"التزكية" برئاسة لجنة "الاتحاد الوطني" في مدرسته!

***

حين التحقت، بعد دقائق، بحمزة عند باب البيت تقدم زميليه ليجتاز معي الزقاق الضيق وقد عاوده مرحه؛ فعدد لي بانطلاق وسائل الغش التي كان يلجأ إلى إتّباعها في كل امتحان – ولاسيما الرياضيات واللغة الإنكليزية – ليصطدم في خاتمة المطاف بحاجز الامتحان الوزاري؛ إذ لم يجد سبيلاً للاستعانة بـ"مقطاطته" العتيدة!

وأفضى الزقاق بنا إلى ساحة وقوف السيارات المحاطة بدكاكين ومخازن تعرض بضائعها في أضواء مصابيح تعمل بمولدة كهربائية تكاد تصم السمع بهديرها. ومررت بسيارتي المركونة في إحدى الجهات وقد تراكمت الأتربة على زجاجاتها. وقادني حمزة نحو سيارة سوداء على أحدث طراز ارتجّتْ تحت ثقله وقد دلف فيها ليجلس على المقعد الأمامي بجانب سائق أفصح عن ملله الانتظار بتجاهل الرد على تحيتي.

وعلى امتداد الشوارع التي سلكتها السيارة دأب حمزة على الالتفات نحوي، وأنا غاطس وسط زميليه في المقعد الخلفي، ليحدثني هذه المرة عن متابعته لرواياتي ولاسيما تلك "الثلاثية" التي تدور أحداثها في مدينة الأسلاف: "الرواق" و"عندما يحلق الباشق" و"اليوم السابع"!

أصغيتُ إليه على امتداد الطريق دون أن أعمد إلى تصحيح عناوين رواياتي؛ إذ من الواضح أنه لم يقرأ أية واحدة منها؛ فما جدوى أن أخبره إذن بأن العنوان الصحيح للرواية الأولى هو "الراووق"، والثانية "قبل أن يحلق الباشق"، والثالثة "سابع أيام الخلق"؟!

كانت وجهتنا شمالي المدينة؛ فقد تخطت السيارة السدة الحديدية المقامة على صدر وادي المر – حيث تمتد البحيرة إلى اليمين سوداء لا تعكس سوى ألق القمر وأوائل النجوم التي شرعت في التألق في عتمة السماء، في حين تتدفق المياه إلى اليسار على امتداد الوادي – وانطلقت مجتازة شارع الكورنيش لتستدير حول ساحة "تل الأربعين" التي توسطتها بناية المتحف الغارقة في الظلام، مواصلة اتجاهها شمالاً قبل أن تقف بمحاذاة واحد من تلك البيوت التي شيدت قبل الحرب العالمية الأولى على طراز البيوت البغدادية ذات الشناشيل.

في اللحظة التي غادرتُ فيها السيارة لمحت "رياض" يمرق خارجاً من البيت نفسه، يتقدمه حارساه الشخصيان – السلوقيان المدربان جيداً – ليستقل سيارة كانت بدورها على أحدث طراز.

لم يكن البيت – شأن البيوت المماثلة في كل المدن العراقية – يحمل فوق بابه ما يشير إلى الغرض الذي أُختير له برغم معرفة الجميع أنه قد يكون مقراً للمخابرات أو الأمن أو ما أشبه ذلك من دوائر أمنية تحاط عادة بضرب من السرية.

تقدمني حمزة وهو يكرر ترحيبه بي شأن المضيّف المحتفي بضيفه. بدت البناية من الداخل نموذجاً للبيوت البغدادية التي تعلو على ارتفاع طبقتين، يتوسطها حوش مربع تتراصف حوله غرف تتقدمها طارمات بأعمدة عديدة.

– من هنا يا أستاذ.

أرشدني حمزة إلى الغرفة المنشودة حيث كانت أضواء كهربائية مجهولة المصدر تسطع فيها، يتصدرها مكتب خشبي عريض مثقل بملفات وأجهزة هاتف، تعلوه، على الجدار، صورة لرئيس الجمهورية، وهنا وهناك انتصبت بضع خزانات حديدية تجاورها أرائك وكراسي وطاولات.

قادني حمزة إلى أقرب أريكة وهو يطمئنني على أن انتظاري لن يطول، غادر بعدها الغرفة تاركاً إياي أقلّب النظر كيفما اتفق وقد خيّم من حولي صمت مطبق لا يبدده سوى نقيق الضفادع المتصاعد من البحيرة القريبة.

شعرتُ، بمرور الوقت، بأن تركي نهباً لقلق الانتظار جزء من خطة يدرج عليها القائمون بهذه المهمة عادة: إرعاب الضحية الوقت اللازم قبل الظهور في التوقيت المناسب؛ وذلك ما حصل: فعلى حين غرة فوجئت بدخول رجل بالملابس "الزيتونية" المعهودة، صافحني بكف رخوة وهو يتأملني، من خلال عدستي نظارته الطبية السميكتين، بعينين حسيرتي النظر.

كان قد تخطى الستين، يحاول التشبث بأذيال شباب غابر عن طريق صبغة شعره وشاربيه وحاجبيه الفاحمة، وكانت الملابس "الزيتونية" تضفي عليه هيئة متنكر بزي لا يلائمه إطلاقاً.

دلف خلف مكتبه وهو يواصل الترحيب بي مكرراً عناوين رواياتي بطريقة حمزة الخاطئة نفسها:

– أهلاً... أهلاً بروائينا الكبير؛ منذ قراءتي لثلاثيتك "الرواق" و"عندما يحلق الباشق" و"اليوم السابع" وأنا أتلهف للقائك.

شكرته وقد عاودت الجلوس على الأريكة متتبعاً بعيني حمزة وهو "يمخر" داخلاً محمّلاً، هذه المرة، بالشاي.

– تفضّل اشرب الشاي وحدك؛ فداء السكّر حرمني من هذا "الترف" مع الأسف.

علق "الأستاذ" وقد التقط سماعة الهاتف وأدار كرسيه الدوار مولياً إياي ظهره لينهمك في إجراء اتصال هامس.

– أهلاً بروائينا الكبير.

عاود الترحيب مع إطباقه سماعة الهاتف، وصمت لحظات مدروسة ليستطرد بعدها بلهجة عتاب:

– منذ وصولك إلى الأسلاف يوم...

وأردف وهو يقلّب الأوراق التي أمامه ليستلّ إحداها محدداً، بما ورد فيها، تاريخ وصولي:

– ... منذ ذلك اليوم وأنا أترقب أن تشرفني بإحدى زياراتك عوضاً عن مرافقة يحيى في جولات شملت....

وعاد يقلب الأوراق التي أمامه مستنداً إليها في تحديد الأماكن والبيوت والأسواق التي مررت بها طوال الأيام الماضية في صحبة يحيى، مشدداً بنبرة ذات مغزى على مقهى المهربين، ليستدرك بشكل مفاجئ:

– بالمناسبة؛ أما كان يفترض بك يا أستاذ أن تنبه يحيى على ضرورة ألا يتخطى الحدود ليس حرصاً عليه فهو...

وأطلق ضحكة تهكم:

– .... عاشق ولهان، بل حرصاً عليك وعلى سمعتك وأنت رجل معروف؟!

ازدردت لعابي وأنا أبادله النظر محاولاً أن أعرف تلك الحدود التي تخطاها يحيى؛ أيعود ذلك لتلك النظارة اللعينة ذات العدستين الزئبقيتين مثل مرآتين؟

وأهملني لحظات وقد عاد يقلب الأوراق دون أن يكف عن تكرار سؤاله:

– أما كان يفترض بك ذلك يا أستاذ؟

– أرجو أن تعذرني لكوني أجهل تلك الحدود التي تخطاها يحيى... ثم ما شأني أنا بتخطيه الحدود على كل حال؟

سألته بمنتهى الحذر، ففوجئت به يجيبني بعدما تأملني بنظرة طويلة من خلف عدستي نظارته:

– الكاميرا.. أنسيت الكاميرا؟

– عذراً... أية كاميرا تعني؟

– كاميرا يحيى "ابن شفيق المبيّضجي" بطبيعة الحال المدلاة من رقبته مثل أي سائح أوربي!

وصمت من جديد ليتابع بعدما وجدني لا أحير جواباً:

– أنسيت أنه يمنع منعاً باتاً التقاط الصور في مدينة حدودية لا يفصلها عن إيران سوى هذه البحيرة، ومتى؟ في أيام حاسمة تدور فيها أعتى المعارك ضد الوطن؟!!

وتأملني من جديد تاركاً إياي أتمعن، هذه المرة، بعمق الجناية التي ورطني يحيى بها دون علمي.

– ولكننا لم نكن نلتقط سوى صور تذكارية مع أصدقاء!

علقت مدافعاً عن نفسي، فأجابني وقد تجهم وجهه:

– وهل تحسب أن قاضي التحقيق الذي أصدر أمراً بتوقيفك سيقتنع بكلام على هذه الشاكلة؟!

وجعلني ذكر "قاضي التحقيق" أدرك عبث انتظار أسرتي عودتي الليلة لأجل مشاركتهم في تناول العشاء؛ فالقضية أكبر مما كنت أحسب.

– أسمعت باسم نجيب شكري نجيب المهرّب المعروف؟

عاد يسألني ليستطرد مستبقاً جوابي:

– لقد أُلقي القبض عليه وفي حوزته جهاز "ثريا" للاتصالات عبر الأقمار الصناعية!

وبقي يبادلني النظر طويلاً قبل أن يضيف:

– أتدري ما كان تسويغه لامتلاكه ذلك الجهاز؟ لقد زعم بدوره أن غرضه من استعماله يقتصر على الاتصال بأصدقائه لا لكي يحدد للطيران الأمريكي الأهداف المنشودة!!

يا للهول!... وجدتني فجأة وسط معضلة "دولية" تخطت جولاتي البريئة خلال شوارع مدينتي لتصل – عبر الأقمار الصناعية – إلى "البنتاغون" في واشنطن!!

سارعت أقول وأنا أغالب وجيب قلبي الآخذ في الارتفاع:

– ولكن في وسعكم التأكد من براءة غرضنا من استعمال تلك الكاميرا وذلك بإظهار الصور التي التقطناها؛ فهي – كما قلت – ليست إلا لقطات تذكارية مع أصدقاء ومعارف.

عاد يتجمّد خلف مكتبه متفحصاً إياي باستغراق وقد أفحمته بحجتي هذه المرة، بيد أن الحيوية سرعان ما دبّت فيه؛ فأخذ يقلّب الأوراق التي أمامه ليستلّ من بينها ورقة معينة قضى لحظات في قراءتها قبل أن يهتف بنبرة انتصار:

– حسن... لندع الكاميرا جانباً، ولنمعن الفكر في مغزى هذه الكلمات الخطيرة – وأنت خير العارفين بمغزى الكلمات – إذ ما معنى التهكم ممن يعتز بجيشه الوطني بالقول إن " بغداد أمست دون أسوار منذ زمن مدحت باشا"؟... أو القول إنه لا مفر من "الاستعانة بمفارز شرطة المرور لتنظيم حشود المقاتلين في تصديهم للأمريكان"؟ بل الكارثة أنك لم تتورع من اتهام بعض المسؤولين في المدينة – بما فيهم أنا بطبيعة الحال! – بأداء "خدمات خاصة" لقاء تلقّي الرشوة!!.. أتعزو كلاماً على هذه الشاكلة إلى "براءة" هدفكما وأنتما تنالان، دون لبس، من معنويات المقاتلين المدافعين بالنيابة عنكما عن حياض وطنكما المهدد بالاجتياح؟

وعلى الفور أدركت أن "رياض" هو الذي يقف وراء هذه المسألة؛ فالتقرير الذي أسمعني فقرات منه كان مكتوباً من قبله دون شك!

وأستطرد "الأستاذ" وهو يتطلع إلى نقطة ما فوق رأسي:

– لذا أرجو أن تتفهم موقفي لو أبقيتك في ضيافتي يومين أو ثلاثة؛ إذ إن الأمر خرج من يدي، ولا سبيل لإطلاق سراحك إلا بكفالة وبإذن جديد من قاضي التحقيق.

وأهملني لينكب على أوراقه، في حين تقدّم حمزة مني ليقودني خارج الغرفة وقد تحصّن بالصمت هذه المرة وكأنه نسي الكلمات التي يفترض بالمضيّف أن يرحب بها بضيفه!

***

عدت اجتاز الحوش في أعقاب حمزة بصفتي معتقلاً بعدما دخلته كضيف، محاولاً، هذه المرة، أن أخمن الغرفة التي سأقاد إليها من بين تلك الغرف المتراصفة في بيت بدا مهجوراً لا أثر

فيه للحياة لولا ارتفاع سعال أو تردد ضحكة أو كلمات مبهمة من خلف هذا الباب المطبق أو ذاك.

– ستبيت الليلة في السرداب.

خاطبني حمزة وهو يتقدمني نحو سلّم شرع في هبوطه راجّاً الدرجات تحت ثقله، فعلقت بحذر:

– حسبت أن السجون كلها دون استثناء قد تم "تبييضها" بسبب الحرب؛ وذلك بإفراغها من نزلائها كما أُعلن في وسائل الإعلام!

– الأمر كما تقول، بيد أن ذلك لا يعني الكفّ عن ملاحقة من يتجاوز القانون...

قاطعته ونحن نتخطى آخر الدرجات:

– وهل تصدق يا حمزة أنني تجاوزت القانون بالطريقة التي أوحى بها أستاذك؟

أجابني لاهثاً وقد وقف بي بإزاء باب حديدي انشغل بمعالجة قفله:

– أخشى أن يكون ما يحصل لك، وقبلك لصاحبك يحيى، قد جاء بوشاية من أحد أعدائك.

– هذا ما فضحه أستاذك يا حمزة؛ إذ من الواضح أن "رياض" لا غيره هو الذي كتب ذلك التقرير الذي أسمعني فقرات منه.

طمأنني وهو يدفع الباب إلى الداخل بضربة من كتفه:

– أرجو ألا تقلق؛ فأمر اعتقالك لن يطول أكثر من يومين أو ثلاثة، وسأعمد الليلة إلى المرور بأسرتك لإخبارهم بما حصل.

وربت على كتفي حاثاً إيّاي على أن أسبقه في الدخول حيث فوجئت برائحة غائط تملأ المكان جعلتني أتمنى لو كان في وسعي أن أقفل راجعاً من حيث أتيت، بيد أنني فوجئت بنجيب شكري يستقبلني مرحباً بي وهو يذرع الأرض رافلاً بمنامة مقلمة أبرزت طول قامته ونحولها:

– أشرقتْ وأنورتْ، أهلاً بالأستاذ... نحن السابقون وأنتم اللاحقون!

– يبدو أنه سبق لك التعرف إلى نجيب.

خاطبني حمزة ليضيف همساً ناصحاً إياي بضرورة تجنّب "الاحتكاك" بعطا؛ فهو عدواني يميل بطبعه إلى الشر – وأشار إلى رجل متجهم نصف عار مفتول العضلات وهو يثني ركبتيه مقرفصاً قبل أن ينهض تحت ثقل صبي اعتلى كتفيه قال حمزة إن اسمه عبود – أشار بعدها إلى عجوز بلحية بيضاء مسترسلة، تعلو طاقية بيضاء رأسه، وقد فرش عباءته في اتجاه القبلة وانصرف إلى أداء الصلاة، قال إن اسمه هو موسى حداد، فانتفض الرجل مذعوراً وسارع بقطع صلاته ليصيح:

– بل اسمي موسى هادي الحداد لا موسى حداد!

وضج الجميع في ضحك لم أفقه مغزاه، في حين أعلن حمزة وهو يستعد للرحيل:

– يبقى صاحبك يحيى؛ فأنت من أدرى الناس به!

واستدار بجرمه الضخم مغادراً ليطبق الباب وراءه مديراً المفتاح فيه من الخارج.

بدا السرداب شبه مظلم، لا يكاد المصباح الكهربائي الوحيد المدلى من السقف المقبب المزدان بنسيج العناكب يفلح في إضاءة زواياه البعيدة. وهبّ من إحدى "الدكك" المحاذية للجدران شخص ما تقدم مني وهو يضلع بإحدى ساقيه متألماً. لم يكن غير يحيى الذي عنّفني بطريقته المألوفة:

– ألم أحذرك عشرات المرات من اختيار هذه المدينة الملعونة ملجأً؟!

وقادني من يدي نحو "الدكة" التي كان مضطجعاً عليها لحظة دخولي، سائلاً إياي ملهوفاً إن كنت أحمل معي سجائر؟ وأضاف وهو يكاد يبكي أنه قد مرت عليه ساعات طوال على آخر سيجارة دخنها.

قال وهو يحملق بي بعين مفتوحة على سعتها متلمساً بأنامله عينه الثانية المغلقة والمحاطة بهالة داكنة:

– لم يمنحوني، لحظة إلقاء القبض عليّ، فرصة لاختطاف علبة سجائري اللعينة.

– هل عذبوك؟

سألته وأنا أجلس بجانبه، فاكتفى بإرسال شتيمة مقذعة، في حين صاح نجيب ضاحكاً وهو يواصل ذرع الأرض:

– لا بل أشبعوه لثماً ولاسيما في إحدى عينيه و... من الحب ما قتل!

قلت محاولاً أن أسري عنه:

– لن يطول أمر اعتقالنا؛ فقد أبلغني حمزة أنه سيطلق سراحنا بعد يومين أو ثلاثة.

– وما أدرى حمزة بهذا الشأن وهو الذي لا يملك من أمره شيئاً أكثر مما يملكه عبّودي؟!

تساءل نجيب مستنكراً وهو ينغّم اسم عبود بطريقة خاصة محمّلة بدلالة غامضة. وأضاف متهكماً:

– إنه ليس أكثر من قربة منفوخة حباه الله بخال داهية أخذ بيده؛ فلولا أيوب العرضحالجي لبقي حمزة هذا يلهث كالكلب وهو يدفع عربة أبيه الأعرج هنا وهناك منادياً بأعلى صوته: حار وطيّب لبلبي!

أزعجتني سخريات نجيب، إلا أن ذلك لم يمنعني من أن أعود فأطمئن يحيى قائلاً إن "الأستاذ" أكّد بدوره أن إطلاق سراحنا مرتهن بتنظيم "كفالة" وبصدور أمر من قاضي التحقيق، فعاد نجيب يقول ضاحكاً وقد وقف فوق رأسي:

– وما علاقة الجهة التي ألقت القبض عليك بالكفالات وقضاة التحقيق وما أشبه من هراء؟ في وسعهم إطلاق سراحك متى ما شاءوا دون شك، بيد أن في وسعهم كذلك إعدامك دون مراجعة أي قاضي تحقيق!

واستطرد مستمتعاً بتعذيبي:

– يبدو أنه طاب لـ"الأستاذ" العبث معك؛ فأوهمك بمسألة الكفالة وقاضي التحقيق وما على شاكلة ذلك من أمور أصولية تدغدغ مشاعر المثقفين.

أدهشني تمادي نجيب في تخطي الحدود؛ فرمقت يحيى بنظرة متسائلة وأنا في حيرة من كيفية التصرف معه، بيد أن "نجيب" أردف وهو يتنقل بعينيه الصغيرتين بيني وبين يحيى:

– من الواضح أنهم، كما يبدو من مظهرك، أعفوك من دفع ضريبة التعذيب والضرب والإذلال على النقيض مني أنا؛ إذ ما من مرة قدموا لاقتيادي إلى واحد من سراديبهم إلا وأشبعوني لكماً وركلاً قبل تعصيب عينيّ وحشري في إحدى سيارتهم.

وأضاف وهو يغالب الضحك:

– أتدري؟ لقد أمسيتُ زبوناً دائماً لهم؛ أتوقع قدومهم في أية لحظة؛ لذا فأنا أحرص على أن أعد سلفاً حقيبة صغيرة تحتوي على كل ما ستكون بي حاجة إليه مثل المنامة والمنشفة وأدوات الحلاقة وحفنة معجنات وما أشبه.

وأوضح يحيى وهو يفرد أصابع إحدى كفيه في وجهي:

– لقد ألقوا القبض عليه قبلي بخمسة أيام بتهمة اتصاله بالأمريكان بوساطة جهاز "ثريا" محدداً لطيرانهم الأهداف المنشودة.

فصاح نجيب مستنكراً:

– وهل بالأمريكان حاجة إلى من يحدد لهم أهدافهم بعدما استباحوا، بأقمارهم الصناعية وبفرق التفتيش الدولية، البلاد طولاً وعرضاً؟ أبداً؛ فجهاز "الثريا" ذاك لم يكن أكثر من حجة لإلقاء القبض عليّ؛ فهذا الجهاز الذي ضبطوه عندي هو واحد من أجهزة مماثلة اعتدت تهريبها عبر الحدود: إذ يكفيني أن أجدف مجتازاً بزورقي هذه البحيرة لأصبح خلال نصف ساعة في إيران حيث بوسعي أن أجلب من هناك كل ما يخطر لك على بال: مسدسات على أحدث طراز، وبنادق رشاشة، وقنابل يدوية... بل في وسعي أن أهرّب دبابة إن طاب لك ذلك.... في وسعي تهريب كل شيء عبر هذه البحيرة؛ فلولا عملي في التهريب لمات أطفالي جوعاً على مدى سنوات الحصار الثلاث عشرة اللعينة.

فعلق يحيى متهكماً مردداً مثلاً شعبياً:

– "يركضْ والعشا خبّازْ"!

فانبرى نجيب منتفضاً:

- "خبّازْ" أو "زقنبوتْ"، المهم أنني وفّرت لأطفالي خبزهم اليومي على الرغم من الحصار.
- معنى ذلك أن اتصالك بالأمريكيين عن طريق جهاز "الثريا" محض افتراء؟

سألته مستنكراً، فردّ وهو يضحك بمرارة:

- وهل يخامرك الشك في ذلك يا أستاذ؟ لقد تحججوا بامتلاكي ذلك الجهاز لإلقاء القبض عليّ؛ وذلك هو دأبهم معي: يقتحمون عليّ بيتي بين فترة وأخرى بعذر من الأعذار: تهريب الأفيون، أو القطع الآثارية، بل... التجسس لصالح إيران وما يماثل ذلك من أعذار، في حين أن السبب الحقيقي لكل هذه المطاردة التي لا تعرف التوقف يعود لكون أحد أقاربي من الدرجة الثالثة أو الرابعة - كما يطيب لهم أن يحددوا لصلة القربى من درجات - تم إعدامه منذ أعوام بحجة انتمائه إلى أحد الأحزاب الإسلامية المحظورة!

وتجمد نجيب في موضعه لحظات لينطلق بعدها في صب لعناته على روح ذلك القريب الذي لم يرث من قرابته سوى جعله زبوناً دائماً لهذا السرداب اللعين!

وأستطرد وقد اعتلى الزبد شدقه:

- لو أن الحظ كان قد حالفني فـ"فطس" ذلك القريب في واحدة من هذه الحروب المتعاقبة - الحرب مع الأكراد، أو مع إيران، أو الكويت، أو أمريكا - لو حدث ذلك لاستطعت أن أستثمر موته بالحصول على منصب ما بحجة كون قريبي اللعين هذا قد مات شهيداً - مثل حمزة تماماً
- أما أن يموت معدوماً...

وعاد يصب لعناته على روحه مقترنة بشكواه من داء "السكر" الذي يضطره إلى كثرة التبوّل. واتجه نحو أقصى السرداب ليدلف خلف ستارة مرخية في إحدى الزوايا حيث ينتصب بالقرب منها صنبور ماء راشح بلل الأرض على شكل بقعة مستديرة. وعاد يواصل صراخه على وقع خرير بوله المنصب في صفيحة كما يبدو:

- ولكن توقيفي لن يطول هذه المرة؛ فـ"الأستاذ" وحمزة وأسيادهما الأعلى منهما شأناً راحلون بقدوم الأمريكان الوشيك...
- اخرس... كف عن ترديد هذا الكلام الخطير وإلا ستتسبب في سجننا!

صرخ به يحيى محذراً، فكان جواب نجيب إطلاق ريح رنّانة أردفها بسؤال متهكم:

- وأين ترانا الآن يا يحيى؟ ألسنا في السجن؟!
- لعنة الله عليك وعلى هذا السجن الذي لا تكف عن تذكيري به كل لحظة!

صاح عطا ثائراً وقد كفّ عن ثني ركبتيه نزولاً وصعوداً تحت ثقل الغلام الجاثم على كتفيه. ونفض ذراعيه بغتة في الهواء متخلصاً من عبود بحركة مفاجئة جعلت الصبي يقوم بوثبة في الهواء قبل أن يستوي واقفاً، كالقرد تماماً، على قدميه وقد ضاق وجهه المتورد بابتسامة فخر واعتزاز.

- كان عليك، قبل أن تضيق ذرعاً بهذا السجن، أن تفكر ألف مرة وأنت تسحب مسمار الأمان من قنبلتك اليدوية!

أجابه نجيب وقد انسلّ خارجاً من خلف الستارة، ويداه منشغلتان بتعديل طيات منامته حول وركه الضيق، فلم يتنازل عطا بالرد عليه، إنما اكتفى بالتعبير عن احتقاره بقذف بصقة جانبية ليجلس بعدها على إحدى "الدكك" البعيدة تاركاً "عبود" يحوم حوله وهو يدلك له أطرافه بكل همة ونشاط.

وأوضح يحيى بصوت خفيض أن سبب إلقاء القبض على عطا وصبيه يعود لضبط قوى الأمن إياهما وهما يصطادان السمك وسط البحيرة باستعمال قنابل يدوية لا يُعلم كيفية حصولهما عليها!

وكان الرجل العجوز قد أنهى صلاته، فاندفع نجيب نحوه ليساعده في طيّ عباءته وهو يكلمه بصوت خفيض، فعلق يحيى مستاءً:

- يبدو أن "نجيب" بصدد تكرار التمثيلية نفسها التي اعتاد تقديمها مع كل نزيل جديد؛ إذ إنه يستمتع بسذاجة الرجل العجوز وسرعة تصديقه؛ فيوحي له أن في وسع كل قادم جديد، كما كان شأنه معي، انتشاله من محنته!

- وما هي محنته تلك؟

- ستعرفها بنفسك، وكل ما هو مطلوب منك هو مجاراته والتخفيف عنه؛ ذلك لأنه سرعان ما يتركك ليعاود فرش عباءته باتجاه القبلة والاستغراق في أداء الصلاة داعياً الله إلى مد يد العون له وانتشاله من سجنه!

ودنا الرجل العجوز مني وقد افترت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة ذليلة. وصاح وهو ينبش بأصابع مرتعشة في جيوبه:

- أقسم بالله أن اسمي هو موسى هادي الحداد لا موسى حداد فقط؛ وها هي جنسيتي تؤكد لك ذلك!

وأضاف وقد أفلح باستلال هوية الأحوال المدنية من أحد جيوبه، فدسها في كفي مرشداً إياي، بسبابة سوداء غليظة مثل حطبة محترقة، إلى الموضع الذي يفترض بي قراءة اسمه فيه:

- انظر واقرأ بنفسك يا أستاذ لتتأكد أن ما أذكره هو الحقيقة لا محض ادعاء!

وطمأنته على صحة ما يقول؛ فالاسم الذي طالعني في الهوية كان الاسم الذي ذكره، فانقضّ الرجل على كفي محاولاً لثمها وهو يلهج بالدعاء لي، لكن "نجيب" سارع بتبديد فرحته؛ فقد تدخّل معترضاً:

- ولكن مهنته هي الحدادة... فاتك يا أستاذ ملاحظة ما هو مكتوب بإزاء كلمة "المهنة"!

قالها نجيب وهو يتلوى في محاولته المستميتة لكتم ضحكاته، فسارع الرجل يقول باندفاع وقد أمسك بيدي الطليقة وكأن مصيره مرتهن بتصديقي ما يقول:

– ولكن ما شأن مهنتي باسمي يا أستاذ؟ فقد امتهنت الحدادة في زمن آبائكم وقبل أن تولدوا أنتم لأتركها منذ سنوات غير آسف عليها؛ إذ أين هم الفلاحون والمزارعون الذين قد يستعينون في هذه الأيام بحداد مسكين مثلي ليسنّ لهم مناجلهم أو سكك محاريثهم؟

وعلى غير توقع انهار الرجل فتربع على الأرض وقد انخرط في البكاء، مكرراً، بين شهقة وأخرى، أن اسمه هو موسى هادي الحداد لا موسى حداد!

وكان نجيب قد انزوى بعيداً في أقصى السرداب ليطلق لضحكه العنان، في حين أوضح يحيى أن محنة الرجل تتلخص بحصول التباس بين اسمه واسم رجل مطارد يعرف بموسى حداد يبدو أنه تسلل عبر البحيرة إلى إيران.

***

على تلك الصورة بدأت ليلتي الأولى في السرداب وثمة سؤال مؤرق يتردد في ذهني بإلحاح: تُرى كم عدد الأيام التي يفترض بي أن أُقضيها في هذا الجحر الموبوء؟

كانت رائحة الغائط تتكاثف بمرور ساعات الليل مقترنة برطوبة السرداب الثقيلة. وكان يكفيني أن ألمس أحد الجدران عرضاً لتتسلخ عنه قشرة ملحية رقيقة مخلّفة وراءها قطرات ماء تنز ببطء كالندى من بين طبقات الطابوق والإسمنت.

وكان عطا قد ناصبني عداءً صامتاً: يحرص بشكل غريب على تجاهل وجودي، مكتفياً، من حين لآخر، بإرسال زمجرة كانت تجعل "عبود" يثب لتلبية أحد طلباته: جلب الماء له بقنينة من الصنبور، أو تدليك أحد أطرافه، أو الترويح له بالمنشفة للتخفيف من شعوره بالحر. أما نجيب فقد تحول إلى مصدر عذاب حقيقي لي؛ ففي الوقت الذي خمد فيه يحيى بجانبي على "الدكة" مفغور الفم مرسلاً شخيره على هواه، كان يفترض بي أن أصغي إلى نجيب، على امتداد ساعات الليل، وهو يحدثني بكل ما يخطر له على بال، مطعّماً ثرثرته، بطبيعة الحال، بلعناته على روح قريبه المعدوم. ولم يكن يعتقني من تلك المحنة إلا حينما يتوقف موسى الحداد، بعض الوقت، عن أداء الصلاة بعدما أنهكه التعب؛ فينصرف إلى مماحكته ناصحاً إياه بضرورة الكف عن الادعاء بأنه موسى هادي الحداد لا موسى حداد؛ فما مثبّت في هويته من كون مهنته هي الحدادة لا مهنة أخرى يحسم أنه موسى حداد شاء أم أبى!.. فكان الرجل المسكين يصاب بلوثة عقلية؛ فيهرع مستغيثاً بنا، عامداً إلى إيقاظ من يكون منا نائماً، متوسلاً إلينا أن نؤكد له حقيقة اسمه، فكنا، أنا وعبود، نسارع إلى طمأنته، في حين كان عطا يزجره بقسوة طالباً منه أن يكف عن جعل نفسه موضعاً للسخرية، وكان يحيى الوحيد الذي يجرؤ على تسفيه عبث نجيب مع الرجل العجوز مذكّراً إياه بلقب "الكذاب" الذي طغى على اسمه؛ وبذلك كانت تتأجج مشادة، هذه

المرة، بين يحيى ونجيب لم تكن تنتهي إلا بانسلال الأخير خلف الستارة ليرتفع من هناك خرير بوله في انصبابه الصاخب في الصفيحة.

هكذا مضى نجيب في تنغيص ليلتي الأولى عليّ وأنا جالس بملابسي على تلك "الدكة" الصلبة أتضور جوعاً وقد تناهبني القلق على أسرتي ولاسيما صغيرتي ندى. وكان أكثر الأمور الباعثة على الغثيان يتمثل باضطراري إلى الانسلال خلف تلك الستارة المرخيّة في أقصى السرداب لأفرغ مثانتي حيث الأرض المشبّعة برطوبة الصنبور الراشح تبقبق تحت فردتي حذائي وأنا انتصب فوق تلك الصفيحة متجنباً النظر إلى اصفرار البول الذي تعلوه قطع الغائط العائمة.

كنت أنشد النوم بأي ثمن ليس هرباً من ثرثرة نجيب فحسب، بل أملاً في انقضاء الوقت؛ فكنت أتقلب على "دكتي" الإسمنتية يميناً وشمالاً وأنا مقمّط بالقميص والبنطال، أصغي بيأس إلى شخير يحيى المتواصل بهمة لا تعرف الكلل وزمجرات عطا المفاجئة وتمتمات موسى الحداد وهو مستغرق في أداء صلاته.

وانتبهت، في إحدى المرات، إلى نجيب وهو يوقظني ليقول، وقد دسّ في يدي قنينة:

– هاك.. احتفظ بقنينة ماء بالقرب منك؛ ففجراً سيطفئون المولّدة؛ وبذلك يستحيل عليك التمييز في الظلام بين الصنبور وصفيحة البول!

وأضاف ضاحكاً وهو يشير إلى عطا وعبود المنزويين على دكتهما البعيدة:

– .... ثم هناك أمور تحدث في تلك الزاوية حينما يسود الظلام يستدل منها أن مهمة عبودي لا تقتصر على التدليك وجلب الماء والترويح بالمنشفة، بل الترفيه عن صاحبه بالطريقة التي تنسيه سجنه!

تطلعت إلى "نجيب" وأنا في ريب مما يقول؛ فالكذب من أشهر خصاله، لكنني، برغم شكي ذاك، لم أستطع الامتناع عن اختلاس النظر نحو تلك الزاوية البعيدة في انتظار لحظة انطفاء المصباح، بيد أن ذلك لم يحصل، ويبدو أنني حُظيت، بعدما طال انتظاري، بإغفاءة محمومة بقيت خلالها أسمع "مي" وهي تردد جملة وحيدة لا تمل من تكرارها:

– ستبقى كما عهدتك مثل مستر "جيكل" ومستر "هايد": لا تستطيع الحسم في أخصّ شؤونك!

حتى إذا ما صحوت لحظات أدرت حولي عينين خدرتين محاولاً أن أتيقن من المكان الذي أنا فيه قبل أن أغفو مجدداً لتعاود "مي" مطاردتي بجملتها اليتيمة تلك!

وفوجئت، في إحدى المرات، بـ"مي" تثب من المقعد الذي كنا منزويين عليه في إحدى زوايا حدائق "الزوراء" بعيداً عن الأنظار لتجلس في حجري مرددة أنها لا شأن لها بمستر "جيكل" أو المستر "هايد"؛ فهي سريعة الحسم في ما ترغب فيه!.. وحينما وجدتني أهمس لها بصوت متهدج محذراً أن المكان لا يلائم الغرض الذي تسعى إليه؛ فهناك من يختلس إلينا النظر، فوجئت بها تجيبني أن ذلك أدعى إلى الإثارة!

ومضت في إمعانها في تحديها؛ فأنجزت المهمة نيابة عني ونحن على وضعيتنا الشاذة تلك في ذلك الموضع البعيد عن الأنظار، غير آبهة لي وأنا أكرر تحذيري إياها متنبهاً، في ذروة اللذة، إلى عينين تختلسان إلينا النظر من خلف إحدى أشجار الحديقة... عينين لم تكونا غير عيني زوجتي!!

وفجأة جفلت من حلمي على دوي انفجار قريب، فأخذت أجول بعيني حولي وفي ظني أن عبودي شرع في "الترفيه" عن صاحبه، لكنني أبصرت الاثنين وقد استسلما للنوم على دكتهما. وكان نجيب المستيقظ الوحيد؛ فقد أبصرته وهو يترصدني بعينيه الصغيرتين من دكته المجاورة ليقول بمكر وهو يغالب ضحكه:

ـ نعيماً!

وأضاف دون حياء:

– آمل ألا يكون عبودي سبب كل هذا الهز والخض!

بدا من الواضح أنه لم يفته شيء وأنا أخوض غمار تلك التجربة العقيمة، فلعنته في سري وأنا أباعد ما بين ساقيّ شاعراً بتلك البرودة المقيتة تلسعني تحت نسيج البنطال الذي ازداد قذارة. وعاد نجيب يتكلم مجدداً وقد انهمك، مثل جرذي، بمعالجة شيء ما في فمه:

– أتدري؟ ما يدهشني أنهم لم يطفئوا المولّدة حتى الآن برغم أنهم دأبوا على القيام بذلك قبل أذان الفجر؛ وبذلك فاتنا الاستمتاع بمناغاة عطا لصبيه في الظلام!

وأضاف وهو ينبش في حقيبته:

– يبدو أن ثمة تطوراً قد حصل في الحرب وازداد الأمريكان دنواً من بغداد؛ فعلى امتداد ساعات الليل والطائرات لا تكف عن التلاحق لتعقبها موجات من "السمتيات"، ومنذ أذان الفجر ووقع الأقدام المهرولة واصطفاق الأبواب يتناهى لسمعي من خلال سقف السرداب!

واستطرد وقد دس في كفي قطعة معجنات:

– لا قدرة لي على انتظار قدوم حمزة بالفطور؛ ذلك لأنه لا بد لي من أن أتبلّغ بشيء ما؛ فداء السكر يجعل جسدي يرتجف حالما أشعر الجوع.

– أواثق أنت من سماعك وقع أقدام مهرولة واصطفاق أبواب في الأعلى؟

سألته وقد صوبت عيني نحو السقف المقبب وكأنني أحاول أن أخترق بهما كثافة الطابوق والإسمنت لأبصر ما يجري داخل البيت!

– ثقتي من شخير يحيى الذي تواصل حتى الصباح!

أجابني نجيب، في حين سعل يحيى منهياً بذلك شخيره، وانثنى جالساً وهو يسب ويلعن متلمساً بأصابعه عينه المعطوبة التي كانت قد ازدادت تورماً واسوداداً. وضلع مجتازاً السرداب

مرسلاً أنينه مع كل خطوة يخطوها. ودلف خلف الستارة العتيدة ليرتفع خرير بوله من هناك، حتى إذا ما عاد خاطب "نجيب" قبل أن يشاركنا في قضم المعجنات:

– يبدو أنك تتعامل مع هذا السرداب اللعين كمكان للاستجمام وازدراد المعجنات!

فتساءل نجيب متهكماً:

– وما الضير من ذلك يا ابن شفيق "المبيضجي"؟

– "مبيضجي".. "مبيضجي".. ألا تكفّ عن تذكيري بهذه المهنة اللعينة التي نغّصتْ عليّ طفولتي؟

واشتبك الاثنان في حوار منفعل ينذر بتطوره إلى مشادّة في أية لحظة، في حين انصرفت أنا إلى معالجة تلك القطعة الصلبة صلابة الحجر حالماً ببيضة نصف مسلوقة وقد نثر عليها قليل من الملح وأنا أتناولها بنهم مع الخبز مصحوباً برشفات شاي ساخنة وسط أفراد أسرتي.

وكان دوي الطائرات قد ازداد ارتفاعاً؛ فأخذت زجاجات منافذ التهوية الممتدة فوق الباب قرب السقف تصلصل من حين لآخر. وعاد نجيب يكرر:

– أنا واثق من حصول تطور ما في الحرب والدليل على ذلك تأخر حمزة بالقدوم بالفطور.

وفجأة خطرت لي فكرة مروّعة؛ فتساءلت وأنا أتنقل بنظراتي بينهما:

– ألا يحتمل أن يكون البيت قد هجر وأننا في سبيلنا إلى أن نموت في جحرنا منسيين؟!

فبادلني الاثنان نظرة رعب سبقت وثوبهما واقفين وانطلاقهما نحو الباب الحديدي لينقضّا بالدق عليه بقبضتيهما وهو يستغيثان بحمزة!!

***

كان آخر ما يخطر لي على بال أن ألتحق بدوري بيحيى ونجيب في الدق على الباب؛ فذلك التوجس الحذر من احتمال أن يكون البيت قد هجر سرعان ما تحول إلى يقين؛ فبرغم الإمعان في الدق والصراخ بأعلى الأصوات لم يستجب أحد للضجة التي أُثيرت في بيت قد يلفت أدنى صوت فيه الانتباه. وكانت النتيجة الوحيدة التي انتهينا إليها تمثلت بارتفاع زمجرات عطا وتهديده إيانا بأنه سيخرسنا بنفسه إن لم ندعه يكمل نومه، فصحت به وقد فقدت السيطرة على نفسي:

– عن أي نوم لعين تتحدث يا رجل وهذه الدائرة قد هجرت وسنموت في جحرنا تحت الأرض كالجرذان؟

قلتها وثمة شعور بالاختناق أخذ يطبق عليّ حتى أنني توهمت بالهواء الرطب المشبع برائحة الغائط الفظيعة وقد أوشك على النفاد.

اقترح نجيب أن نستجمع قوانا لنحاول تحطيم الباب، فصاح يحيى بنبرة هستيرية:

– وكيف السبيل للتوفيق في ذلك مع باب حديدي مقفل من الخارج؟!

والتفت نجيب مهيباً بعطا:

- هيا أيها "الديو".... تقدم وبرهن على جدوى عضلاتك وقدرتها على تحطيم هذا الباب!

ودنا عطا منا يتعقبه عبود. وبعدما تلمس الباب وحاول زحزحته انسحب عائداً إلى دكته وهو يقول:

- من المحال النجاح في فتحه دون الاستعانة بأداة فولاذية.

جلت بنظراتي في زوايا السرداب باحثاً، دون جدوى، عن أداة ما قد نستعين بها للقيام بتلك المهمة غابطاً موسى الحداد لاستغراقه في النوم بعدما أنهكه أداء الصلاة.

- لو كنا موقوفين في إحدى غرف البيت لكان في وسعنا، بكل هذه الضجة التي أثرناها، لفت أنظار من في الشارع، أما ونحن مدفونون في سرداب تحت الأرض...

صحتُ وأنا أتجه نحو الصنبور لأنحني عليه راشفاً الماء منه بنهم قبل أن أنسحب مخذولاً لأتهالك جالساً على "الدكة". وسرعان ما التحق بي الآخران، في حين ظل عطا وعبود قابعين في موضعهما وكأن الأمر لا يعنيهما!

وبقينا نتبادل النظرات بعض الوقت دون أن يجرؤ أحدنا على البدء في الكلام. وكان يحيى أول من جازف بتبديد الصمت:

- لماذا لم يعمدوا إلى إطلاق سراحنا قبل أن يهجروا البيت؟!

فأجبته بأول ما خطر في ذهني:

- بسبب حدوث أمر جلل أفقدهم صوابهم.

- وما يكون ذلك الأمر الجلل في اعتقادك؟

سألني نجيب ملهوفاً، فأجبته بشيء من التردد:

- لعل بغداد سقطت بأيدي الأمريكان!!

- محال؛ فالدلائل كلها تؤكد أن حرباً طويلة ستكون في انتظار الأمريكيين.

أكد نجيب بثقة، فأيده يحيى قائلاً:

- لا مفر لهم من خوض حرب شوارع قد لا تحسم لصالحهم إلا بعد مرور أشهر.

وعدنا نلوذ بالصمت من جديد متجنبين أن تلتقي أعيننا حذراً من قول شيء ما في وقت لم يعد الكلام فيه يجدي فتيلاً.

كنا ننتظر حدوث أمر ما ينهي المحنة التي وجدنا أنفسنا متورطين فيها على غير توقع. وكنا نبالغ في إرهاف السمع إلى الحد الذي كنا نتوهم معه أحياناً تردد أصوات وهمسات كانت تجعلنا نهرع نحو الباب لنلصق آذاننا به لحظات قبل أن نعاود الدق والصراخ من جديد.

وتنبهنا، بعد مرور بعض الوقت، إلى أصوات طلقات تتردد على مسافات متباعدة فرادى قبل أن تزداد كثافة واقتراباً.

– ما معنى هذه الطلقات؟

تساءل يحيى وهو يجيل عينه السليمة في وجهينا، فأجابه نجيب:

– لعل الأمريكيين قاموا بإنزال جوي فجوبهوا بمقاومة القطعات المنتشرة خلف المتاريس وعلى أسطح البنايات.

فسفّه يحيى ذلك الكلام بقوله:

– ما حصل في هذا البيت من فرار جماعي يبرهن على استحالة الإقدام على المقاومة.

وفجأة انطفأ المصباح المدلى من السقف، فساد ظلام مطبق تردد فيه همس نجيب:

– فلتقر عينا عطا؛ فقد حانت له فرصة الانفراد بصبيه!

– يبدو أن وقود المولدة قد نفد.

صاح يحيى ليرسل بعدها اللعنات زاعماً أن "نجيب" سحق له قدمه التي سبق لحمزة وعصابته أن أعطبوها، وارتفع صوت موسى الحداد من زاويته وقد استيقظ فأخذ يستغيث بنا لنساعده في تحديد اتجاه القبلة؛ فالظلام قد ضيّع عليه الاتجاهات!

كان الظلام مطبقاً، ما من بصيص ضوء، مهما ضؤل، لاح لي؛ فأخذت أدير أذني حولي، مثل العميان، محاولاً أن أتصيد أدنى صوت قد يعوّض لي انعدام الرؤية.

– علينا أن نتمسك بالصبر؛ إذ لا يعقل ألا يلفت هذا البيت – وهو الذي شغله أحد الأجهزة الأمنية – الانتباه.

قلتها محاولاً، في واقع الحال، طمأنة نفسي، فأيدني نجيب بقوله:

– من المؤكد أن الأمريكان – في حالة احتلالهم المدينة – سيتفقدون من فورهم الدوائر الحكومية واحدة واحدة.

فصاح يحيى ضاحكاً:

– إنها لمفارقة أن يتم تحريرنا على أيدي الأمريكيين!

ووجدتني أجفل على الرغم مني؛ فبقدر منطقية ذلك الكلام لكنني لم أستطع أن أهضم فكرة أن أفاجأ بأمريكي هو الذي يفتح لي ذلك الباب الحديدي المقفل!

– ستكون مفارقة حقاً أن يتم تحريرنا على أيدي من يحتل بلادنا!

علقت وأنا أغالب دهشتي، فتساءل نجيب مستنكراً:

– أتعني بذلك أنك ستظل متشبثاً بـ"دكتك" اللعينة هذه رافضاً مغادرة السرداب إن فتح أمريكي لك ذلك الباب؟

– لا بطبيعة الحال؛ فمن المؤكد أنني سأغادر السرداب، ولكن دون أن أكافئ ذلك الأمريكي بكلمة شكر واحدة؛ فاحتلاله بلادي حوّله إلى خصم لي شاء أم أبى.

– أما أنا فتغنيني الأيام التي أتخم خلالها عطا أذني بزمجراته المتلاحقة وتشبعت كل مسامة من مساماتي برائحة البول والغائط!

قالها يحيى ناقماً، في حين صاح نجيب مخاطباً إياي:

– ما تقوله ليس أكثر من كلام مثقفين لا شك أنك تلقفته من قراءة الكتب!

أجبته وقد أحزنني كلامه:

– لا شأن للثقافة بأمر على هذا القدر من الوضوح؛ فكراهيتي للسلطة لا تسوّغ ترحيبي بالمحتل.

فتدخل يحيى مسانداً إياي:

– تماماً؛ فحب الوطن ضرب من عاطفة غريزية لا شأن للثقافة بها؛ أوَ لا ترى الطائر كيف يستميت دفاعاً عن عشه؟ والنملة وهي تفتح فكيها الضئيلين لتغرزهما في القدم العابثة بجحره؟

علقت ضاحكاً:

– تمنيت لو سمع رياض منك هذا الكلام ليخجل من تدبيجه ذلك التقرير الدنيء بحقك.

– ليس رياض أكثر من مسخ منحط.

وارتفع صوت نجيب متسائلاً:

– ألا تخبرانني ما شأن رياض هذا معكما؟ أهو رياض صبار بشار مدير المتحف نفسه؟

– هو نفسه.

أكد يحيى، في حين سألته إن كان يعرفه؟ فأجابني بعدما أرسل ضحكة متهكمة:

– أعرفه؟ إنه من أفضل زبائني؛ لم يكتف، طوال السنوات الماضية، بتكليفي بتهريب قطع آثارية نفيسة إلى إيران فحسب، بل تكفل، بما له من صلات بالجهات الأمنية، بتأمين الحماية لي وأنا أجتاز بزورقي البحيرة!

– أتسمع؟ أتأكدت الآن من حقيقة تهريب رياض للقطع الآثارية، وأنني لم أتهمه بذلك ظلماً؟

سألني يحيى وهو يربت على ركبتي، فعلقت بنبرة ذات مغزى:

– آمل ألا يكون تهريب الآثار هو سبب كراهيتك الوحيد له!

وشعرت، برغم الظلام، بحيرة يحيى في كيفية الرد؛ فقد مرت لحظات قبل أن يجيبني بشيء من الحذر:

– لقد سبق لك أن خمنت السبب الحقيقي للعداء المستحكم بيننا.

– أتكون "دنيا" هي السبب؟

– تماماً... هي السبب.

أجابني يحيى وكأني به يستمد، من الظلام الحالك، الجرأة التي كانت تخذله من قبل حينما كنت استنطقه في وضح النهار، بيد أن "نجيب" ضيّع عليّ الفرصة السانحة لمعرفة سر العلاقة التي تربط يحيى بتلك الفتاة؛ فقد ارتفع صوته بأغبى سؤال يمكن طرحه في تلك اللحظة الدقيقة:

– ومن تكون "دنيا" هذه؟ أهي تلك المسيحية التي تعمل في مكتبك؟
– لا شأن لك بذلك.

أجاب يحيى بنبرة محذرة جعلت "نجيب" يزداد تهوراً؛ فقد عاد يعلق، هذه المرة، وهو يغالب ضحكه:

– آمنت بالله، لا شأن لي بذلك؛ فلا أنا شقيقها ولا ابن عمها!
– ما الذي ترمي إليه بكلامك هذا؟

صاح يحيى وهو يغلي غضباً، واستطرد وقد أوشك أن يفقد السيطرة على نفسه:

– ألا تكف عن تلميحاتك القذرة التي لا معنى لها؟ أتحسب الناس كلهم على شاكلتك لا يقدمون على أمر ما إلا وهم يبيّتون غرضاً دنيئاً؟

فعاد نجيب يعلق برقة مصطنعة بعدما أطلق ضحكة ماكرة حمّلها بكل الدلالات الممكنة:

– لا مسوّغ لثورتك يا صديقي؛ فمن في الأسلاف لا يدهشه أن تشغّل مثلها في مكتب لا يكاد إيراده يغطي الإيجار الشهري؟

فصاح يحيى وهو يكاد يبكي من فرط الغضب:

– ألا تخجل من هذا الكلام الرخيص يا رجل؟ أنسيت أن هذه المسكينة لا معيل لها في الدنيا، فضلاً عن كونها مسؤولة عن حشد من عجائز وعوانس لا مورد رزق لهن؟
– وهل أنت ولي أمرها لتأخذ على عاتقك مهمة مد يد العون لها؟

تساءل نجيب متهكماً، فأجابه يحيى من فوره:

– لا... لست ولي أمرها، إنما أنا جارها، وللجيرة حقوقها كما تعلم...

وبغتة فوجئت بنجيب يرفع عقيرته بالغناء:

جيرانكمْ يا اهل الدارْ
والجارْ حقه أعلى الجارْ
واقعْ دخيلْ ابداركمْ
وهللهْ هللهْ بجاركمْ
جيرانكمْ يا اهل الدارْ
والجارْ حقهْ أعلى الجارْ

ولم أشعر إلا ويحيى يثب نحو نجيب مثل قذيفة مدفع خرجت عن مسارها على حين غرة، فوثبت بدوري في أثره محاولاً الإمساك به.

***

هكذا وجدتني، على غير توقع مني، مرغماً على أن أبقى متحفزاً للفصل بين يحيى ونجيب كلما حاول أحدهما الوثوب على الآخر.

بدا من غير المعقول أن أسمح بنشوب معركة بين الاثنين في ظلام دامس يضطرنا إلى تلمّس أقرب جدار وصولاً إلى تلك الصفيحة اللعينة التي زادت، بامتلائها بالبول عن آخرها، الأمر علينا تعقيداً؛ إذ لم يعد في وسعنا تحديد موقعها بوساطة الخرير.

حرصت على أن أبقى بالقرب من يحيى تداركاً لإحدى وثباته المفاجئة نحو خصمه، تاركاً إياهما يفرغان، على هواهما، ما في جعبتهما من شتائم من العيار الثقيل لم يقفا بها عند حدودهما الشخصية؛ بل انحدرا بها نزولاً حتى الجد السابع!

وبقدر ما كان يحيى يأخذ الأمر على محمل الجد – فيصيح، ويصب أقذع الشتائم، ويتواثب في موضعه محاولاً الإفلات من قبضتي المتحفزتين للإمساك به – كان نجيب يضفي على ما يحصل سمة كوميدية تتمثل بإعادة ترديد ذلك المقطع من الأغنية، متطرقاً إلى ذكر أمور مبهمة كان جهلي بها يجعلني أرهف السمع لأكتشف سر أحداث لم يسبق لي السماع بها؛ فقد كان نجيب – وبيقين العارف بخفايا الأمور – لا يمل من إغاظة يحيى وذلك بالتنويه بما جرى في المتحف بين "دنيا" ورياض وإقحام يحيى نفسه بالأمر مسبباً بذلك في طرد المسكينة من عملها الذي كان مصدر رزقها الوحيد!

أيكون ذلك إذن سبب تشغيل يحيى "دنيا" في مكتبه؟ أم الأمر أكبر مما أتوهم؟

سؤالان كنت أمنّي نفسي بالحصول على جوابهما من خلال فلتات لسان نجيب، ولكنْ دون جدوى؛ إذ سرعان ما كان يعاود عبثه وتهريجه مستمتعاً بما يجري على النقيض من يحيى الذي كان قد أوشك أن يصاب بالجنون.

وكان التعب قد دبّ فيهما؛ فأخذ كل واحد منهما يثير الآخر بكلام ما دون أن يتزحزح من موضعه: فأشبع نجيب يحيى سخرية وهو يسأله، متصنعاً الجدية، عن محل الخياطة الراقي الذي يتكفل بخياطة ملابسه الأنيقة أناقة ملابس ممثلي هوليوود، وعن مغزى "تقليعة" النظارة التي يغطي بها عينيه – مثل حصان عربة – صيفاً وشتاءً دون أن يكون لديه فرق بين الظهيرة والمساء؟ كما سأله عن سر حرصه على التجوال في الشوارع وثمة كاميرا تتدلى من رقبته شأنه شأن السياح الأجانب؟!

وكانت أكثر أسئلة نجيب الساخرة التي أثارت يحيى سؤاله الماكر عن مصير المواد التي كان المرحوم والده يستعين بها في تبييض القدور النحاسية في ذلك الزمن الغابر – مثل التيزاب والبطش والقلاي والشناذر والقار والزريقيون – ألا يزالون يحتفظون بها ذكرى لتلك الأيام "المجيدة"؟ أم أن أم الأولاد استثمرتها في قدر الطعام، في ذروة الحصار، عوضاً عن البهارات والكركم والفلفل؟!

فانبرى يحيى بدوره له فذكّره بسنوات الأسر في إيران وتجنيده في صفوف "التوّابين". بيد أن "نجيب" لم ينهزم هذه المرة، إنما جابه خصمه بإحدى قهقهاته المجلجلة التي شفعها بتأسفه لأنه

لم يعد في وسع يحيى استثمار هذه "التهمة" برفع تقرير "محترم" ضده إلى الجهات المعنية؛ وذلك لأن تلك الجهات المكلفة بتلقي هذا "الهراء" قد ولت مهزومة، فعاد يحيى يكرر لازمته المعهودة من أن "الوشاية" لم تكن يوماً ما من "شيمه" لذا لم يخطر له قط استثمار هذا الأمر لإيقاع الأذى به، إنما ما كان يثير اشمئزازه تحوّل نجيب إلى أداة تعذيب ضد رفاقه الأسرى الآخرين: يكفي أن يُذكر اسمه بينهم حتى كانوا يستعيذون بالله!

– وهل كنت، بتجنيدي في صفوف "التوابين"، أهدف إلى إرهاب رفاقي الأسرى الآخرين؟!

تساءل نجيب مستنكراً ليستطرد، بعد لحظات، معترفاً بأن ما كان يشغله آنذاك هو الإفلات من تلك العقوبات التي كانت تفرض على الأسرى بأي عذر من الأعذار؛ فقد كان المشرفون على تلك المعسكرات يناصبونهم العداء عادين إياهم دون استثناء من "أزلام" النظام دون أن يخطر لهم قط أنهم اقتيدوا من بيوتهم مرغمين ليلقوا بهم في وجه الإيرانيين!

ومضى يعدد العقوبات التي كانت تُنزل بحق الأسرى المشكوك في أمرهم وأهونها الحرمان من النوم والطعام والماء أو الوقوف ساعات في العراء تحت الثلج. أما المكافآت التي كان يُحظى بها من تم تجنيده في صفوف "التوابين"...

وهنا عاود "نجيب" المرح فانطلق يصيح بطريقته التهريجية:

– ... فاحسب ولا حرج؛ ويكفيه الوعد بالحرية.. أتسمع؟ يكفي الأسير أن يوعد بنيل حريته لينصاع مسروراً لما يُطلب منه!

– لم يكن الجميع – وأنا واحد منهم – يوافقونك هذا الرأي..

علق يحيى باحتقار، فأجابه نجيب وسط سلسلة قهقهات متلاحقة:

– وبذلك فاتك تناول كافيار بحر قزوين بأصابعك العشرة يا غبي!

وفوجئت بيحيى ينطلق ضاحكاً على الرغم منه!

وطوال تلك الضجة المحتدمة بين الرجلين بقي عطا محافظاً على صمته، محاطاً، في زاويته التي انفرد بها بعبودي، بالأسرار، لم يتدخل إلا مرة واحدة اكتفى خلالها بإرسال سيل من الشتائم واللعنات، وكذلك كان شأن موسى الحداد؛ إذ لم يعد يُسمع له صوت وكأني به اهتدى، بشكل من الأشكال، إلى اتجاه "القِبلة" فانصرف إلى مواصلة صلاته مستعجلاً الخلاص!

على تلك الوتيرة انصرم يوم كامل استحال فيه عليّ التفريق بين النهار والليل بعدما لم يعد في وسعي الاعتماد على ساعتي اليدوية في تحديد الوقت، وبقي الأذان الذي كان يرفع في مسجد قريب الوسيلة الوحيدة للشعور بانقضاء الزمان.

وكان الجوع قد برّح بي بطبيعة الحال بعدما بات من غير المعقول الاستعانة بما يحمل نجيب في حقيبته من معجنات قد تكون نفدت بدورها، فوجدت عزائي الوحيد في النوم الحافل بكوابيس تتشابه وتتكرر على وتيرة واحدة مثل كوابيس المحموم. وكانت أصداء الطلقات التي لم

تكن تكف عن التردد في شتى أرجاء المدينة مصحوبة بوقع أقدام حشود مهرولة تردد هتافات مبهمة يستحيل عليّ فهم مغزاها، كانت تلك الأمور تتداخل مع كوابيسي؛ فلم أكن أستطيع التمييز بين ما يحدث في الواقع أو الحلم!

وجفلت، في إحدى المرات، على دويّ ضربة جبارة جعلني أثب واقفاً وفي ظني أنني أحلم، بيد أنني سرعان ما تأكدت من حقيقة ما يجري؛ فقد تكررت الضربات على باب البيت الذي كنا موقوفين في سردابه مقترنة بهتافات حماسية سرعان ما تحولت إلى زئير جماعي حين تهشم الباب تحت وقع الضربات. وتدفقت الحشود الصاخبة داخلة ليدوي وقع أقدامهم المهرولة فوق سقف السرداب.

واصطدمنا نحن الثلاثة ببعضنا ونحن نتواثب نحو الباب الحديدي لننهال عليه ضرباً وركلاً مستغيثين بالقادمين. وسرعان ما التحق بنا عطا؛ فطلب منا الانتظار لحظات ريثما يحمل "عبود" على كتفيه ليكتشف، من خلال منافذ التهوية، سر ما يجري في الأعلى، فشجعه نجيب قائلاً:

– إنه يومك أيها "الديو"، فهيا دع صبيك يتحفنا بما يرى.

ومرت لحظات ونحن نحث "عبود" على الإسراع بإخبارنا بما يجري.

– يا إلهي!... يبدو أنهم حشد من اللصوص يتنقلون بين الغرف كالمجانين مختطفين كل ما تطاله أيديهم!

أعلن عبود لاهثاً، فصاح نجيب بيأس:

– في هذه الحالة كيف لهم أن يسمعونا؟ إنهم في شاغل عنا بالسلب والنهب.

فأجابه يحيى من فوره:

– إنهم على شاكلتك؛ حشد من اللصوص غير المعنيين بمصائب الآخرين.

– اخرس وأرجئ تفاهاتك إلى وقت آخر؛ فالمهم الآن لفت انتباههم إلينا.

وتدخلت راجياً إياهما تجاوز خلافهما الطارئ فالمهم – كما يقول نجيب – لفت الانتباه قبل أن تفلت الفرصة منا.

وهكذا عدنا نواصل الصراخ والدق على الباب، يعيننا عبود بصراخه قرب فتحات التهوية، بيد أن الحشود بقيت في شاغل عنا بالسلب والنهب: نسمع، من خلال سقف السرداب، أصوات سحب أشياء ثقيلة وصليل تهشّم الزجاج، فضلاً عن ضجة معارك مفاجئة كانت تنشب أحياناً بين الأطراف المتنافسة على السرقة، حتى إذا ما مر بعض الوقت فوجئنا بالهدوء يخيم على غير توقع ترددت خلاله أصوات وهي تتكلم الإنكليزية!

– دقق يا عبودي الوردة النظر لترى ما يجري.

توسل نجيب، فأجابه عبود بنبرة غير مصدقة:

– يبدو أن القادمين ليسوا سوى جنود أجانب!

– جنود أجانب؟

تساءل يحيى متعجباً، فصاح نجيب مستبشراً:

– من المؤكد أنهم جنود أمريكيون!!

– معنى ذلك أن النظام سقط وتم احتلال البلاد!!

علّقتُ يائساً، فزمجر عطا متشفياً:

– إلى جهنم وبئس المصير!

وسرعان ما عدنا ندق على الباب بعزيمة أشد لنكافأ على جهدنا بارتفاع أصوات تعلن عن وجود موقوفين في السرداب؛ فتسابق عدد منهم بهبوط درجات السلم ليدقوا الباب من الخارج سائلين إيانا عمن نكون؟ فأفلتت من يحيى شتيمة لم يستطع لها منعاً ضاعت في الضجة المدوية، في حين صاح نجيب بأعلى صوته:

– أنا نجيب يا جماعة... نجيب شكري، ألا تعرفونني!؟

– نجيب شكري؟ ومن يكون نجيب شكري هذا؟

تساءل أكثر من واحد مستنكراً، فاغتنم يحيى الفرصة بأن صاح موضحاً:

– إنه نجيب الكذاب... لا يعقل أنكم تجهلون نجيب الكذاب!

وعاد أكثر من واحد يؤكد معرفته بالاسم الجديد؛ فمن منهم لا يعرف نجيب الكذاب؟ وطلبوا منا الابتعاد عن الباب للشروع في فتحه، وارتفعت ضربات مطرقة وقد انهال بها أحدهم على القفل، وهتف نجيب بيحيى بانفعال:

– احمد الله أنهم بصدد فتح الباب؛ وإلا كنت سأجعل ما قلته آخر كلام تنطق به.

وتدخلت مهدئاً إياهما من جديد. وكان الباب قد ارتد منفتحاً إلى الداخل قبل أن أنهي كلامي؛ فأغمضت عيني بإزاء ضوء النهار الذي تدفق على حين غرة لأفتحهما، بعد لحظات، على منظر الداخلين وهم يزاحمون بعضهم بعضاً وثمة ثلاثة جنود أمريكيين وسطهم بملابس القتال وبكامل معداتهم وهم يطالعوننا بابتسامات مرحّبة.

– تفضّلْ!... ها هو ما كنت تخشاه وقد حصل؛ إذ تم تحريرك على أيدي الأمريكان!

علق نجيب ضاحكاً، في حين أخذ أحد الجنود الثلاثة يربت على كتفي بحركات تحبب وهو يردد:

– برافو.. ألي بابا.. برافو.. ألي بابا!!

وعاد الجنود الأمريكيون يرتقون درجات السلم وهم يمازحون المحيطين بهم لينصرفوا خارجين حيث ساد الهرج والمرج البيت من جديد. وأنفرد بنا أربعة رجال أو خمسة سائلين إيانا إنْ كنا شيوعيين أم إسلاميين أم أكراداً؟ وحين خيّبنا آمالهم بقولنا إننا لسنا من تلك الجماعات الثلاث ارتفع أكثر من صوت متسائلاً عن مغزى توقيفنا في هذه الحالة إذن؟

وفجأة تشبث نجيب بواحد منهم – تميز عنهم بلحيته المسترسلة وطاقيته البيضاء التي تعلو رأسه – وسأله إن كان مكلفاً بالبحث عن الإسلاميين بين السجناء؟ وحين رد عليه بالإيجاب سارع إلى إخباره باسم قريبه المعدوم – ولم ينس الترحّم على روحه هذه المرة! – وأنه أوقف بسبب صلة القربى تلك، فصاح الرجل مستبشراً:

– الله أكبر.... الله أكبر... لقد ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً... هات يدك يا أخي في الدين ولتعنّي في البحث عن أخوان لنا قد يكونون مسجونين في سراديب مماثلة!

وانصاع نجيب للرجل؛ فهرول في أعقابه بالمنامة مغادراً السرداب دون أن يخطر له توديعنا أو السؤال عن مصير حقيبته البائسة!

وتسابق عطا وصبيه في ارتقاء درجات السلم ليسهما بدورهما في السلب. وبدا موسى الحداد الوحيد بيننا الذي لم يكن قد أدرك بعد مغزى ما يجري؛ فقد عمد إلى استلال هويته من جيبه ليدسها تحت أنف كل شخص يقترب منه حالفاً بأغلظ الأيمان أن اسمه موسى هادي الحداد وليس موسى حداد!.. هكذا استمر يتنقل بهويته من شخص إلى آخر ليختفي وسط الحشود.

– هيا... آن لنا بدورنا الانضمام إلى الخارجين.

خاطبني يحيى وقد تقدمني، وهو يضلع بقدمه، مرتقياً درجات السلم حيث فوجئنا بأعداد غفيرة أغلبهم مراهقون دون سن العشرين يرفلون بملابس النوم – الدشاديش والمنامات والتراكسوتات – مزودون بالمفكات والكماشات والمطارق وهم منهمكون بمعالجة الأجهزة الكهربائية – مكيفات، ومراوح، وثلاجات، وأجهزة تلفاز، ومذياع، وهاتف وما أشبه – وثمة آخرون يتعاونون في قلع أبواب وشبابيك ليحملوها نحو الخارج. وكان عدد آخر منهم يظهرون في الطبقة العليا وهم يقومون بالأعمال نفسها.

والتحق بنا ثلاثة رجال طلب أحدهم منا، وهو يشير إلى الحشود الهائجة، ألا نستغرب مما يحصل؛ فبرغم اشمئزازه من تلك الأعمال إلا أن ذلك أمر لا مفر من حصوله بعد سنوات طوال من الكبت والحرمان.

وأضاف آخر مبتسماً:

– تأكدا أنه لو أن واشنطن أو نيويورك تعرضتا لاحتلال مماثل لتصرف الأمريكيون على الشاكلة نفسها.

وعقب عليه أحد زميليه بنبرة ثائرة:

– الكارثة أن هذه الأعمال الفظيعة تجري على امتداد المدينة وتحت سمع "المارينز" الأمريكيين وبصرهم دون أن يتدخلوا – كما رأيتما بأنفسكما – في الأمر مكتفين بالسخرية مما يجري مشبهين العراقيين دون استثناء بـ"علي بابا" وخصومه اللصوص الأربعين!

وعاد الأول يضيف قائلاً:

– ليس غرض الجميع السلب والنهب؛ ونحن الثلاثة خير مثال على ما نقول؛ فقد جنّدنا أنفسنا تلقائياً للحصول على التقارير والملفات السرية وقوائم بأسماء السجناء الخاصة بأجهزة الأمن والمخابرات لاستثمارها للكشف عن الكثير من أسماء مفقودين قبل أن يضيع منا كل شيء؛ فمن دأب هؤلاء الرعاع أن يختموا جنونهم الجماعي بإضرام النيران!

في الخارج، وعلى امتداد الشوارع التي سلكناها أنا ويحيى، فوجئنا بالحشود تعيش أجواء "كرنفالية" تبعث على الدوار: فالعربات المقطورة إلى دواب تتزاحم قرب أبواب الدوائر الحكومية المشرعة، وأصحابها يتنافسون على ملئها بالبضائع المنهوبة، والسيارات في اجتيازها للشوارع والساحات تسير عكس حركة السير المعهودة وكأنه لا سبيل لهؤلاء السواق للبرهنة على "تحررهم" إلا بمخالفة القوانين ولو تمثلت تلك القوانين بأنظمة المرور!

وكانت النيران قد أضرمت في أكثر من مركز شرطة ودائرة حكومية، وثمة بنايات أخرى لا تزال الحشود تدخل إليها وتخرج منها محملة بالبضائع. ولاح لنا عدد منهم في الطبقة العليا من إحدى بنايات الأسواق المركزية وهم يقذفون نحو الشارع بدواليب سيارات مغلفة وبأكداس ملابس وأقمشة وعلب مواد غذائية وبكل ما هو غير قابل للكسر تاركين، لأقارب لهم وزملاء في الأسفل، مهمة التقاطها وتجميعها.

وكان آخرون يظهرون ويختفون من خلال النوافذ في صعودهم وهبوطهم سلالم إحدى الدوائر التابعة للجنة الأولمبية قاذفين إلى الشارع بمضارب تنس وأكياس بلاستيكية مملوءة بكرات القدم الجلدية والسلة المطاطية. وأفرغ أحدهم صندوقاً كبيراً من فوق سياج إحدى الطبقات العليا، فتناثر في الشارع سيل من كرات المنضدة البيض أخذت تتقافز هنا وهناك لتنسحق أعداد منها تحت عجلات السيارات المارقة. وصادف أن مرت مدرعة أمريكية محملة بـ"المارينز" فصاح بهم شاب بإنكليزية مشوهة وهو منهمك بارتداء فردتي حذاء رياضي كانتا من جملة ما نهبه:

– أمريكا كود.. أمريكا كود!!

فأجابه رجال "المارينز" بعاصفة ضحك زاد عليها أحدهم بأن ردد وهو يهز إبهامه في الهواء:

– برافو ألي بابا... برافو ألي بابا!

ولفت انتباهي شاب ملثّم وهو يشق سبيله وسط الحشود، دافعاً أمامه عربة محمّلة بأكداس بضائع تمنع عنه الرؤية، وعجيزته الضخمة تتماوج في صعودها وهبوطها داخل دشداشته المنقعة بالعرق؛ فهتفت بيحيى وأنا ألكزه في جنبه:

– انظر.. أليس صاحب العربة الضخم ذاك حمزة؟

فسألني يحيى مستنكراً وهو يطالعني بعين وحيدة بعدما اسودّت عينه الأخرى وانغلقت تماماً:

- أي حمزة؟
- حمزة "مقطاطه"!
- لا يعقل ذلك!

علق يحيى مستنكراً قبل أن ينادي وقد أحاط فمه بكفيه:

- حمزة... حمزة!

وتوقف الشاب بعربته، والتفت نحونا متأملاً إيانا من بعيد، حتى إذا ما شخصنا هرول هارباً بجرمه الضخم وقد انحرف بعربته مستديراً بها نحو زقاق جانبي تاركاً البضائع تتساقط خلفه محددة أثر سيره!

- لم يعد يدهشني لو صادفت "رياض" وهو يهرول وسط هؤلاء اللصوص!

قلتها وأنا أتابع حمزة بنظراتي، فأيدني يحيى بقوله:

- من المؤكد أن كلبيه السلوقيين لن يفوّتا هذه الفرصة....

وصاح بغتة وكأنه لدغ:

- يا للهول!... أخشى أن يكون مكتبي قد نهب بدوره!

وتركني لينطلق راكضاً، لكنه سرعان ما توقف ليصيح من بعيد:

- يفترض بك إعداد نفسك للعودة بأسرتك إلى بغداد؛ ذلك لأن الحرائق قد بدأت، والأمريكان الذين أسهموا في إضرامها هم آخر من يفكرون في إطفائها!

وأشار نحو سحب دخان الحرائق وهي تتلوى صاعدة من حولي لتملأ بسوادها زرقة سماء الأسلاف!

افتح يا سمسم!

على تلك الصورة انتهت رحلتي الكابوسية وفي ظني أنها ستكون آخر رحلة لي إلى الأسلاف غير مدرك أن ثمة ظروفاً قاهرة ستضطرني إلى أن أحزم حقائبي ثانية لأتخذ سبيلي من جديد إلى هناك في رحلة لا تقلّ شؤماً عن الأولى!

بدت بغداد، حين وصولنا إليها عند الظهيرة، على غير عهدي بها: مدينة أخرى لا تمت بصلة إلى مدينة الطفولة التي كانت، قبل أن استقر فيها نهائياً، حلماً يظل يهدهد مخيلتي كلما اصطحبني إليها أحد أفراد أسرتي الأكبر سناً، سرعان ما كان يتحول إلى واقع يتجسد على شكل إعلانات عملاقة لجرارات زراعية ومعدات كهربائية ومكائن – لا أزال أتذكر حتى الآن إعلاناً لإطارات "دنلوب" للسيارات بكل تفاصيله – تتلاحق على جانبي الطريق كلما ازدادت السيارة اقتراباً لتحتل مكانها بعد ذلك الأشجار، ولاسيما أشجار اليوكالبتوس، بأسراب العصافير المتطايرة حولها، لتعقبها الأبنية بشوارعها المستقيمة والنساء السافرات يدرجن على أرصفتها برشاقة، وحقائبهن الصغيرة تتدلى متأرجحة من أكتافهن.

بدت العاصمة الآن مستباحة للقوات الغازية: تجابهك المدرعات الأمريكية، أينما تحركت، بمدافعها المهيّأة للقتل دون سابق إنذار!

وكان دخولنا إليها، من مدخلها الجنوبي المحاذي لمعسكر الرشيد، قد اقتضى الانتظار ساعات وسط آلاف السيارات التي تزاحمت على امتداد كيلومترات قبل أن يحلّ علينا الدور لاجتياز الجسر المقام على نهر ديالى والذي كان قد نسف جزء منه أُقيم في موضعه معبر مؤقت بحراسة "المارينز".

لم أكد أوشك على الانتهاء من اجتياز الجسر بسيارتي حتى ارتفع صياح زوجتي وهي تحذر الأطفال من النظر إلى الخارج حيث لاح لي مشهد سيبقى محفوراً في ذاكرتي إلى الأبد؛ فأسفل الجسر، وعلى امتداد الجرف المقابل، تناثرت عشرات الجثث المنتفخة المغطاة بأسراب الغربان في مشهد رهيب أشبه ما يكون بنصب سريالي صمّمه فنان مجنون!!

كانت جثث جنود عراقيين، وهم بملابسهم العسكرية، وقد تساقطوا بوضعيات مختلفة قرب خط المياه حيث الأمواج كانت تغمر بعضهم بين لحظة وأخرى!

– ما الذي منع الأمريكيين من أن يواروا جثث هؤلاء المساكين التراب وقد مرت على احتلالهم بغداد أيام؟

تساءلت زوجتي ناشجة، فأجبتها وأنا أطبق قدمي على دوّاسة الوقود منطلقاً بالسيارة بأقصى سرعتها:

– لكي ينتزعوا منك، ومن آلاف الأسر التي تجتاز هذا الجسر يومياً، صرخة التحذير تلك ملقنين بذلك إيانا أول درس في الإذلال والخضوع!

– ولكن ذلك لا يصح في دينهم؛ فهم بدورهم أصحاب كتاب.

– صحيح، بيد أن كتابهم ذاك يقول في قسمه الأول، أعني التوراة: "فهلمّ الآن واضربْ عماليق، وحرّمْ كل ما لهم، ولا تبقِ عليه، بل أمتِ الرجال والنساء والأولاد وحتى الرضّع والبقر والغنم والإبل والحمير"!!

هكذا دخلنا بغداد لنجتاز شبكة الشوارع التي فوجئت بها وقد خلت، عند التقاطعات، من شرطة المرور – شد ما افتقدتهم في تلك اللحظة متناسياً الغرامات التي فرضوها عليّ أكثر من مرة لمخالفتي أنظمة السير! – وثمة إشارات ضوئية تطالعني، عوضاً عنهم، بعيونها المطفأة.

وكانت الدبابات والمدرعات والآليات المحترقة متناثرة على أرصفة الطريق السريع، وثمة سحب دخان تشابكت في السماء المغبرّة تطالع أعيننا هنا وهناك ضاعت، في خضمها، النيران الأزلية التي كانت تتوج أبراج مصافي النفط في "الدورة" عادة.

وأخذت أنافس زوجتي في تخمين المواضع التي تنبثق منها تلك السحب السود: الوزارات، والدوائر الحكومية، والمنشآت الصناعية، والأسواق المركزية، والمكتبات، والمسارح، التي لا تزال النيران تستعر فيها منذ التاسع من نيسان.

وكانت الشوارع التي نجتازها تضيق أحياناً بالسيارات؛ فتزاحم بعضها بعضاً في سير بطيء قاتل سرعان ما كنت أتبين أن سببه يعود لوجود رتل عسكري يتقدمنا حيث الجنود الأمريكيون المطلون من قمرات المدرعات يتتبعوننا بعيون مغطاة بنظارات معتمة وقد صوبوا أسلحتهم نحونا، وثمة عبارة تحذير مكتوبة باللون الأحمر على مؤخرة آخر مدرعة تقول:

– "خطر مميت!... احذر الاقتراب أكثر من ١٠٠ متر"!

وعلى امتداد الطريق، وأنا أتصنّع الهدوء في إمساكي بعجلة القيادة، كان ثمة هاجس وحيد يلازمني باحتمال أن يكون بيتي قد نُهب أو احترق، وهو هاجس ازداد إلحاحاً بعد عبورنا إلى جانب الكرخ داخلين منطقة "الدورة"؛ فالشوارع بدت خالية، تعصف فيها الريح مطيّرة الأوراق والأكياس البلاستيكية هنا وهناك، في حين كانت مداخل الطرق الجانبية والأزقة المفضية إلى الأحياء السكنية قد أغلقت بمتاريس مرتجلة تتكون من أكياس رمل وجذوع نخيل مقطوعة. وكانت تلك المتاريس تزداد كثافة بعد تخطينا لجامع "أم الطبول" ودنونا من منطقة "المأمون" حيث نسكن، بيد أنني سرعان ما تنفست الصعداء لحظة اجتزت زقاقنا ليطالعني البيت بواجهته من خلال خضرة أشجار الحديقة.

لم أكد أركن السيارة في مكانها المعهود عند مقدمة البيت حتى وثب أطفالي الثلاثة مغادرين إياها وكأنما تم الإفراج عنهم بعد طول أسر!

ووسط انهماكي مع زوجتي في حمل الحقائب وبقية الأمتعة إلى داخل البيت ارتفعت نداءات ندى من الحديقة:

– بابا.... بابا!

وسرعان ما برزت من بين الأشجار وهي تنوء تحت ثقل شيء ما كانت قد أمسكت به بيديها الاثنتين.

– يا إلهي!... إنها شظية قذيفة جبارة!

صحت وأنا أعدو نحوها لأختطف منها تلك الشظية عارضاً إياها على الأنظار قبل أن أتخلص منها برميها في برميل النفايات.

– ولكنْ ما الذي أتى بها إلى هنا؟!

تساءلت زوجتي بدهشة لتحظى بالجواب بعد دقائق؛ فعلى أثر تقاطر الجارات للقائها عند الباب الخارجي، مبادلات إياها العناق والقبل، عادت شاحبة الوجه لتعلن أن ثمة عبوة ناسفة انفجرت البارحة، في الشارع القريب، بمركبة "همر" أمريكية عثرت إحدى الجارات في أعقابها، على سطح بيتها، على فردة حذاء وقد انحشرت فيها قدم مبتورة!

***

من كان يحسب أن تلك القدم المبتورة والمحشورة في فردة حذاء ما هي، في واقع الحال، سوى إرهاص بأقدام وأذرع ورؤوس ستتساقط تباعاً في مجزرة جماعية لن تقتصر على المحتلين فحسب؛ بل ستعم البلاد كلها؟!

حينها كنت في ذروة يأسي، أشعر بالعار والخذلان وأنا أسمع وكالات الإعلام تجمع على أن بغداد سقطت بشكل مهين بيد الأمريكيين عقب تمركز دبابتين على جسر الجمهورية واستهدافهما فندق "الميريديان" – حيث استقر الصحفيون الأجانب ووسائل الإعلام العالمية – ببضع قذائف، متناسين بذلك المقدمات المأساوية التي سبقت هذا السقوط بدءاً بغباء "مغامرة" احتلال الكويت وإلحاقها بالعراق باسم "المحافظة التاسعة عشرة"، مروراً بحرب "عاصفة الصحراء" المدمرة التي توجت بسنوات الحصار الثلاث عشرة، وما تخللتها من حملات ظالمة من قبل الوكالات التابعة للأمم المتحدة في تجريدها الجيش العراقي من أسلحته الهجومية على مراحل، انتهاء بالحرب الأخيرة!

كنت قد رابطت في البيت: أزجي ساعات يومي الكئيبة بالعمل في الحديقة أو التنقل بين غرف الطبقة العليا، متأملاً بحزن رفوف الكتب المرتبة من حولي على امتداد جدران المكتبة، نافضاً سحب الغبار عن محتويات حقيبتي الجلدية – أرشيف الرواية المنتظرة – وقد تركتها متناثرة على المكتب منذ عودتي إلى بغداد.

وكنت أعمد أحياناً إلى الجلوس على الكرسي لأمد يدي بحركة تلقائية نحو المصباح المنضدي مضيئاً إياه كما كان شأني على امتداد أعوام طوال جلست خلالها جلستي هذه التي تمخضت عن أكثر من رواية وجدت طريقها إلى المطبعة.

ترى ما الذي يمنعني الآن من أن أعاود سيرتي السابقة تلك؟

سؤال كان يزيد من إلحاحه عليّ وجود ملفات الأرشيف في متناول يدي، هذه الملفات التي تجمعت صفحاتها لدي على امتداد سنوات تحولت الكتابة خلالها – بل كل صنوف الفن والإبداع – إلى ضرب من عبث؛ فوسط معاناة الناس اليومية للحصول على لقمة الخبز – حتى وصل الأمر بالعديدين إلى بيع أسرّة نومهم وأبواب بيوتهم! – كنت ملزماً بشد رحالي، كل بضعة أشهر، إلى مدينة الأسلاف بعدما أكون قد هيأت أسباب العيش لأسرتي التي أخلّفها ورائي في بغداد، حتى إذا ما التقيت بدر فرهود الطارش في تلك الصالة المترفة – بمقصفها الحافل بشتى أنواع المشروبات الكحولية وبمكتبتها الهائلة التي تدرج رفوف كتبها على ارتفاع طبقتين – هانت كل معاناتي بإزاء مزاج الرجل الجهنمي؛ إذ كان يكفيه أن يراني وأنا أهيئ جهاز تسجيلي الصغير لغرض تسجيل ذكرياته حتى كان ينتفض وسط عربته الخاصة بالمعاقين ليصيح بي بتلك الطريقة البغيضة التي سبق لي أن كنت شاهداً عليها حينما كان يصب جام غضبه على رياض "ضحيته النموذجية":

– حذار من اللجوء إلى هذا الجهاز اللعين؛ ذلك لأنه يكفيك أن تضغط على زر التشغيل لينعقد، على الفور، لساني في فمي!

وحينما كنت أضطر إلى أن أزيح الجهاز جانباً لأعمد إلى استلال قلمي بعدما أكون قد بسطت أوراقي على المنضدة كان صراخه يزداد استعاراً:

– ما الذي دهاك؟ ما حاجتك إلى هذه الأوراق والقلم؟ أنحن بصدد إجراء امتحان "البكالوريا"؟ أم ماذا؟

وكان يضيف غير آبه لي وأنا أتأمله بحيرة:

– أنا مثل بطلي المفضل "نابليون بونابرت": ترعبني الامتحانات أكثر بما لا يقاس من خوض الحروب!

على تلك الشاكلة كان بدر يبدأ كل لقاء مصيباً إياي بالإحباط؛ مما كان يضطرني إلى أن أسأله، بأكثر الطرق لباقة وحذراً، عن الوسيلة التي تكفل لي تسجيل ذكرياته لغرض استثمارها فيما بعد في كتابة روايتي المنتظرة التي كان لا يكف عن الإلحاح عليّ بضرورة انجازها؟ فكان يعود ليكرر حججه المعهودة عن انعقاد لسانه في فمه ورعبه من الامتحانات وما أشبه ذلك من أعذار!

وكان يضيف بعدما يقوم بإيماءة يسارع رياض إلى ترجمتها على شكل كاس ويسكي يهرع إلى حملها إلى المائدة ومكعبات الثلج تصلصل وسط سائلها الذهبي:

– الذاكرة!... عليك بتشغيل ذاكرتك فيما بعد لأرشفة ما ستكون بك حاجة إليه؛ ألست روائياً؟ حسن... وهل الروائي سوى ذاكرة جبارة قادرة على تلقف كل ما يخطر في البال وما لا يخطر؟

وهكذا؛ كنت أظل دقائق لا أقرب كأسي المهملة أمامي مكتفياً بمبادلة بدر النظر وأنا في حيرة من كيفية التصرف معه، مشبعاً نفسي لوماً وتقريعاً لقطع مئات الكيلومترات في مثل تلك الظروف العصيبة برغم يقيني المؤكد بما سيكون في انتظاري تحت السقف الشاهق لتلك الصالة.

وكان بدر يمضي في احتساء كأسه باستمتاع مثنياً، بين لحظة وأخرى، على رياض لحسن إعداده للمقبلات، حتى إذا ما شرع في كأسه الثانية لانت ملامحه المترهلة وأخذ جفن عينه الواقعة في الجانب المشلول من جسده بالانسدال، ومعها أفاجأ به ينطق بجملة أو ببضع كلمات كانت تجعلني أبادل "رياض" نظرة متواطئة مدركاً بأن "النحس" قد بارحه، وأنه بصدد التطرق إلى ما دفع بي إلى القيام بتلك الرحلة.

كان يردد في الغالب عقب رشفة محترمة من كأسه:

– ما يدهشني أن تلك الأحداث القديمة لم تكن حينها بهذا القدر من الأهمية التي نضفيها عليها الآن؛ فقد كانت أحداثاً مبتذلة تتشابه تماماً مع ما يجري في حياتنا اليومية، ولم يخطر لي قط أنه سيأتي يوم أجلس فيه جلستي هذه لأروي لك أموراً متنافرة على تلك الشاكلة يصعب وضعها في سياق تاريخي.

ومثل سائق حذر لا مفر له من أن يطمئن إلى سير سيارته قبل أن ينتقل بها إلى السرعة الثانية ممهداً السبيل للانطلاق بها بأقصى سرعتها كان بدر يعود إلى تلك الأعوام الخمسة عشر التي قضاها في بغداد مؤكداً، بين فينة وأخرى، أن أطماع الأمريكيين في العراق قديمة قدم أطماع البريطانيين؛ فقد كان الطرفان يتنافسان للاستحواذ على البلاد منذ مفتتح القرن العشرين متخذين من حملات "التبشير" والتنقيب عن الآثار واستخراج النفط، فيما بعد، وسائل للتغلغل وكسب النفوذ.

هكذا كان يسترسل في كلام طويل متحدثاً عن أمور سبق لي أن اطلعت على نماذج مماثلة لها من خلال قراءتي لبعض الكتب الخاصة بهذه الأمور وفي مقدمتها كتاب إدوارد سعيد "الإستشراق" الذي فضح فيه تلك "الصور النمطية" التي اعتاد الغربيون النظر بها إلى الشرق.

كان من الواضح أن أبرز ما لفت انتباهه، وهو صبي، تمثّل بحرص وسائل الإعلام الأمريكية على الاستعانة بالأفلام والكتب الرائجة والمجلات واسعة الانتشار لغرض الترويج لتخلّف العرب والمسلمين؛ فقد شاهد آنذاك ثلاثة أفلام أمريكية عرضت في بغداد هي فيلم "الشيخ" و"لص بغداد" و"بادرة جميلة".

وعلّق وقد صوّب عينيه الزرقاوين نحوي:

– حينها لم أكن أدرك الغاية التي كانت تهدف إليها تلك الأفلام، مكتفياً بالاستمتاع بمشاهدتها؛ فقد كنت أصغر من أن أفقه هذه الأمور، بيد أن أخي "فرج"، الذي كان يكبرني بست عشرة سنة، هو الذي تولى لفت انتباهي؛ فقد كان يعمد – كما كان شأنه معي في كل مرة يجدني فيها منتشياً

– إلى صفعي على مؤخرة عنقي ناعياً عليّ بلادتي لكوني توهمت أن "هوليوود" – مدينة السينما المستحدثة في أمريكا – لم تنتج تلك الأفلام الضخمة المكلفة إلا حباً بسواد عيني وسواد عيون من هم على شاكلتي من الأغبياء، في حين أن الغرض الرئيس من تلك الأفلام هو تأكيد عنف العرب وتخلفهم وفسادهم الجنسي!

واستدرك بدر منبّهاً:

– كان ما يدهشني آنذاك سبب بغض فرج للبريطانيين والأمريكيين برغم أنه كان يدين للمستر "تيلر تومسون" بلقمة عيشه. وكان عليّ أن أنتظر بضع سنوات قبل أن أكتشف سر ذلك العداء المستحكم.

واستطرد بعد لحظات محاولاً تأكيد صحة ما ذهب إليه فرج من الغرض الذي يسعى الأمريكيون وراءه:

– لقد شاءت المصادفة أن أقرأ، بعد سنوات طوال، مذكرات "هارولد أكس" وزير الداخلية الأمريكي في أثناء نشوب الحرب العالمية الثانية؛ فقد ذكر ذلك الوزير أنه اعتاد أن يحضر الاجتماعات التي كانت تعقد مع الرئيس "روزفلت" في "البيت الأبيض" لغرض مناقشة ازدياد أهمية النفط، ولاسيما نفط الشرق الأوسط، حتى انتهى الأمر بوزير الخارجية آنذاك "جيمس بيرنز" إلى سؤال الرئيس عن الحصة التي ينبغي للأمريكيين الاستحواذ عليها من نفط الشرق الأوسط؟ فكان جواب الرئيس بعد لحظات صمت: "جيم... ليس أقل من مئة في المئة"!

***

عبارة "بليغة" يُفترض بها أن تحفّزني على الشروع في كتابة الرواية المنتظرة؛ ذلك لأن الرئيس الأمريكي "بوش" اقترب – باحتلاله العراق – من تحقيق وعد سلفه!

لم يكن الأمر يتطلب مني سوى الوقوع على الطريقة التي تسوّغ لي الجمع بين ما حصل في الماضي في زمن بدر – وقبل أن أولد – وبين ما يحصل الآن وقد طعنت في السن.

كان عليّ الشروع في الكتابة وعدم إضاعة الوقت بالعودة، من حين إلى آخر، إلى الأرشيف لأتصفح أوراقه متحسراً، ولكنْ عبثاً؛ فما كان يشغلني آنذاك تمثّل باستماتتي للتأقلم مع الوضع الجديد، محاولاً، ما وسعتني الحيلة، تجاوز "الطقوس" التي درجت على ممارستها في الماضي والتي كانت تتوزع بين المرور مرتين أو ثلاثاً أسبوعياً بالمجلة التي كنت أعمل فيها محرراً، والجلوس يوم الجمعة في مقهى "الشابندر" في شارع المتنبي، والاتصال هاتفياً بأصدقاء لا يكادون يعدون على أصابع اليد الواحدة لغرض الاتفاق مع بعضهم للسهر في نادي اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس.

لقد نسفت تلك "الطقوس" – على تواضعها – من أساسها؛ فالدوائر الحكومية عمدت إلى إغلاق أبوابها تلقائياً إلى إشعار آخر، وحال انقطاع خطوط الهاتف بيني وبين الاتصال

بالأصدقاء؛ وبذلك تم صرف النظر عن مسألة التوجه إلى إتحاد الأدباء، أو المجازفة بالذهاب إلى المقهى يوم الجمعة، مكتفياً بـ"الترويح" عن النفس بالجلوس وسط مجموعة كهول تجاوزوا سن الشباب اعتادوا الاسترخاء ساعات أمام "كشك" اتخذ منه "أبو منير" – أحد قاطني الزقاق – دكاناً لصق بيته لبيع المواد العطارية والمرطبات، حيث لا تخرج أحاديثنا عن التطرق إلى ما جرى، وسر "سقوط" بغداد السريع؛ إذ يسارع "أبو منير" – بحكم كونه عسكرياً متقاعداً – بالتنويه بحصول "خيانة" في قيادة "الحرس الجمهوري"، واستعمال الأمريكان لسلاح "نووي" تكتيكي في "معركة المطار" وما ترتب عنه من إذابة الدبابات العراقية بمن فيها!

وكنا نعرّج بأحاديثنا على ظاهرة السلب والنهب التي كانت لا تزال جارية على قدم وساق، ومعها نستعيد أسطورة "كهرمانة" التي توقفت، يوم التاسع من نيسان، عن صبّ زيتها المغلي على لصوصها الأربعين؛ فيتحدث أحد الجالسين عن عدد من قاطني شارعنا وهم يتسللون إلى بيوتهم بتكتم شديد، ولاسيما بعد غروب الشمس، محملين سياراتهم بآرائك وكراسي ومناضد وخزانات وأجهزة كهربائية وما شاكل ذلك.

وكان "أبو منير" يأبى إلا أن يدلو بدلوه: فبعدما يقضي لحظات في تمسيد لحيته البيضاء المسترسلة يخبرنا كيف أنه فوجئ، فجر أحد الأيام وهو يطل من إحدى نوافذ الطبقة العليا من بيته بعدما جفاه النوم، بسيارة "مرسيدس" سوداء بزجاجات مظللة – من تلك الأصناف التي كانت تابعة لرئاسة الجمهورية – وقد ركنت عند باب البيت المجاور لتختفي عن الأنظار بشكل من الأشكال قبل شروق الشمس!

وكنا نقف بأحاديثنا طويلاً عند ذلك المولّد الكهربائي العملاق الذي انتصب فجأة في فسحة أرض خلاء تجاور بيت أحد العاملين في سلك الشرطة السابقة، وكيف أنه استحال على سارقه إخفاءه؛ فوجد في تلويث ذمم الآخرين خير وسيلة للتكفير عن جريمته فأعلن، على مسمع من كثيرين، أنه آن للجميع تجاوز محنة انقطاع التيار الكهربائي؛ وذلك المولّد هو الكفيل بهذا الأمر لقاء أجور متواضعة ستستقطع شهرياً!

وكنا، وسط أحاديثنا تلك، نفاجأ أحياناً بمرور رتل من مركبات "الهمر" الأمريكية يطلّ منها عدد من جنود "المارينز"، فيحيوننا بحماسة وهم ثملون بانتصارهم الساحق، ويتبسطون معنا – بوساطة مترجمهم – بالحديث، مبدين حرصاً غريباً على نفح الأطفال والصبيان الهدايا والحلويات، مشاركين مجموعة منهم، قد يكونون منشغلين بلعبة الكرة، في مباراتهم؛ فيترجلون عن مركباتهم ليتلقفوا – وهم بكامل معداتهم القتالية – الكرة متناهبين بها الأرض وهم يقهقهون ويتصايحون بكلمات إنكليزية يطعّمونها بمفردات عربية سبق لهم، كما يبدو، أن تلقنوها من مترجميهم، فيكررونها بطريقة عوجاء تبعث على الضحك وهم منهمكون بحركاتهم الاستعراضية تلك.

على هذه الوتيرة كانت جلساتنا تتواصل على مدى ساعات قبل أن تنفضّ على أمل أن تنعقد مجدداً صباح اليوم التالي في الموضع نفسه؛ فكنت أعود إلى البيت محمّلاً بما سبق لزوجتي وأطفالي أن أوصوني بشرائه، متأملاً بيأس سيارتي الجاثمة في موضعها، لا تغادره إلا فيما ندر.

وكان الحصول على الوقود قد أصبح أمراً بالغ الصعوبة بعدما أغلقت المحطات أبوابها، ولولا احتفاظي ببضعة "جليكانات" من البنزين، سبق لي دفنها في أرض الحديقة قبل سفري إلى الأسلاف، لاستحال عليّ الاستجابة لإحدى نزوات صغيرتي ندى – نزوات قد تتوزع بين الرغبة في تناول المثلجات، أو الحلويات، أو اقتناء ما فاتنا شراؤه من لوازم المدرسة! – فأتنقل بسيارتي في الشوارع المجاورة، ولاسيما شارع الربيع، حيث بيع "أجهزة الستلايت" كان قد أصبح ظاهرة لافتة للنظر: تكاد الأرصفة تضيق بصحون الفضائيات المعروضة أمام المحلات. وكانت ثمة شوارع جانبية سادت فيها ظاهرة أخرى مثل بيع المشروبات الكحولية – أنواع الويسكي والنبيذ والشمبانيا والكونياك – على الأرصفة، بل بيع علب الجعة المبرّدة مع المقبّلات لتكرع "على الماشي" كما تشرب المرطبات تماماً!.. كما شاع بيع الأقراص المدمجة الخاصة بالأفلام الإباحية بعدما أخذت بعض دور السينما العريقة في جانب الرصافة تنافس بعضها بعضاً في عرض أفلام مماثلة كانت تجعل مقاعد الحضور – وجلّهم مراهقون – تبعث، مع كل مشهد ساخن، صريراً بإيقاع خاص كان ينتهي عادة بتساقط مناديل ورقية مكورة بين الأقدام!

ليلاً كنت أحاول التعويض عن كآبة النهار الراحل بالتنقل بين عشرات "الفضائيات"، متابعاً بفضول ما تعرضه من تغطيات إعلامية وندوات وتحليلات سياسية وعسكرية لا تخرج عن نطاق حدث الساعة الاستثنائي: احتلال العراق.

وكانت المشاهد – مشاهد انطلاق الطائرات الأمريكية والبريطانية من الدول "الشقيقة" المجاورة محمّلة بالصواريخ – تتكرر بأشكال وصيغ مختلفة لا تخرج عن نطاق تلك "السادية" التي كانت تتجسد بمنظر شوارع بغداد وهي تخلو من السابلة على وقع دويّ صافرة الإنذار ليعقبه مشهد القصف الرهيب حين تنهض فجأة، وسط البيوت والمباني والأزقة العامرة بالبشر، جبال من اللهب تحيل ظلام الأفق إلى ضياء ساطع!

وكانت مشاهد السلب والنهب تتكرر بدورها مشفوعة بكنية "علي بابا" التي أضحت كاللازمة لا يمل المذيعون عن ذكرها وهم يعلقون على منظر هؤلاء اللصوص وهم يجوبون الشوارع ليقتحموا دون تردد الوزارات والدوائر الرسمية لينهبوا ما يستطيعون نهبه قبل أن يضرموا وراءهم النيران. وكان منظرهم يبعث على التقزز حقاً وهم يتخطون دبابة أمريكية رابضة قرب المتحف العراقي ليقتحموا البوابة المحروسة بتمثالين آشوريين عملاقين، منطلقين وسط الأروقة والقاعات مثل حشد خنازير عمياء لا تلوي على شيء وهي تحطم الخزانات الزجاجية، مهشمة

تحت أظلافها اللقى والقطع الآثارية التي تحدت مرور آلاف السنين وهي مطمورة في تراب بلاد ما بين النهرين!

وكانت ندى تضع حداً لمعاناتي بمتابعة ما يجري على الشاشة؛ ففور انتهائها من عشائها كانت تغريني بكنية "بابي" قبل أن تختطف من يدي "الريموت" لتتنقل بدورها بين "الفضائيات" باحثة عن أفلام الكارتون!

***

لقد تعاقبت الأيام بطيئة ومملة ومثقلة بالسأم، لا أكاد انتبه من نومي، كل صباح، حتى أبحث مع نفسي عن الوسيلة التي ستكفل لي انقضاء الوقت بأي شكل من الأشكال، حتى إذا ما جفلت، ذات يوم، على نفير سيارة يتردد أسفل نافذة المكتبة أدركت من فوري أن القادم ليس سوى صديقي بهجت لطيف؛ فهذا الكهل الوسيم، والذي هو نموذج للحيوية والنشاط، بقي على عهدي به: يحرص على تفقّد أحوالي كل بضعة أشهر.

انطلقت مهرولاً هابطاً درجات السلم وثباً لأسارع بفتح الباب له قبل أن يبادر باقتحام البيت بطريقته العاصفة الباعثة على الارتباك والاضطراب، بيد أنه كان قد سبقني بفتح باب الحديقة لينهال دقاً على الباب الداخلي مسبباً بذلك في "استنفار" أفراد أسرتي كما هو شأنهم مع كل زيارة يقوم بها؛ فقد هرع الجميع – بما فيهم ندى – إلى رفع المرتبات والوسائد والأغطية المبعثرة في غرفة الاستقبال، مضفين اللمسات المطلوبة على الأرائك والطاولات. واندفعت زوجتي بحمية نحو مطبخها لتعد القهوة، كما يحبها بهجت، قليلة السكر ومثقلة بطبقة كثيفة من الرغوة.

– ها؟ ما رأيك بما حصل؟

سألني وهو يعانقني مفعماً أنفي برائحة عطره النفاذة. وأردف مبتسماً مستبقاً جوابي:

– من المؤكد أنك لا تزال كعهدي بك: متشبثاً بأفكارك القديمة.

أجبته وأنا أشير إلى رفوف الكتب التي تغطي أحد الجدران:

– تماماً... وهي أفكار علمتني إياها تلك الكتب!

– مشْ وحدك بيأرهْ كتبْ يا وادْ!

أجابني باللهجة المصرية – هذه اللهجة التي اعتاد أن يطعّم بها كلامه من حين إلى آخر كأثر من فترة مكوثه في القاهرة قبل أعوام – وانشغل لحظات بمعانقة أطفالي الثلاثة وتقبيلهم قبل أن يستطرد وقد التفت نحوي:

– لقد تخطت العولمة تلك الأفكار البالية عن الوطن والاستقلال؛ ذلك لأنها كانت المسوغ الوحيد لاستمرار النظم الشمولية التي لم تعد تطاق.

لم أجبه مكتفياً بالابتسام تاركاً إياه ينظّر لأفكاره بالطريقة التي لم يقنعني بها يوماً ما؛ فكراهية النظام السابق – وهذا أمر أشاركه فيه – لا تعني الترحيب بالاحتلال.

ووضع قدوم زوجتي بالقهوة حداً لانتقادات بهجت؛ ذلك لأنه أخذ يتحدث، هذه المرة، عن أيام الحرب الرهيبة التي اقترن خلالها "غضب السماء" بـ"جبروت الأرض" حتى استحال على الناس التمييز بين قصف الرعد ودوي انفجار الصواريخ والقذائف!

وأضاف وهو يتنقل بعينيه بيني وبين زوجتي:

– تصورا!... لقد تلونت السماء بلون الدم؛ فأخذت تمطر وحلاً وطيناً!

ومع آخر رشفة من فنجانه التفت نحوي مستدركاً:

– لقد نفذت بجلدك مما جرى؛ إذ إنك لجأت بأسرتك إلى مدينتك الحدودية...

فقاطعته مطمئناً إياه أن الأسلاف نالت بدورها حصتها من القصف. وأردفت قائلاً:

– وليت الأمر اقتصر على القصف وحده؛ ذلك لأنني قضيت الأيام الثلاثة الأخيرة موقوفاً في سرداب تحت الأرض مثقل برائحة الغائط وعفونة الأنفاس!

ووسط ضحكات بهجت المتتابعة لخّصت له ما حصل، وكيف أن تحريري تم على أيدي "صحبه" الأمريكان. وعلى غير توقع فوجئت به يغالب ضحكاته ليعلّق باللهجة المصرية:

– ولا يهمّكْ؛ حطْ في بطنكْ بطّيخهْ صيفي!

واقترح عليّ بكل جدية ضرورة استثمار ما حصل باعتباري من سجناء النظام السابق!

وأضاف وقد زوى ما بين حاجبيه:

– على كل حال دع الأمر لي، فالمهم الآن أن تسرع باستبدال ملابسك لتصحبني إلى شارع المتنبي.

استجبت له من فوري دون أن أحاول الاستفسار عن كيفية مجازفته بقطع هذه المسافة إلى شارع المتنبي ذهاباً وإياباً وأزمة الوقود في ذروتها؛ فأنا أعرف أنه لا يعدم الوسائل التي تكفل له الحصول على ما يشاء؛ هكذا عرفته على امتداد سنوات مزاملتي إياه في تلك المدرسة المتوسطة القائمة في شارع الشيخ عمر عقب نقلي من مدينة الأسلاف؛ فبرغم أن الحصار كان قد فرض على أثر احتلال الكويت إلا أن بهجت بقي يواصل حياته على وتيرتها السابقة: يستبدل بسيارته القديمة أخرى جديدة كل بضع سنين، ويرتدي أفخر البزات، متباهياً أن الحصار لم يمنعه من معاقرة أفضل أصناف الويسكي!

والحق أنه كان يدهشني لانطوائه على تلك الازدواجية الصارخة التي كان يمارسها في حياته وصولاً إلى تحقيق أهدافه؛ فكراهيته للنظام السابق مثلاً لم تمنعه من أن يكون على صلة حميمة بالعديد من الحزبيين المتنفذين الذين ضمنوا له ولأفراد أسرته وأقاربه تحقيق أهدافهم: فزوجته وأولاده وبناته مثلاً كانوا يدرسون في أفضل المدارس والمعاهد الخاصة التي كانت مقتصرة على الحزبيين، بل بلغ الأمر به أنه كان الوحيد الذي استطاع أن يمد لي يد العون حين ضقت ذرعاً بمهنة التدريس التي لم استسغها يوماً ما؛ فقد جنّد جهوده كلها – علاقته بالأطباء

المسؤولين عن مثل هذه الأمور، ومعرفته برؤساء اللجان المختصة، وصلاته بذوي النفوذ القادرين على تذليل بعض العقبات وما أشبه – ليفلح بإحالتي على التقاعد بسبب إصابتي بمرض مزمن لا أزال أجهل كنهه؛ وبذلك تسنى لي العمل في إحدى المجلات الثقافية بعقد مؤقت وفّر مكافأة شهرية خففت بعض الشيء، مع المرتب التقاعدي، من صعوبات فترة الحصار.

ألقيت آخر نظرة على المرآة قبل أن أسارع بمغادرة البيت مستجيباً لنفير سيارة بهجت وهو يدوي بين لحظة وأخرى بنفاد صبر.

بدت الشوارع شبه خالية في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، لا أكاد ألمح، من نافذة السيارة، إلا أعداداً قليلة من هؤلاء الذين دأبوا، طوال الأيام الماضية، على إفراغ الدوائر الحكومية من بقايا محتوياتها؛ فما من دائرة مررنا بها إلا ورأينا أفراداً منهم وهم يغادرونها محملين بالأسلاب دون أن تردعهم سحب دخان الحرائق التي كانت لا تزال تتصاعد من الأبواب والنوافذ!

– برافو علي بابا... برافو!

هكذا كان بهجت يصيح بهم – على طريقة الأمريكيين – مشجعاً، حتى أنني لم أعد أطيق صبراً؛ فسألته، بين جاد ومازح، عما يمنعه من الانضمام إلى هؤلاء "الرعاع" ما داموا موضع إعجابه وتقديره؟! فأجابني بعدما رمقني بنظرة خاطفة شفعها بابتسامة:

– دعهم يشبعوا نوازعهم المكبوتة يا رجل؛ فقد آن لهم أن يستردوا جزءاً يسيراً من خسائرهم المتوارثة منذ أجيال وأجيال!

وسارع يضيف مغيّراً الموضوع:

– بالمناسبة: فاتني إخبارك بخسارتك الكبرى التي فجعت بها دون أن تدري!

التفت نحوه مراقباً إياه في جلسته خلف مقود سيارته منتظراً أن يفصح عما يعنيه بكلامه.

– فاتني إخبارك بهجرة "مي" إلى إحدى الدول الأوربية!

دق قلبي لهذا الخبر؛ فها هي "مي" تنفذ وعيدها أسرع ما كنت أتصور!

– إلتقيتها قبل هجرتها بأيام. أخبرتني بأنها بصدد الالتحاق ببعض أقاربها الذين سبق لهم الاستقرار في أوربا منذ عقود من الزمن. قالت إنها، وهي المجبولة على التحدي، لن تطيق مرأى المدرعات الأمريكية وهي تصول وتجول حول بيتها مذكّرة إياها بالدبابات الإسرائيلية التي كانت تشكل صيداً ثميناً لها ولرفاقها في المقاومة في أواخر السبعينات.

وأضاف بعدما رمقني بنظرة سريعة:

– بدتْ وكأنها تحاول، من خلالي، إيصال أمر ما إليك قبل أن تتراجع في آخر لحظة.

وقطع كلامه بسؤال مفاجئ:

– ترى أيعود ذلك لأمر ما استجد بينكما دون أن أدري؟

– وما الذي تريد أن يكون قد استجد وثمة مئات الكيلومترات كانت تفصل أحدنا عن الآخر طوال الأسابيع الماضية؟

أجبته وقد استدرت بوجهي يميناً متأملاً ما تمر به السيارة من شوارع، متذكراً أول لقاء لي بـ"مي"؛ فقد كان بهجت لطيف نفسه هو الذي عرّف أحدنا إلى الآخر: حصل ذلك في فندق "الميليا منصور" في واحد من مهرجانات "المربد" الموسمية؛ فوسط انهماكي بمعانقة أصدقائي الأدباء القادمين من مختلف المدن العراقية فوجئت ببهجت يسحبني جانباً ليقودني نحو امرأة اسمها "مي" سبق له أن حدثني عنها أكثر من مرة باعتبارها قارئة متابعة لرواياتي.

– كفاك خدشاً لشفتيك بتقبيل هذه الوجوه الخشنة، واستعض عنها بمعجبة هي أشبه ما تكون بـ"الكيكه"؛ تكاد تذوب قبل لمسها بالشفاه!

علّق بهجت وقد أوقفني أمام تلك المرأة الأنيقة التي شدت من فورها انتباهي بسعة عينيها وامتلاء شفتيها. وتساءل وهو يتلمظ بفمه:

– بربك ألا ترى هذه "الكيكه" جديرة بأن تؤكل دون تردد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها؟!

وفوجئت بالمرأة تجيبه مبتسمة دون أن تغادرني بعينيها:

– تبقى المشكلة بـ"أخمص القدمين"؛ إذ من المؤكد أنه من العسير الانتهاء بهما بسبب حذائي بالكعب العالي الذي سيغص به حلقك!!

وعلّق بهجت مخاطباً إياي وهو يقهقه منتشياً:

– أسمعتها؟ هكذا هي؛ نموذج للنحلة: لا تكاد تتذوق حلاوة عسلها حتى تبادرك باللدغ!

وأضاف وقد التفت نحو "مي" معرّفاً أحدنا بالآخر:

– هاك تفضّلي واشبعي من روائيك الذي صدعت رأسي لإلحاحك عليّ لأقدمك إليه.. تفضّلي واشبعي منه على هواك ولا تبقي منه لامرأة من بعدك بقية!

فخاطبتني "مي" وهي تصافحني بكف دافئة:

– آمل ألا تصدّقه؛ ذلك لأنني لست من أكلة لحوم البشر!

وأردفت وقد انفرجت شفتاها المكتنزتان عن أسنان نضيدة:

– ولكي أزيدك اطمئناناً يسعدني أن أصارحك بأنني أكاد أكون نباتية؛ لا أقرب اللحم عادة إلا في... عيد الأضحى!

منذ ذلك اليوم تكررت لقاءاتنا في "الميليا منصور" حيث كانت "مي" تقدم عادة في صحبة بهجت مما دفع بي، ذات يوم، إلى أن أسأله همساً عن سر هذه "الصحبة"؟ فإذا به يصيح فاضحاً إيّاي مخاطباً "مي" باللهجة المصرية وهو يغالب ضحكه بصعوبة:

– إلحأي يا ستْ: السّارهْ غمزتْ؛ والراكَلْ وأعْ لشوشتو وبيغارْ عليكي موتْ!

وعمد مساء اليوم نفسه إلى طمأنتي؛ فقد أخبرني، في اتصال هاتفي، أن علاقته بـ"مي" لا تتخطى كونها جارته، فضلاً عن اعتمادها عليه في توصيلها بسيارته. لكنه لم ينس أن يحذرني بألا أتوهم بكونها سهلة المنال؛ فبرغم تحررها إلا أنها امرأة لا تخلو من نزوات!

هكذا استعدت تلك الذكريات على امتداد الطريق، حتى إذا ما وصلنا إلى شارع المتنبي ركن بهجت سيارته قرب مقهى " الشابندر"، لنشرع في القيام بالجولة التقليدية التي تسبق عادة الجلوس في المقهى؛ فالوقت لا يزال مبكراً على قدوم الأصدقاء والمعارف.

وبدا الشارع، كما عهدته، يضج بالاستعدادات التي يقوم بها الباعة في عرض بضاعتهم على الأرصفة: يفرش كل واحد منهم كتبه في مكانه المعهود إلى جوار زميل له قد يكون سبقه في انجاز المهمة فحرص على مكافئة نفسه بتدخين سيجارة يشفعه باحتساء إستكان شاي وهو واقف.

وطوال تنقلنا من بائع إلى آخر كان بهجت يحرص على أن يردد على مسمع كل واحد منهم عبارة معينة باتت لديه كاللازمة:

– ابشر يا أخي ابشر؛ فقد آن لك التمتع بثروة بلادك بعد التحرر من نير الطاغية!

فكان بعض الباعة يجادلونه في كيفية حصول ذلك؟ والسبل الكفيلة بأن تجعل الحكومة القادمة تلتفت إلى معاناتهم؟ في حين كان آخرون يسفهون حماسته بترديد المثل العراقي "وراك حصبة وجدري"، وكان قسم ثالث يسخرون منه دون تردد؛ فيسألونه بأسلوب استفزازي:

– ومتى عُدّ الاحتلال تحريراً يا أستاذ؟!

ولم يكن بهجت ينسى أن يلتقط، من حين لآخر، كتاباً معيناً من وسط الكتب التي تغطي الرصيف، فيعرض عنوانه عليّ وهو يصيح:

– انظر... انظر... ألم يكن عرض هذا الكتاب على الرصيف قبل التاسع من نيسان كفيلاً باختفاء البائع المسكين وراء الشمس؟!

وحدّثنُ بهجت، أثناء تجوالنا، بمعاناة بعض الباعة؛ فأحدهم – وذكرت له اسم "عبد شندي" – متورط بأطفال معاقين وراثياً، وآخر – وهو "واثق الحيالي" – يسابق الزمن ليتوج عمره، وهو على أعتاب الخمسين، بالزواج بمن يحب؛ فعمد بهجت، حال لقائه الأول، إلى طمأنته إلى أن "محنته" على وشك الانتهاء؛ إذ لا تكاد تمضي أسابيع – أو أشهر على أبعد تقدير! – حتى يكون قد أصبح من أصحاب الدخل الثابت: يتسلم راتبه التقاعدي شهرياً، أما الثاني فقد بشّره أن الحكومة الجديدة ستتكفل بتحمّل تكاليف زواج من ليس في وسعه القيام بذلك!

ولم ينس بهجت أن يؤكد لعدنان – وقد دخلنا مكتبته – أنه لا يعقل له، بعد الآن، أن يبقى حبيس هذه المكتبة الضيقة، فطمأنه عدنان، المعروف بسرعة بديهيته، أنه بصدد الاستعانة

بالأقارب والأصدقاء ليساعدوه على دفع الجدران إلى اليمين والشمال مضاعفين بذلك حجم المكتبة!!

وحتى الشقيقان "اللدودان" لم يخرجا خاليي الوفاض من "مكارم" بهجت؛ فقد دعاهما إلى نبذ خلافاتهما الدائمة وتوحيد جهدهما المشترك في تأسيس مكتبة ستتكفل الدولة بمدها بالكتب اللازمة، فانبرى أحدهما سائلاً عن الاسم الذي ستحمله تلك المكتبة؟ ووسط حيرة بهجت من هذا السؤال غير المتوقع ارتفع صراخ الشقيقين وكل منهما يكيل الشتائم بحق والد الآخر لكونه هو الأولى بأن تحمل المكتبة المنتظرة اسمه!!

في طريقي إلى المقهى اعترض غافل النجار سبيلي ليدس في كفي ورقة مطوية سارعت بإلقاء نظرة فضول عليها لأتأكد من درجة جنونه بعد كل هذه الأحداث الجسام: فإذا بي اكتشف أن الجنون لم يعد مقتصراً عليه بل شمل الآخرين أيضاً؛ فالورقة كانت صورة مستنسخة عن مقابلة أجرتها معه إحدى المجلات العربية "العريقة" الصادرة في لندن تصدرها مانشيت بخط بارز نصه: "فيلسوف جمهورية غافل النجار الديمقراطية يرشح نفسه كمنافس وحيد لصدام حسين في آخر انتخابات صورية أجراها الدكتاتور المهزوم"!!!

في المقهى كانت جلبة الحضور تكاد تطغى على ما يعرضه جهاز التلفاز المعلق في إحدى الزوايا؛ فكانت المشاهد والوجوه تتابع على الشاشة دون أن يسمع لها صوت شأنها شأن البلابل المحبوسة في القفص المدلى من السقف في تنقلها من جانب إلى آخر.

كان المقهى يكاد يضيق بحشد من وجوه جديدة شخّصت بينها على الفور عدداً من الغربيين – بين رجال ونساء – تميزوا بملابسهم وبأجهزة التصوير المعلقة برقابهم، وثمة ثلاثة أو أربعة منهم حرصوا على اعتمار طاقيات سود صغيرة دلالة كونهم يهوداً!

– يبدو أن موسم السياحة إلى بلاد ما بين النهرين قد أزف!

قلتها متهكماً، فأجابني بهجت وهو يتقدمني متجنباً الاصطدام بالعامل المسؤول عن توزيع الشاي وهو يشق سبيله بصعوبة وصولاً إلى أهدافه، موازناً صينيته على كفه بمهارة:

– بفضل الأمريكان دون شك!

وكانت الزاوية المعهودة الخاصة بالأدباء والصحفيين تبدو على حالها كما تركتها وكأنني لم أغادرها؛ فوسط رنين الملاعق في دورانها في إستكانات الشاي وقرقرة النراجيل وهي تتعالى من هنا وهناك كان الجالسون يثرثرون ويقهقهون بانطلاق كما كان شأنهم في السابق وكأنما الدنيا لا تزال على حالها لم تنقلب بعد رأساً على عقب!!

وسارع بهجت، حال انتهائه من احتساء شايه، إلى تدوين أرقام الهواتف النقّالة لبعض الحضور، حتى إذا ما وجدني أحذو حذوه علّق ضاحكاً:

– ها أنت الآن تتمتع بإحدى بركات التحرير بعد زوال تلك السلطة المتخلّفة التي ناصبت كل ثمار العولمة العداء!

ونهض معلناً أنه سيمر على مجموعة من الأصدقاء القدماء الذين عادوا إلى الوطن بعد اغتراب عقود من الزمن، فتساءل الأستاذ حسيب وهو يشيعه بنظرة مظلمة:

– وما حاجته إلى المرور بتلك المجموعة التي تحاذر الدنو من زاويتنا وكأننا مصابون بالطاعون؟

فأجابه أمجد سالم مع نفثة دخان من نارجيلته وهو يغالب ضحكته بصعوبة:

– لعلهم سيتحفونه بـ"الصوغه" المنتظرة بعد طول غياب!

فعاد الأستاذ حسيب يعلق بمرارة:

– إنهم ثملون بانتصار سادتهم الأمريكان: يرمقون ما حولهم بنظرات متسلطة في انتظار أن ندنو منهم – نحن أدباء الداخل – بذلّة مقدمين لهم فروض الطاعة والولاء بحكم كونهم يهيئون أنفسهم لقيادة ثقافة "العولمة" في هذا الوطن المنحوس!

– فليبدأوا بقيادة هذا أولاً!

صاح هاني الأحمد وهو يشير إلى ما بين فخذيه، واستطرد بتهور وقد نسي نفسه:

– لا شأن لمناضلي فنادق "الخمسة نجوم" بالقيادة ما دام دورهم لم يتخط "القوادة" للأمريكان!

وسرعان ما انبرى له أحد الجالسين معترضاً، مؤكداً أنه من الإجحاف أن يوسم أدباء الخارج دون استثناء بهذه النعوت؛ فهم لا يخلون من وطنيين يدركون أبعاد المؤامرة الدولية التي لم تستهدف السلطة السابقة فحسب قدر استهدافها العراق كله!

وعلى الفور ارتفعت موجة تعليقات بين الجالسين: فبقدر ما كان المستاؤون مما حصل يحاولون الإفصاح عن مواقفهم بشيء من الحيطة والحذر، كان المرحبون بالاحتلال – وكانوا يسمونه تحريراً! – يسوغون مواقفهم زاعمين أنه لم يكن هناك مفر من الاستعانة بالأمريكان بعدما ورط النظام السابق، بتهوره ورعونته، البلاد بإدخالها تحت البند السابع!

وأنهى الجدال المحتدم انطلاق رشقة رصاص في الخارج؛ فاستدرنا برؤوسنا متطلعين إلى واجهة المقهى الغربية المطلة على "القشلة" العثمانية حيث كان رتل من عربات "الهمر" الأمريكية يمهد السبيل لاجتياز الشارع بتلك الطلقات المحذرة التي ذكرتني بأصداء طلقات مماثلة كانت تطلق عادة داخل "القشلة" احتفاءً بتنصيب كل والٍ عثماني جديد على امتداد عقود من الزمن قبل أن يحل الدور على الأمير فيصل الذي توّج، في الموضع نفسه، ملكاً على العراق!

***

ظهراً عدنا إلى البيت على أمل أن يمر بي بهجت في أقرب فرصة ليصطحبني مجدداً إلى المقهى.

وعد يفترض بي ألا أعوّل عليه كثيراً؛ فقد عرفت الرجل: لا يلتزم بوعد لا يمليه عليه مزاجه؛ يغيب شهوراً ليقتحم عليّ البيت ذات يوم على غير توقع وقد قرر اصطحابي إلى مكان ما: حفل موسيقي، أو معرض تشكيلي، أو عرض مسرحي، أو جلسة شراب.

كان عليّ الاكتفاء بمتابعة أخبار المقهى عن طريق الهاتف النقال وذلك بالاتصال ببعض الأصدقاء، مثل الأستاذ حسيب رجب أو هاني الأحمد أو أمجد سالم، في انتظار أن يصبح في وسعي الذهاب إلى هناك – فضلاً عن الذهاب إلى الدائرة – حينما يصبح في وسعي "المجازفة" بالتوجه بسيارتي إلى إحدى محطات الوقود التي كان منظر الحشود المتقاتلة عليها، بعد فتحها مجدداً، يصيبني بالقشعريرة. وفي انتظار أن تتحقق هذه "المعجزة" تلقيت اتصالاً هاتفياً من الأستاذ حسيب نضح، كما هو متوقع، بكل مرارات الكون.

ثرثر طويلاً عن معاناته في البيت وفي السوق وفي المقهى، مطعّماً تلك الثرثرة بسؤال يتيم بقي يكرره بين فينة وأخرى:

– أتسمعني يا أستاذ؟

وحين أطمئنه إلى أنني أسمعه بشكل جيد – وهذا أمر يخالف الواقع؛ فشبكة الاتصالات بلغت من السوء أنها كانت تجهز على نصف كلامه – كان يواصل شكواه هذه المرة من جملة أمراض أخذ يعاني منها في الآونة الأخيرة.

هكذا واصل اتصاله الهاتفي مجهزاً بذلك، دون شك، على رصيده قبل أن يصل إلى "مسك الختام":

– أتدري يا أستاذ؟ لقد مر على المقهى شخص ألحّ في السؤال عنك.

وحين استفسرت عمّن يكون هذا الشخص؟ اعترف ببلادة تبعث على الجنون بأنه فاته سؤاله عن اسمه، فعدت أسأله إن كان قد زوده برقم هاتفي النقال؟ فصاح بطريقة جعلتني أسارع إلى إبعاد الهاتف عن أذني:

– عيب يا أستاذ... عيب؛ كيف يخطر لك لحظة واحدة أنني قد أسمح لنفسي بتزويد كل من هب ودب برقمك؟ عيب يا أستاذ؛ فذلك لن يحدث دون استئذانك!

شكرته على حرصه بطبيعة الحال لاعناً إياه في سري لحذره المبالغ فيه من أمر لا يتطلب كل هذه الحيطة؛ إذ من المؤكد أن رقم هاتفي البائس لا يمت بصلة إلى "البنتاغون" ليتطلب كل هذه السرية والتكتم!

– بيد أن المهم هو أنني دوّنت – وبإلحاح منه – رقم هاتفه.

طمأنني الأستاذ حسيب بذلك الكلام مانحاً إياي فرصة ذهبية لتبديد ساعات أيامي المملة وأنا أحاول الاتصال بهذا الرقم المجهول، ولكن دون جدوى؛ فقد بدا صاحب ذلك الرقم وكأنه يسكن على كوكب لم يكتشف بعد يقع عند أطراف مجرة "درب التبانة"؛ ذلك لأن أقصى ما كان

يتناهى لسمعي، لحظة حصول الاتصال، لم يكن يتجاوز أصوات ذبذبات مبهمة تتخللها موسيقى فلكية من النمط الذي كان يواكب مسلسلات الخيال العلمي، حتى إنني اضطررت، بعدما نفد صبري في إحدى المرات، إلى أن أفرغ في الهاتف كل ما تعلمته من أبجديات الشتائم واللعنات، فإذا بي أفاجأ بصوت مألوف يسألني من الطرف الآخر عمن أكون؟ وحين عرفته بنفسي جاءني صوت يحيى شفيق من بعد سحيق:

- أين أنت يا أستاذ؟

انطلق بعدها يحدثني عن عدد المرات التي قدم فيها إلى بغداد ليعرج من فوره على مقهى "الشابندر" أو الدائرة على أمل لقائي، فاعتذرت إليه لتسببي في معاناة له دون علمي موضحاً أنني، وبسبب الأوضاع الجديدة، أكاد ألازم بيتي. لكن يحيى عاد يقترح عليّ فكرة اللقاء في زيارته المقبلة إلى بغداد، فاعتذرت إليه مجدداً داعياً إياه إلى إرجاء هذا اللقاء ريثما يتسنى لي الوقت اللازم لتجميع بعض الكتب له كما كان شأننا في الماضي، ففوجئت به يصيح في الهاتف:

- لا تتعب نفسك بتجميع الكتب؛ ذلك لأنني صرفت النظر عن استنساخها.

- ومكتب الاستنساخ؟

- عن أي مكتب تتحدث يا أستاذ؟ فقد نُهب وأحرق ونحن رهن التوقيف في السرداب، وقد يكون لرياض يد في الأمر... وعلى كل حال سأحدثك بتفاصيل الأحداث بعد لقائنا.

وحين عدت أطلب منه تأجيل هذا اللقاء بعض الوقت حتى تستقيم الأمور سألني ببلادة كادت تصيبني بمس من الجنون:

- وأية أمور هي تلك التي تنتظر لها أن تستقيم؟

فأجبته بيأس:

- آلاف الأمور... ومنها مثلاً أن يتسنى لي تزويد سيارتي بالوقود دون أن أخوض مباراة في اللكم والركل!

- ولم لا تعبئها بالوقود الذي يباع على أرصفة الشوارع؟

- لأنه يباع عادة بأسعار تجارية لا طاقة لي عليها فضلاً عن احتمال كونه مغشوشاً؛ إذ يضاف إليه الماء أو مواد أخرى لا علم لي بها!

- في وسعك إذن القدوم إلى المقهى بسيارة أجرة.

- يبدو أنك تجهل المبالغ التي يتقاضاها سواق سيارات الأجرة هذه الأيام!

- يمكنك أن تؤجر سيارة على حسابي.

فاجأني يحيى بهذا الاقتراح؛ فسألته بنبرة جارحة وقد تذكرتُ عقدة حياته المتعلقة بحاجته الأبدية إلى المال:

– ألا تخبرني بسر لهفتك للقائي وقبلها سر كرمك الحاتمي هذا؟ أتكون قد أصبحت من ذوي الشأن في العهد الجديد لارتباطك بصلة ما بـ"غارنر" أو بخلفه "بريمر"؟!

– أعوذ بالله!

أجابني ضاحكاً ليردف أن لديه الكثير ليحدثني به؛ فمدينة الأسلاف تمر بتحولات عجيبة لا يصدقها العقل!

واستطرد مؤكداً أنه يعيش الآن فترة رخاء بعدما امتهن مهنة تدر عليه الذهب، فقاطعته سائلاً إياه بغلظة:

– أيعقل أن تكون قد التحقت بركب علي بابا؟!

فاستعاذ بالله مجدداً ليسألني بعدها معاتباً:

– أيخامرك الظن لحظة واحدة أن أنحدر إلى هذا الدرك وأنا تلميذك النجيب ربيب الكتب والثقافة؟!

وأضاف شاحذاً فضولي:

– المهنة التي أمارسها الآن توفر لي الكثير من النقود، لكنها، في الوقت نفسه، قد توردني حتفي في أية لحظة!

– ألا تكشف لي سر هذه المهنة العجيبة؟

– سأكشفه عن طيب خاطر حينما نجدد لقاءنا في بغداد!

أنهى اتصاله بذلك الكلام ليعيد طرحه، على امتداد الأسابيع اللاحقة، بصيغ وأساليب ماكرة كانت تزيد من شحذ فضولي ولاسيما زعمه أن ما يخشاه حقاً هو أن يصلني خبر نعيه قبل أن يتحقق ذلك اللقاء!!

وصادف أن حصل واحد من تلك الاتصالات وأنا محشور أمام إحدى محطات الوقود في طابور سيارات لا أول له ولا آخر؛ فبشّرته بقرب "الفرج"!

وأضفت مؤكداً أن ما دفعني لخوض هذه "المعمعة" يعود للهفتي للقائه قبل أن يسبقني خبر نعيه، فطمأنني ضاحكاً أنه سيحرص على الإبقاء على حياته حتى يتحقق ذلك اللقاء، نصحني بعدها بضرورة الاحتفاظ بأعصابي باردة وسط تجمّع فوضوي على هذه الشاكلة يحفل عادة بكل المنغّصات.

والحق أن انتظار حلول دوري لملء سيارتي بالوقود كان مثيراً للأعصاب؛ فبقدر ما كان بعض أصحاب السيارات يكتفون بالتنفيس عن غضبهم بالإمعان في التدخين أو التحفز للعراك لأتفه سبب، كان آخرون يصيحون مرددين بتهور شتائم مبهمة بحق من ورّط "العباد" بهذا البلاء.

وعلّق أحد الحضور في محاولة منه لتهدئة الخواطر:

– صلوا على النبي يا جماعة؛ إذ علينا التجمّل بالصبر؛ فالتمتع بالديمقراطية المنتظرة يتطلب بعض التضحية.

فانبرى له على الفور رجل بطين ببنطال جينز ملطخ بالدهان، كان يستميت لدفع سيارته بعد استهلاك آخر قطرة وقود فيها، وسيول العرق تتصبب من كل جزء فيه:

– تعال وتسلّم ديمقراطيتك المحروسة من ....

وشفع صراخه بصفع عجيزته التي ضاق بها البنطال.

كان ما يحيّرني هو سر هذا البطء القاتل الذي يتحرك به الطابور؛ فملء خزان سيارة بالوقود لا يتطلب كل هذا الوقت!

ترى أثمة عائق عند مضخات الضخ يحيل بين السيارات وملء خزاناتها بالطريقة المعهودة؟

لغز لا سبيل إلى فك سره إلا بالوصول إلى ذلك الموضع، وهنا تكمن المعضلة؛ إذ لم يكن مفر من التجمل بالصبر وتشغيل السيارة وإطفائها عشرات المرات حفاظاً على آخر قطرات الوقود التي كان الخزان الخاوي يجود بها قبل الوصول إلى هناك، حتى إذا ما حلّ عليّ الدور رأيت "الملحمة" عياناً، وبذلك أسقط في يدي؛ فالوصول إلى تلك البقعة العتيدة التي تلطخت بالزيت من أدناها إلى أقصاها لم يكن يعني تحقق "معجزة" الخلاص؛ فثمة سيارات تنزلق، على غير توقع، من خارج الطابور من اليمين والشمال لتتقدم – برعاية الحراس المزودين بـ"الكلاشنكوفات" والمسؤولين عن تنظيم التوزيع العادل! – سيارتي نحو المضخات، وهناك صبيان بالدشاديش والمنامات ينبعون أمامي وكأنما من باطن الأرض، وكل واحد منهم يحمل خزاناً بلاستيكياً بحجم كارثة سرعان ما يملأه ليرزح تحت ثقله وهو يحمله إلى رصيف الشارع ليصفّه جنب خزانات سبقته ليبيع الوقود على هواه بأسعار تجارية!

وكانت هناك سيارات تستغرق عملية ملئها بالوقود العمر كله، وحين سألت عن سر ذلك؟ جاءني الجواب بأن تلك السيارات تعود إلى "البحّارة"!

– وهل هذه المحطة ميناء ليزاحمنا البحارة عليها؟!

تساءلت ببراءة، فجاءني الجواب على شكل ضحكة متهكمة مشفوعة بتوضيح ساخر مفاده أن لفظة "البحارة" مصطلح جديد يطلق عادة على صنف من السواق حوّروا خزانات سياراتهم بالطريقة التي تجعلها تستوعب أضعاف الكمية المعتادة من الوقود!

وهكذا تسنى لي، ذلك اليوم، أن أضيف مصطلحاً جديداً إلى "معجم الاحتلال": فبعد مصطلح "الحواسم" الذي يطلق على لصوص الوزارات والدوائر الرسمية، ومصطلح "القفّاصة" الذي يطلق على مجاميع يعمدون إلى افتعال معركة وهمية على مرأى منك لغرض استدراجك

للتدخل لتهدئة الخواطر لتكون النتيجة سرقتك، ومصطلح "العلّاسة" الذي يطلق على الوشاة بين الأطراف المتنافسة، ها هو مصطلح "البحارة" يشرّف ذلك المعجم!

***

في اليوم التالي التقيت يحيى شفيق، وهذا تاريخ لن يغيب عن ذاكرتي أبداً؛ ذلك لأنني لم أولِ ما حدثني به يومذاك الاهتمام الذي يستحقه إلا بعد وقوع المأساة!!

اتفقنا، عن طريق الهاتف، على اللقاء في الدائرة التي أعمل محرراً في إحدى مجلاتها. وعلى امتداد الوقت الذي استغرقته رحلتي إلى هناك دأب يحيى على الاتصال بي كل بضع دقائق مستبطئاً إياي، حتى اضطرني في النهاية إلى أن أصيح به مؤنباً:

– ما الذي دهاك؟ ألا تدعني أقود السيارة بسلام لاجتاز هذا الطريق اللعين الملغوم بأرتال المدرعات الأمريكية؟

والحق أنني كنت قد أخطأت لعدم امتثالي لنصيحة زوجتي بضرورة سلوك الشوارع الداخلية عوضاً عن الخط السريع الذي تعددت عمليات المقاومة عليه لكونه مكشوفاً يسهل فيه اقتناص أهداف ثمينة.

وجاء اختياري لهذا الطريق لانسيابيته وخلوه من الاختناقات المرورية، فضلاً عن كونه يمر بمناظر ريفية وحقول زراعية وبساتين تذكّرني بالريف المحيط بمدينة الأسلاف.

وكان هذا الخط يمر خارج المدينة على شكل شبكة طرق مسيّجة تتخللها جسور وقناطر تنتهي شمالاً ببوابة بغداد حيث ينحرف يميناً نحو جسر المثنى – آخر جسور بغداد – تاركاً الطريق القديم المتجه نحو سامراء والموصل.

بيد أنني سرعان ما أدركت خطأي في سلوكي ذلك الطريق؛ فكل بضعة كيلومترات كنت أمر بهيكل سيارة متفحم مهمل وسط بقعة زيت تخلّفت بفعل عملية استشهادية. وكانت هناك أرتال المدرعات الأمريكية التي لا تكف عن التلاحق؛ مما كان يدفع بي إلى أن أركن سيارتي، أسوة بالسيارات الأخرى، إلى جانب الطريق في انتظار مرور ذلك الرتل متجنباً طلقة محكمة التسديد قد يستهدف بها أحد الأمريكيين رأسي.

حين ارتقيت بسيارتي آخر القناطر القائمة قرب دائرتي التفت من فوق حدبتها يميناً متأملاً، من ذلك الارتفاع، مجموعة القباب الزرق الصغيرة التي تعلو مرافق تلك الدائرة المصممة، وسط خضرة الحدائق، على شاكلة الطراز الإسلامي المزدان بالأقواس والأعمدة.

كان من المبهج حقاً ألا أرى أثراً لدخان الحرائق يعلو تلك القباب؛ فدائرتي كانت من جملة دوائر قليلة نجت من ذلك المصير.

لم أكد أركن سيارتي في الساحة الخالية التي تتقدم الدائرة حتى رنّ هاتفي من جديد، فسارعت إلى إغلاقه لأدلف إلى غرفة الاستعلامات وأنا أغالب غضبي بصعوبة، بيد أنني

سرعان ما نسيت كل شيء لحظة فوجئت بيحيى ينهض عن أحد الكراسي ليستقبلني بالأحضان؛ ذلك لأن الرجل لم يكن يمت بصلة إلى يحيى القديم الذي أعرفه جيداً: فعوضاً عن ملابس "البالات" المتنافرة بألوانها وتقليعاتها "السريالية" كان يرتدي بزة رمادية اللون مصممة على أحدث طراز، تزدان بربطة عنق زرقاء مثبتة إلى القميص الأبيض بدبوس ذهبي، وثمة نظارة طبية مستقرة على منبت أنفه بأناقة طالعتني، من خلال عدستيها، عيناه الباسمتان!

تراجعت، وسط حيرة موظف الاستعلامات، خطوتين إلى الوراء لأتأمله بنظرة غير مصدقة، في حين اكتفى يحيى بترديد مثل شعبي وهو يربت على أحد جيوبه:

– "الفلوس تجيب العروس"!

فعلقت بدوري وأنا أتقدمه دالفاً من خلال الباب الآخر المؤدي إلى داخل الدائرة:

– آمل أن تكون "فلوسك" تلك نظيفة لا تمت بصلة إلى فلوس هذه الأيام الملوثة.

– اطمئن؛ سأحدثك بكل شيء لتتأكد أنني، كما أخبرتك في أحد اتصالاتنا الهاتفية، سأبقى تلميذك النجيب.

سألته، وأنا أقوده عبر الممر الذي تحف به الأشجار وأحواض الزهور والورود، عما دعاه إلى مطاردتي باتصالاته الهاتفية كل بضع دقائق؟ ففاجأني بقوله:

– إنه موظف الاستعمالات.

– وما علاقة ذلك الرجل الطيب بهذا الأمر؟

– لقد بقي، طوال جلوسي، يرمقني بعينين قلقتين تقطران شكاً وريبة!

توقفت لأتأمله لحظات سبقت انفجاري في الضحك؛ فذلك الموظف المسكين كان أحول، لا يستطيع تركيز عينيه المريضتين إلا بصورة جانبية تثير حيرة من يجهل العلة التي يشكو منها!

حين أخبرت يحيى بذلك انطلق يقهقه بدوره ناعياً غباءه لعدم تنبهه إلى هذا الأمر.

كانت الدائرة تكاد تكون خالية، تطالعنا الغرف، المتراصفة على جانبي الرواق ذي السقف الخفيض، بمكاتبها وكراسيها وصور رئيس الجمهورية التي لم تكن قد رفعت بعد عن الجدران.

في غرفة التحرير التقيت زميلاً، اعتاد ملازمة الدائرة على مدار أيام السنة لقرب بيته منها، بادرني بقوله حال انتهائه من معانقتي:

– ستلغى بعض المجلات، وستستحدث مجلات أخرى.

وأضاف وهو يدلف جالساً خلف مكتبه:

– هذا إن لم تلغ الدائرة كلها؛ إذ ما الحاجة إلى ثقافة بليدة أوصلتنا إلى ما نحن عليه الآن؟!

لم تكن بي رغبة بالجدال في مثل هذا الصباح التعيس، فاكتفيت بسؤاله – وأنا أشير إلى الصورة التي تعلو رأسه – عن مغزى إبقاء صور رئيس الجمهورية معلقة على الجدران حتى الآن؟

– لا بد من صدور أمر إداري بذلك.

أجابني بمنتهى الجدية، فحملقت فيه بنظرة غير مصدقة وثبت بعدها ساحباً يحيى من يده لنغادر الغرفة قبل أن تفلت مني كلمة نابية قد أندم على صدورها فيما بعد.

كنت متلهفاً لأسمع من يحيى آخر أخباره؛ فانفردت به في "غرفة التنضيد" الواسعة التي هي أشبه ما تكون بقاعة.

جلسنا على أريكتين تجاوران نافذة عريضة تشغل الجدار كله تطل على الأشجار وأحواض الزهور والورود حيث أعداد قليلة من العاملين في الدائرة كانوا يظهرون بين فينة وأخرى وهم في طريقهم للدخول أو الخروج.

– أتتذكر نظارتي الشمسية التي كانت مصدر استيائك الدائم؟

سألني يحيى وقد انشغل بتنظيف عدستي نظارته، فأجبته ضاحكاً:

– ومعها أتذكر تحججك بحساسية عينيك من ضوء الشمس.

فأجابني وهو يعيد النظارة إلى موضعها:

– لم أتحجج بتلك الحساسية كذباً؛ إنما كنت أشكو من علّة حقيقية أنقذني طبيب العيون منها بوساطة هذه النظارة.

وعاد يسألني وهو يجيل بعينيه على ما حولنا من كراسي وأرائك منجّدة وخزانات كتب ومكاتب تعلوها أجهزة "كومبيوتر":

– ألا تخبرني بسر إفلات هذه الدائرة – بكل ما تحتوي من لقى ثمينة تدر لعاب اللصوص – من عمليات السطو؟!

– ذلك لأن العاملين فيها تكفلوا بحمايتها بأنفسهم، معتمدين في ذلك على أسلحتهم الشخصية.

– ولكن أغلب دوائر الدولة سرقت من قبل العاملين فيها؛ خذ أعضاء "اللجنة الأولمبية" في الأسلاف مثلاً: فهم لم يكتفوا بإفراغ البناية ذات الطبقات المتعددة من محتوياتها فقط، بل عمدوا إلى انتزاع الأبواب والشبابيك من مواضعها ليبيعوها علناً دون حياء أو خجل!

واستطرد متحدثاً بمرارة عن "ميثاق شرف" أبرمه هؤلاء اللصوص بينهم نصّ على أنه "يحق" لكل مجموعة منهم الاستيلاء على ممتلكات الدائرة التي تخصهم دون الدوائر الأخرى!

– ولم تقتصر عمليات السطو على الدوائر وحدها؛ بل شملت معسكرات الجيش العراقي المنتشرة على امتداد الطريق الذي يفصل المدينة عن خط بغداد البصرة، حيث مختلف أنواع الأسلحة والذخائر – فضلاً عن الدبابات والمدرعات – تركت مبعثرة على امتداد عشرات الكيلومترات... كان بحراً من الأسلحة تبخر خلال أيام؛ فسيارات الحمل والجرارات الزراعية، بل الدواب أيضاً بقيت تتقاطر على تلك المعسكرات المهجورة لتغترف من ذلك البحر تباعاً في تجارة راجت سوقها في أكثر من موضع من المدينة، حيث المهربون والوسطاء كانوا يدفعون بسخاء لقاء كل ما يقع تحت أيديهم ليصدروه بالنتيجة عبر الحدود!

– وأنت؟ أين دورك في هذه الملحمة؟ فمن الواضح أنك جازفت بحياتك وسط الذخائر والأسلحة لتوفر لنفسك "الفلوس التي جلبت لك العروس"!

– كما أخبرتك أكثر من مرة: لم ألوث يدي بمدها إلى المال العام، إنما فضلت على ذلك المجازفة بحياتي لقاء انتزاع ما يسعني انتزاعه من بين فكي الموت؛ وذلك بتفكيك الألغام!

– لا يسعك إقناعي بأن تغيّر وضعك من حال إلى حال حصل بسبب تفكيك الألغام!

قاطعته معترضاً؛ إذ بات من المعروف أن تفكيك الألغام لم يعد يدرّ ذهباً كما كانت الحال عليه قبل الاحتلال حينما كانت الجهات المعنية تشجع على ممارسة هذه المهنة كسراً لحصار الأسلحة المفروض عليها؛ فكان الشباب المغامرون يتزاحمون على الأرض الحرام التي عمد الجيشان المتقاتلان، على مدى سنوات الحرب، إلى زرعها بملايين الألغام التي بقيت غالبيتها مدفونة برغم مرور أعوام على انتهاء الحرب: تجرف السيول الموسمية أعداداً منها نحو البحيرة التي بات الجميع يدركون أن عدد الألغام الذي تحتويه قد ينافس عدد أسماكها!

أجابني يحيى وهو يهزّ رأسه مؤيداً:

– لا بطبيعة الحال؛ فقد بارت سوق تفكيك الألغام فلم يعد الشباب يجازفون بممارسة هذه المهنة التي قد تودي بحياة بعضهم أو تبتر أطراف آخرين بسبب اقتراف هفوة لم يحسب لها حساب...

عدت أقاطعه مستاء:

– فما الذي اضطرك إلى ممارسة هذه المهنة في غير أوانها إذن؟!

– ليست هذه المهنة سوى الوسيلة التي مهّدتْ لي السبيل للشروع في العمل الذي كفل لي حياة رغيدة بعد طول انتظار!

أجابني راجياً إياي إمهاله لحظات ليتسنى له الوقت اللازم لإيضاح الأمر. واستطرد بعدما تلمّس ربطة عنقه وتأكد من موضع الدبوس:

– لقد أغلقت الأبواب كلها في وجهي عقب نهب مكتبي وإحراقه من قبل مجموعة ملثمين لا يبعد أن يكونوا من رجال رياض؛ ذلك لأن أكثر من واحد شخّص بينهم – وبرغم تلثّمهم – حارسيه التوأم.. لقد أجلسوني بعملهم هذا – كما يقول المثل – على الحديدة، تاركين إياي أستعيد طفولتي البائسة ومرارة أيام الجوع حين كان المرحوم أبي يتراقص كالبهلوان وسط أوانيه النحاسية البائسة وهو يعمل طوال ساعات اليوم على جليها لقاء مبالغ زهيدة لم تكن توفر لنا لقمة الخبز إلا بمعجزة.. تذكرت كل هذه الأمور؛ فلم أملك إلا المجازفة بممارسة هذا العمل المحفوف بالمخاطر.

واستدرك مبتسماً:

– أتدري؟ لقد لازمتني فكرة الموت طوال عملي في تفكيك الألغام؛ فمع كل لغم أنجح في انتزاعه كنت أفكر بك أنت يا أستاذ يوم تسمع بخبر تناثر جسدي إلى أشلاء، مطمئناً إلى أنك ستغفر لي نهاية تراجيدية على هذه الشاكلة أسهمت بها في ضمان السلام للآخرين...

– إياك والزعم أن دافعك "الإنساني" وحده كان سبب مخاطرتك بحياتك!

قاطعته محذراً، فأجابني بمنتهى جدية:

– أبداً؛ فتفكيك الألغام كان أمراً لا مفر منه قبل الشروع في إقامة المنفذ الحدودي الخاص بمدينة الأسلاف.

جفلت وقد فاجأني يحيى بهذا الكلام؛ فلم أملك إلا أن أسأله وأنا أغالب دهشتي:

– وما علاقتك أنت بهذا الأمر؟!

– علاقتي تتمثل بالإشراف على تطهير الأرض الحرام قبل الشروع في إقامة المنشآت الخاصة بتنظيم عمليات اجتياز الحدود بيننا وبين إيران.

وسكتَ منتظراً أن أبدي اعتراضاً، وحينما لم أفعل، مكتفياً بالحملقة فيه بحيرة، باغتني بسؤال مفاجئ:

– أتتذكر يا أستاذ قصة "علي بابا" وعبارة "افتح يا سمسم" التي تنفتح بها تلك المغارة المتخمة بكل كنوز الدنيا؟

وواصل كلامه وقد ازداد حماسة:

– عليك بالقدوم إلى ذلك المنفذ الحدودي لتكتشف أن مغارة "علي بابا" تقع هناك؛ فالإشراف على عمليات اجتياز الحدود مهنة تدرّ ذهباً؛ ففضلاً عن تزاحم ذلك الموضع بمئات الشاحنات الإيرانية المحمّلة بمختلف البضائع، هناك طوابير الزوّار الذين يعدون بالآلاف وهم يستميتون لاجتياز الحدود لزيارة العتبات المقدسة!

على هذا المنوال مضى يحيى يحدثني، غير متنبه لي وأنا أتأمله بنظرة غير مصدّقة؛ فثمة ما يريب في الأمر: فالرجل أما أن يكون قد بلغ به الخبث مرحلة بات معها يحاول خداعي بخسة، أو أن براءته جعلته يتورط بلعبة بهذا الحجم يديرها عادة لاعبون كبار مسنودون من ذوي السطوة والنفوذ!

– خبّرني يا يحيى: أتدرك مبلغ المخاطر المحدقة بك وأنت تمارس عملاً على هذه الشاكلة؟

– لست وحدي الذي يمارس هذا العمل؛ فهناك عشرات غيري، بل ثمة من أجّر "بديكارديه" خاصة به!

– "بديكارديه" ماذا؟

– إنهم حراس مزودون بالسلاح ينتمون إلى شركات أمنية تتعاقد عادة مع من ينشد الحماية الشخصية.

كما توقعت؛ يبدو أن الاحتمال الثاني هو الأرجح؛ فاللعبة أكبر من قدرة هذا المسكين الذي يسهل خداعه!

طلبت من يحيى، بكل هدوء، أن يذكر لي اسم واحد ممن أحاط نفسه بهؤلاء "البديكارديه"، فتلفت حوله حائراً قبل أن يذكر اسم نجيب شكري، فصحت وأنا أكاد أثب من الأريكة كالملدوغ:

– تعني نجيب الكذّاب نفسه؟

– إنه يُعرف الآن باسم "الأستاذ نجيب" لا "نجيب الكذاب"!

صحح لي وهو يهزّ رأسه إيجاباً مزدرداً لعابه بصعوبة، فعدت أسأله مؤنباً دون أن تأخذني به الشفقة:

– وكيف تعمل برفقة رجل مثل "الأستاذ" نجيب اعتاد أن يناصبك العداء؟

– إنه لم يكن يناصبني العداء، بل تلك طبيعته: يحب التهريج والنصب والاحتيال وما شاكل ذلك... هكذا خلقه الله!

– كأني بك تدافع عنه؟

– وما أهمية دفاعي عن رجل بات الجميع ينشدون ودّه في هذه الأيام؟

تساءل باستهانة ليستطرد مؤكداً أن أعقد المشاكل تُحلّ الآن بكلمة واحدة من نجيب، فعدت أسأله عن سر هذه الحظوة التي نالها الرجل على غير انتظار؟ فصاح مستنكراً:

– كيف على غير انتظار؟ أنسيت تجنيده في فترة الأسر في صفوف "التوّابين"؟

– وما علاقة ذلك الأمر بعمله في المنفذ الحدودي؛ إذ من الواضح أنه يعمل في الجانب العراقي لا الإيراني؟!

– تماماً، بيد أنه لا بد لمن يشرف على المنفذ العراقي من أن يحظى برضا الإيرانيين؛ لأنه بخلاف ذلك لن يتم التعامل معه.

– أهو المشرف على المنفذ؟

– ومن غيره؟

تساءل يحيى ليضيف معدداً أسماء أبنائه وأقاربه وأصدقائه الذين جنّدهم معه في العمل هناك فضلاً عن حرسه الشخصي، فقاطعته معلّقاً بمرارة:

– هنا مربط الفرس إذن؛ فقد تبيّن لي الآن أن "نجيب" أذكى مما كنت أحسب؛ فقد عرف كيف ينتقي نماذج يتقن كيفية تسييرها بيسر!

– ما الذي تعنيه بكلامك؟

سألني يحيى وقد زوى ما بين حاجبيه استنكاراً، فأجبته وأنا أتأمله بحيرة:

– الأمر خارج عن إرادتي: لا أستطيع أن أثق بهذا الإنسان!

***

والحق أن "نجيب شكري" لم يكن الوحيد الذي أضمرت له تلك المشاعر السلبية؛ فيومها اهتزّت ثقتي بيحيى شفيق نفسه؛ ذلك لأنني خرجت من ذلك اللقاء وقد أيقنت أن صديقي القديم لم يعد كما

عهدته في الماضي نموذجاً للبراءة والتلقائية، إنما بدا كمن ينتهز بدوره فرصته سعياً وراء أهدافه الشخصية وفي مقدمتها إشباع نهمه المتأصل إلى المال.

ومرت شهور بعد ذلك اللقاء بقي خلالها الهاتف النقّال والبريد الالكتروني – الذي أنشأته مؤخراً – وسيلة الاتصال بيني وبينه: لا يكاد يمر أسبوع أو اثنان حتى اسمع صوته عبر الأثير أو أتسلّم منه رسالة وهو يحدثني بحماسته الجديدة عن آخر "فتوحاته" في مجال عمله، مجابهاً تحذيراتي بضرورة التزام جانب الحيطة والحذر بطمأنتي إلى أن الأمور تجري على ما يرام.

وبادرني، في إحدى المرات، بسؤالي بشيء من التردد والحذر إنْ كان يوجد بيت معروض للبيع بالقرب من بيتي؟ وحينما سألته عن مغزى كلامه أجابني مستنكراً:

– ماذا؟ ألا يسعدك أن أغدو جارك؟!

وفوجئت ذات يوم جمعة باتصال هاتفي منه أخبرني فيه بوجوده في بغداد منذ ثلاثة أيام، وحين أبديت له استغرابي لتأخره في السؤال عني حتى الآن تحجج بانشغاله بمهام مستعجلة لا تتحمل الإرجاء، فشكرته لتضحيته بوقته "الثمين" وذلك بتضييع جانب منه معي، فاعتذر لما حصل مؤكداً أنه سيكون في انتظاري في مقهى "الشابندر".

وجدتني زاهداً بهذا اللقاء؛ ذلك لأنني أيقنت يومها أن يحيى ليس أكثر من نموذج لهؤلاء الأثرياء المستحدثين الباعثين على الكراهية و.. الاحتقار!

قضيت وقتاً طويلاً في حلاقة ذقني وارتداء ملابسي وأنا في حيرة من إيجاد الوسيلة التي تكفل لي التنصّل من هذا اللقاء، حتى إذا ما فوجئت بسيارتي لا تستجيب لي حينما حاولت تشغيلها سارعت إلى الاتصال بيحيى لأخبره بالأمر، بيد أنه صاح في الهاتف كالمستغيث متضرّعاً إليّ بضرورة الاستعانة بسيارة أجرة وموافاته في المقهى اليوم. ونوّه بطريقة غامضة باحتمال أن تكون حياته معرضة لخطر ما!

حين وصلت إلى المقهى بسيارة أجرة، وقد قارب النهار منتصفه، لمحت من بعيد، وسط زحام الجالسين، يحيى وقد صوّب عدستي نظارته نحو الباب مترصداً الداخلين والخارجين.

– تفضّل؛ ها هو صديقك الذي سألني عنك قبل مدة طويلة دون أن يذكر لي اسمه.

بشّرني الأستاذ حسيب رجب وهو يفسح لي المجال للجلوس بجانبه على التخت الذي كاد ينوء بأعداد الجالسين لينصرف بعدها إلى متابعة نقاش كان قد احتدم بين أمجد سالم وهاني الأحمد طعّمه الأول بقهقهاته المجلجلة في حين ملّحه الثاني بعباراته النابية!

كان الأول يصر على صحة تلك الشائعة التي انتشرت منذ الأيام الأولى للاحتلال والتي مفادها أن جنود "المارينز" يملكون مناظير خاصة تتيح لهم، أثناء تفتيشهم المنازل، رؤية ما وراء الملابس ولاسيما ملابس النساء، فكان الثاني يسفّه تلك الشائعة متسائلاً عن قيمة مناظير على هذه

الشاكلة لجنود يجدون في متناول "..." مجندات يتقن الاستلقاء على ظهورهن وفتح سيقانهن البيض البضة إتقانهن لإطلاق النار؟!

فكان أمجد يمعن في إثارة صديقه فيسأله هذه المرة، في نيّة مبيّتة لسماع المزيد من الكلمات النابية، عن حقيقة سماح القانون الأمريكي بحرية التزاوج بين الذكور: يتقدم شاب خاطباً صديقه الذي يقاربه في السن، حتى إذا ما حظي بموافقته تم عقد قرانهما في الكنيسة وبرعاية أحد القساوسة؟ فأجابه هاني ببساطة:

– في وسعك، بعد حلاقة شاربيك بطبيعة الحال، خوض التجربة للتأكد من مدى صحة هذا الأمر!

فهدرت الضحكات لحظات، حتى إذا ما هدأت استأنف الجالسون تبادل الأحاديث، متطرقين إلى ذكر آخر الأخبار التي لا تبشّر بخير؛ فالوضع يسير من سيء إلى أسوأ، والأمور تزداد تعقيداً. بيد أن أحد الحضور اعترض مؤكداً أن ما يجري ليس أكثر من سحابة صيف سرعان ما ستتبدد؛ فالأمريكيون أقوى من أن تصرفهم هذه الأمور عن "مشروعهم الاستراتيجي المتعلق بالشرق الأوسط الجديد"، فرمقه الأستاذ حسيب بنظرة ملتهبة تنفث ناراً، وعلّق ساخراً:

– دع سحب الصيف وشأنها يا أستاذ؛ فالأولى بك أن تفتح عينيك على ما يجري حولك لتدرك أن الكارثة قد حلّتْ وأن الجحيم قد فتحت أبوابها شاء الأمريكيون أم أبوا!

واستطرد مبرهناً على صحة استنتاجه بذكر الوقائع التي تذهب إلى ما يقول؛ فبعد مقتل عدي وقصي، في شهر تموز في السنة الماضية، تعاقبت سلسلة تفجيرات في شهر آب بدأً بتفجير سيارة مفخخة أمام السفارة الأردنية، ومروراً بنسف مقر الأمم المتحدة القائم في فندق القناة – حيث كان ممثل الأمين العام للأمم المتحدة من جملة الضحايا – وصولاً إلى اغتيال باقر الحكيم.

وجال بعينيه حوله في انتظار من "يجرؤ" فيبدي اعتراضاً، وحينما اطمأن على أن الجميع في غنى عن التورط معه في جدل قد يتطور إلى التماسك بالأيدي أضاف قائلاً:

– وبرغم أن تلك السنة لم تنتهِ إلا وقد تم إلقاء القبض على صدام حسين – ليُعرض بتلك الطريقة المهينة في التلفاز – إلا أن الأحداث الدموية تعاقبت في السنة اللاحقة بإيقاع أسرع: فبعد التفجيرات التي حصلت في مقر الحزبين الكرديين في أربيل فُجّرتْ مواكب العزاء في الكاظمية وكربلاء في الشهر اللاحق، حتى إذا ما هلّ شهر نيسان، وقبل أيام من حلول الذكرى الأولى للغزو الأمريكي، اندلعت المظاهرات المناهضة للاحتلال في كل من مدينة "الثورة"، وفي النجف، لتتوج تلك التظاهرات بما يشبه تمرد المناطق الجنوبية من البلاد فضلاً عن نشوب معارك حقيقية في "الفلوجة" ضد الأمريكان.

وأنهى كلامه بأن عاد يتهكم من سحب الصيف وتبددها في سماء عراقية تكاد تنفث ناراً ولهباً على رؤوس العباد!

وطوال تبادل تلك الأحاديث بقي يحيى يتململ بجانبي ضجراً ليفاجئني بأن همس في أذني مقترحاً:

– ما رأيك لو انتشلتك من هذا الضجيج بدعوتك إلى أحد المطاعم الراقية؟

وسبقني في مغادرة المقهى واضعاً بذلك إياي أمام الأمر الواقع، فتعقبته مرغماً لأفاجأ به يفتح لي باب سيارة "بي. أم. دبليو" حمراء ضخمة مركونة في صف السيارات الواقفة بإزاء رصيف "القشلة" داعياً إياي لـ"التفضّل" بركوبها!

– ما شاء الله!.. لا شك أن سيارتك هذه من "بركات" المنفذ الحدودي!

خاطبته متهكماً وأنا أدلف داخلاً لأجلس بجانبه، فأجابني وقد انهمك بتعديل المرآة الداخلية قبل أن يشغّل سيارته وينطلق بها بمهارة سائق محترف مجتازاً زحام شارع المتنبي:

– إنها قطرة من بحر!

واستطرد مغيّراً الموضوع سائلاً إياي عن المطعم الذي أقترحه عليه، فأجبته متتبعاً بعيني أصدقائي باعة كتب الأرصفة في سعيهم الأسبوعي لانتزاع لقمة خبز شحيحة لأسرهم:

– لم تترك لي زوجتي، بإصرارها على وجودي في البيت مع كل وجبة طعام، الفرصة اللازمة لتكوين خبرة في هذا المجال.

لكنه أصر على الأمر؛ فعددت له أسماء بعض المطاعم التي علقت بذاكرتي وأشهرها مطعم "الساعة" الذي لمع نجمه خلال أسابيع الحرب، بيد أن يحيى قال إنه يتشاءم من هذا المطعم بسبب استهدافه من قبل الطائرات الأمريكية في حادثة معروفة نجم عنها مقتل أفراد أسر عديدة شاء لهم سوء حظهم أن تكون بيوتهم بجوار ذلك المطعم، فذكرت له أسماء بعض المطاعم الجديدة التي أنشأت في الأعوام الأخيرة في شارع الكندي في منطقة الحارثية مثل مطعم "مون لايت" و"ستي سنتر" و"بيت الفلفل"، وحينما وجدته لا يحبذ التوجه إلى ذلك الشارع المحاذي للمنطقة الخضراء ذكرت له مطعم "فلس"، فتساءل ضاحكاً عن حقيقة وجود مطعم بهذا الاسم؟ فأكدت له الأمر لأعقب بنبرة لماحة:

– ... من الواضح أن سبب اختيار صاحب المطعم لهذا الاسم يعود لحرصه على عدم التنكّر لماضيه!

– وصلت الفكرة!

علق يحيى متجهماً وهو يمر بتمثال الرصافي قبل أن يستدير بسيارته يميناً في اتجاه جسر الشهداء، حتى إذا ما مرت لحظات عاد يكرر سؤاله إنْ كنت قد عثرت له على بيت مناسب بالقرب من بيتي؟ فسألته بدوري عن مبلغ جديته في إلحاحه بطلبه هذا؟ فأجابني أنه بمنتهى الجدية، فعدت أسأله إن كانت لديه فكرة عن أسعار البيوت في مثل هذه الأيام؟ فأفحمني بقوله:

– السعر لا يهمني إطلاقاً؛ فما يشغلني هو السكن في منطقة راقية مثل منطقتك.

عدت أسأله بنبرة متشككة هذه المرة:

– وأسرتك؟ أتصحب "دزينة" قوامها البنات فقط معك إلى بغداد؟

– كلا بطبيعة الحال، بل سأهاجر وحدي؛ فمدينة الأسلاف لم تعد بالمكان الذي يلائمني!

أدهشني تسويغه؛ فلم أملك إلا أن أعلّق ساخراً:

– تعني أنها لم تعد المكان الذي يناسب ثراءك!

أزعجه كلامي؛ فلبث لحظات يسوق السيارة وهو يحاول السيطرة على انفعاله، حتى إذا ما هدأ بعض الشيء أجابني معاتباً:

– يحزنني انطباعك الخاطئ عني بعدما توهمت أنك عرفتني على حقيقتي.

ولاذ بالصمت من جديد. ولم يتكلم إلا بعدما اجتزنا الجسر نحو جانب الكرخ:

– حسن.. سأصارحك بما في نفسي؛ فأرجو أن تحمل ما أقول على محمل الجد.

وأضاف وهو يرمقني بنظرة خاطفة:

– بتّ لا آمن على حياتي؛ فثمة دلائل تشير إلى أنني لم أعد من المرغوبين بهم في مدينة الأسلاف!

– هكذا هو شأن البرجوازي المستجد؛ تكون ثروته مصدر قلق دائم له!

– ألا تكف لحظة واحدة عن الحديث عن ثروتي اللعينة هذه؟

صاح بصوت مدوٍ متجنباً في آخر لحظة الاصطدام بعابر سبيل. لكنه سرعان ما اعتذر، وقد أبطأ من سرعة سيارته، متحججاً بأن أعصابه ليست بالمتانة المطلوبة، فسألته عما يثير قلقه؟ وأضفت حينما رأيته يرمقني باستنكار:

– أعلم أن قلقك، بل قلق الجميع، له ما يسوّغه؛ فاحتلال فظ على هذه الشاكلة يعمد من فوره إلى تفكيك أوصال البلاد، بادئاً ذلك بإلغاء الجيش بجرة قلم، يستدعي الشك والحذر.

– عذراً؛ فقلقي يختلف عن قلقك – أنت الروائي المنشغل منذ سنوات بالإعداد لكتابة رواية تتابع فيها ليس الحصار والاحتلال فحسب، بل المقدمات التي أدت إلى ما نعيشه الآن من خراب – إن قلقي أكثر تواضعاً، إنه قلق إنسان لا حول له ولا قوة يجاهد لانتشال نفسه من مكيدة قد تودي به يوماً ما!

– لا تنس أنني سبق لي وأنْ حذرتك؛ فنجيب الكذاب شخص لا يؤمن جانبه أبداً.

علقت شامتاً، ففاجأني بأغرب جواب:

– قد يكون نجيب آخر من يثير مخاوفي؛ فهناك أكثر من واحد أخذ يناصبني العداء في الأشهر الأخيرة!

– بيد أنك لم تكن حزبياً يوماً ما ليناصبوك العداء الآن!

– ليس الحزبيون وحدهم المستهدفين؛ بل هناك الأطباء والأساتذة الجامعيون والعسكريون السابقون الذين تجري تصفيتهم بشكل يومي كما تعلم... بل حتى الحلاقون تتم تصفيتهم الآن من قبل بعض التنظيمات الأصولية بحجة حلاقتهم لحى عباد الله!

– لا أزال عاجزاً عن فهم سر قلقك؛ فما شأنك أنت بهؤلاء الذين ذكرتهم؟

تململ يحيى وراء مقود سيارته مستاء، حتى إذا ما مرت لحظات مضى يحدثني على مضض عن مجموعات سرية تُعرف باسم "فرق الموت" لا تقتصر مهمتها على تصفية الفئات التي ذكرها، بل تشمل الأخذ بالثأر والانتقام وما أشبه من نوازع بدائية تطفو على السطح عادة حينما يفتقد الأمن.

واستدرك مذكّراً إياي بتلك الأسابيع التي لجأت خلالها بأسرتي إلى مدينة الأسلاف أبّان اندلاع الحرب، وكيف أنه اعتاد تحذيري من أعمال عدائية على هذه الشاكلة.

– لا تبالغ بقلقك يا رجل؛ فما من إنسان في الأسلاف يناصبك العداء أو يطالبك بثأر ما؛ فالجميع يحبونك ويقدرونك.

قلتها محاولاً التهوين من مخاوفه، بيد أنه مضى يعدد أسماء عدد ممن يشك بهم ومنهم أغلب العاملين معه في المنفذ الحدودي دون أن ينسى عطا والشيخ غازي فياض فضلاً عن عدد من المسيحيين الذين يمتّون بصلة قربي إلى "دنيا"؛ فلم أملك إلا أن أعلق ضاحكاً:

– لم يبق إلا أن تضيف إلى القائمة بقية نزلاء السرداب مثل عبودي وموسى الحداد فضلاً عني أنا!!

واستطردت مؤكداً أنه واهم في قلقه؛ فهؤلاء الذين ذكرهم ليسوا إلا مجموعة بائسة قامت بما قامت به تحت وطأة الحصار، فقاطعني مكرراً أن معلوماتي عتيقة لا شأن لها بواقع الحال في الأسلاف الآن؛ فالأمور تغيرت بشكل لن يخطر لي على بال، والأحزاب والتجمعات المدعومة بقوة ميليشيات مدججة بمختلف أصناف الأسلحة تعددت بشكل مخيف!

وسألني على حين غرة وقد عاد يحملق بي:

– ورياض؟ أنسيت رياض صبار بشار؟

– رياض مرة أخرى؟ ألم ينته دور هذا الرجل؟ ألا يزال يصول ويجول في الأسلاف على هواه بحراسة ذينك التوأم؟!

– لا لم ينتهِ، بل لعله ازداد خطورة؛ فهو – كما لا يخفى عنك – من ذلك الصنف الوصولي الذي لا يعدم الوسيلة التي تكفل له حشر نفسه في المقدمة مهما يكن الثمن؛ فبعدما أحيل على التقاعد، فتخلى عنه ذانك التوأم واجدين لهما سيداً آخر من سادة هذه الأيام، وجد في انتخابات المجالس البلدية خير وسيلة لاغتنام الفرصة؛ فقد تم اختياره فيها – شأنه شأن عشرات غيره مثل نجيب شكري وغازي فياض – نتيجة تدخّل سلطة الإتلاف المؤقتة وأجهزة الاستخبارات الأمريكية كونه من الزعماء المحليين؛ وهكذا تم "تمريره" بوساطة فرق الحكم المحلية التي هي خليط من المستشارين والمقاولين

وممثلي الجهة العسكرية، وحين تم اختيار أعضاء مجلس محافظة الأسلاف جاء في مقدمتهم؛ وبذلك دخل من الشباك بعدما طرد من الباب!

– ذلك يعني أنه لم يعد له ثمة مسوغ للإيقاع بك؛ فهناك الكثير مما يشغله الآن!

– و"دنيا"؟ أنسيت أنها كانت سبب مناصبته إياي العداء؟

– وما علاقة رياض بهذه الفتاة المسيحية التي لا حول لها ولا قوة؟

سألته وقد بيّت النيّة، هذه المرة، على كشف سر علاقته الغامضة بتلك الفتاة. ومضى يحيى يسوق سيارته دقائق قبل أن يجيبني:

– الحكاية طويلة يا أستاذ تعود لسنوات خلت لا رغبة لي بالتطرق إليها، وما يسعني ذكره الآن لا يتخطى حادثة معينة ناصبني رياض بسببها العداء.

– أهي الحادثة نفسها التي حاولت أن تفضي بها إليّ ونحن موقوفان في ذلك السرداب اللعين المثقل برائحة الغائط لولا تدخّل نجيب الكذّاب بطريقة بليدة؟

– هي نفسها.

أجابني ليستطرد بعدها قائلاً:

– لقد كان رياض آنذاك مصدر عذاب دائم لـ"دنيا"؛ فبحكم كونه مديرها المسؤول في قسم الأرشيف في المتحف لم يكن يكف عن مطاردتها بشتى الوسائل والسبل حتى اشتهر أمرهما بين موظفات المتحف وموظفيه مما اضطرها إلى الاستنجاد بي بحكم كوني جارها؛ فلجأت بدوري إلى بدر فرهود الطارش للتدخل في الأمر مثيراً بذلك نقمة رياض الذي أخذ يناصبني العداء بعدما استجاب بدر لي بنقل "دنيا" إلى قسم آخر، حتى إذا ما مات بدر وتسلم رياض إدارة المتحف عيّن "دنيا" سكرتيرة شخصية له مغرياً إياها بمضاعفة مرتبها الشهري؛ محاولاً استدراجها للانسياق له بتعهده بالعمل على تعيينها على الملاك الدائم في حالة تمكنها من إصدار وثيقة رسمية بالشهادة الإعدادية التي حصلت عليها منذ أعوام.

وصمت كمن يستجمع أفكاره قبل أن يضيف:

– لقد صدقت المسكينة تعهده ذاك، بيد أن الشكوك بقيت تراودها مما حدا بها إلى أن تزورني في بيتي، معتذرة لزوجتي لاضطرارها إلى أن تطلب مني النصيحة من وقت لآخر.

– وبماذا نصحتها؟

سألته حاثاً إياه على الاسترسال في الكلام، فأجابني بانفعال:

– وبماذا تريدني أن أنصحها وأنا خير من يعرف "رياض" وعربدته في حفلات صاخبة تحييها "الكاوليه" يقيمها في أحد نوادي المدينة أسبوعياً على شرف كبار المسؤولين؟ طلبت منها التزام الحيطة والحذر، مؤكداً لها استعدادي، في حالة تركها العمل في المتحف، منحها مرتباً لا بأس به لقاء العمل معي في مكتب الاستنساخ؛ فهي – كما سبق لي أن أخبرتك – امرأة ذكية ومثقفة في

وسعها اختيار النماذج الروائية الجديرة بالاستنساخ، لكنها شكرتني قائلة إنها ستفكر في الأمر، حتى إذا ما مر أسبوع فوجئت بها تزورني مرة أخرى في بيتي لتسألني إن كنت لا أزال على عهدي لها بالعمل في مكتبي؟ فطمأنتها على ذلك لأسألها بحذر عما استجد من أمر تعيينها على الملاك الدائم؟ فإذا بها تنخرط، فجأة، في البكاء لتعلن، وسط شهقاتها، عن تركها العمل في المتحف. وحين سألتها عن السبب؟ أجابتني أنني كنت مصيباً في تحذيري إياها من نوايا رياض الحقيقية، فعدتُ أحثها، وأنا أغلي غضباً، على مكاشفتي بما حصل، فأخبرتني، وهي تواصل البكاء، أن "رياض" طلب منها ذلك اليوم الانتظار حتى انتهاء الدوام زاعماً احتمال وصول رد الجهة المعنية بتعيينها على الملاك الدائم، فاضطرت إلى البقاء وهي بين الشك واليقين، حتى إذا ما انتهى الدوام وخلا المتحف من آخر العاملين فيه تلفتت حولها لتجد نفسها وحيدة في تلك الغرفة الواسعة الفاخرة الرياش – غرفة مدير المتحف – ورياض قابع خلف مكتبه العريض المثقل بعدد من أجهزة الهاتف وكأنه يخطط لأمر ما، فندبت على نفسها غباءها؛ واستأذنته بالانصراف مرجئة أمر التأكد من تعيينها إلى اليوم التالي، بيد أنه اندفع من خلف مكتبه ليغادر الغرفة طالباً منها الانتظار دقائق ليأتيها بالخبر اليقين، فلم تملك المسكينة إلا التحصن بزاويتها مغالبة وجيب قلبها. ومر وقت طويل حسمت في نهايته أمرها؛ فنهضت وقد عزمت على مغادرة المتحف، لكنها اصطدمت برياض داخلاً ليعمد من فوره إلى إغلاق الباب وراءه بالمفتاح. ودنا منها بوجه ممتقع تتألق فيه عينان زجاجيتان ارتسمت فيهما نظرة تصميم، فوثبت محاولة تخطيه، لكنه انقض عليها من الخلف واحتواها بين ذراعيه وهو يرتجف كمن أصابته الحمى هاذياً بكلام مبهم لا يفقه معناه. ولم تشعر إلا وقد مددها على الأرض الباردة ووجهه الشاحب المخضل بالعرق قريب منها وكأنه أشبه بالقناع، وهي تحاول عبثاً التخلص من أسره؛ فقد أخذ يتحسس بيديه ملابسها محاولاً أن يحسرها عن جسدها معرياً فخذيها اللذين لاحا لها وهي بوضعيتها المخزية تلك، في حين تصاعد لهاثه فوق صدرها، فلم تشعر إلا وهي تعالجه بركلة أصابته في وجهه، فانهار في موضعه وهو يتلوى على نفسه منتشياً ملوثاً الأرض من حوله بالدم!

– وما الذي حصل بعد ذلك؟

سألته وقد غاظني بتره لهذه "القصة" التي طال انتظاري لها، فأجابني بعد إرساله إحدى اللعنات:

– وما الذي تريد أن يحصل أكثر من ذلك؟ لقد اندفعت المسكينة مغادرة المتحف وهي لا تلوي على شيء.

– هكذا... اندفعت خارجة وسعت إليك في بيتك لتخبرك بكل هذه التفاصيل؟!

علّقت مستاء وقد أضجرني تكتّمه المبالغ فيه. وأضفت حين وجدته لا يحير جواباً:

– أنا واثق من أنه لا يسع الزوجة – لا محض جارة مصون – أن تكاشف زوجها بأمور على هذه الشاكلة وبالتفاصيل التي ذكرتها!

– ما الذي ترمي إليه بكلامك هذا؟

سألني وقد زوى ما بين حاجبيه، فأجبته وقد فاض بي الكيل:

– اسمعْ.. يفترض بك أن تحترم ذكائي فلا تتوهم أن في وسعك خداعي بأساليبك المضحكة عن حرصك على صلة الجيرة وما أشبه من هراء؛ فعلاقتك بهذه الفتاة أعمق مما تحاول إيهامي به.

وأضفت مفرغاً كل ما في داخلي:

– من الواضح أن الجميع، وليس رياض وحده، يعدّون هذه الفتاة المسكينة لقمة سائغة سهلة المنال!

فسارع يحيى بإيقاف سيارته وسط الشارع ليسألني مستهدفاً إياي بعينين متقدتين:

– ولماذا يحسبونها سهلة المنال؟!

فأجبته مدركاً بعد فوات الأوان خطيئتي التي لا تُغتفر:

– لكونها مسيحية تنتمي إلى تلك الطائفة الوديعة المسالمة التي لا شأن لها بالأعراف العشائرية الرادعة!

– لن أسمح لك يا أستاذ بتخطي الحدود مهما بلغ احترامي إياك!

فحّ بها من خلال أسنان مطبقة وقد أخذ الدم بالانحسار عن وجهه. وصاح بصوت متهدج وسط عويل السيارات الذي أخذ يتعالى من الخلف بشكل يصمّ الأسماع:

– ثم ما أدراك أنت بالصلة العاطفية التي تربطني بها لتخوّل لنفسك حق الحكم على سلوكي؟!

– إنها ليست صلة ملائكية دون شك!!

قلتها وأنا أبادله نظرة متحدية، فأجابني باحتقار وقد أبيضّ وجهه حتى حاكى وجوه الموتى شحوباً:

– لا تسارع بحكمك على الناس انطلاقاً مما هو مسطّر في كتبك؛ فثمة عواطف ومشاعر إنسانية أكثر عمقاً وبراءة في وسعك الاهتداء إليها بالاحتكام إلى ضميرك!

– فلتلعن تلك الكتب التي علّمتك الحذلقة في الكلام!

صحت وأنا أندفع مغادراً السيارة مصفّقاً بابها ورائي بعنف!

***

هكذا وقعت القطيعة بيني وبين يحيى، قطيعة زادها مرور الأيام رسوخاً؛ فكلما تذكرت منظره وهو يخاطبني من خلف مقود سيارته الحمراء الأنيقة، معيّراً إياي بثقافتي وضرورة احتكامي إلى ضميري، اسودّت الدنيا في عينيّ!

كنت أحاول أحياناً تسويغ ذلك الكلام بالظروف العصيبة التي يمر بها الرجل، بيد أن استعادتي لذلك الحوار المتشنج على إيقاع عويل السيارات كانت تغذي غضبي أكثر.

كان في وسعي – بلمسة خاطفة لرقمه في هاتفي أو عن طريق البريد الالكتروني – إنهاء تلك القطيعة؛ فأنا خير من يعرف مدى طيبة قلبه، لكن اكتشافي المتأخر عمْق سوء الفهم الذي اكتنف

صداقة ملتبسة بددتها بضع كلمات قيلت في لحظة انفعال حوّل تلك اللمسة إلى ضرب من محال؛ ذلك لأنني لم أكن قد اقتنعت بعد بأن يحيى ندّ لي. كنت أنتظر أن يبادر هو بالاعتذار وليست أنا!

وصادف ذات يوم أنني كنت أقود سيارتي في شارع المنصور متجهاً إلى جمعية التشكيليين لحضور أول معرض رسم يجازف عدد من الفنانين الشباب بإقامته بعد الاحتلال، فتوقفت مضطراً عند تقاطع ذلك الشارع مع شارع الأميرات بسبب حادث مروري كاد يتطور إلى ضرب بالأيدي: فوسط تزاحم الناس حول سيارتين سببتا في قطع السير لاحظت أحد السائقين وهو يندفع بتهور نحو خصمه في نية واضحة لضربه لولا تدخل أحد شرطة المرور.

وفجأة، وسط صراخ ذلك الرجل وتلويحه بيديه وهو يتلفت يمينا وشمالا بحركات هستيرية، وعدستا نظارته تسطعان مع كل حركة تصدر عنه، تبيّن لي أنه لم يكن غير يحيى شفيق نفسه!

ولم تستمر تلك المعركة سوى لحظات أنهاها الشرطي بفض النزاع؛ فعاد يحيى إلى سيارته الحمراء "بي. أم. دبليو" – حيث تنبهت إلى وجود امرأة محجّبة تجلس في المقعد الأمامي – ليستدير بها يميناً مغادراً شارع الأميرات متخذاً سبيله في الاتجاه نفسه الذي كنت أنوي سلوكه.

أتكون تلك المرأة المحجّبة التي برفقته هي "دنيا"؟

سؤال خطر لي وقد تجمّدت خلف مقود سيارتي لاعناً ضجة أجهزة التنبيه التي أثارها السواق من خلفي وهم يحثونني على مواصلة السير بعدما حجزت عن سياراتهم الطريق.

انطلقت بسيارتي محاولاً اللحاق بتلك السيارة الحديثة ذات اللون الصارخ – لا أعلم لم ذكّرني ذلك اللون بملابس "البالات" المتنافرة التي ألف يحيى ارتداءها في الماضي! – بيد أنني فشلت؛ فقد اختفت السيارة في زحمة حركة السير الكثيف، فواصلت سبيلي وأنا في حيرة من سر وجود يحيى برفقة صديقته في ذلك الحي الراقي!

لكن تلك الفكرة لازمتني على امتداد الوقت الذي استغرقته جولتي في المعرض التشكيلي المرتجل الذي تحدى به هؤلاء الفنانون الشباب منعهم من استثمار قاعة بناية الجمعية، التي كانت لا تزال مغلقة، بتعليق لوحاتهم على الأرصفة وسور الحديقة والأشجار بطريقة زادت من وقع تلك اللوحات التي جسّدتْ عذابات سجناء "أبو غريب"، وكانت قد مرت شهور على انفجار تلك الفضيحة في وسائل الإعلام العالمية.

كان هؤلاء الفنانون قد أطلقوا على معرضهم اسم "تجليات أبو غريب" مستثمرين تلك اللقطات التي دأبت أجهزة التلفاز في العالم كله على بثها، مضفين عليها دلالات رمزية مستقاة من خزين الفكر الغربي: فقد جسّد أحد الفنانين مثلاً صورة ذلك السجين الذي وضِع رأسه في كيس أسود وقد صالب ذراعيه إلى جانبيه، جسّده بربطه بأبرز رموز الغربيين؛ فقد رسم في خلفية اللوحة أيقونة للسيد المسيح وهو يلفظ آخر أنفاسه على صليبه. وثمة فنان آخر ربط بين ذلك السجين الذي تسحبه مجندة أمريكية بمقود وبين عذابات أحد قديسي العصور الوسطى، أما تلك اللقطة الشهيرة التي رُتب

فيها عدد من السجناء وهم يواجهون عدسة جهاز التصوير بمؤخراتهم العارية فقد ربطها الفنان بعمليات العقاب الجماعي و"الهولوكوست"... وهكذا مع بقية اللوحات.

كان معرضاً مؤثراً هانت معه قطيعتي مع يحيى، بيد أنني لم أغفر له نبذه إياي نهائيا؛ فها هو يصول ويجول بسيارته الحديثة في المنصور في شارع الأميرات – وفي رفقته فتاته – دون أن أخطر له على بال!!

لم يكد يمر شهران أو ثلاثة حتى استجدّ في حياتي ما جعلني أنسى مؤقتاً يحيى ومشكلاته؛ فقد تم التخلّص مني، في الدائرة التي كنت أعمل محرراً في إحدى مجلاتها، بطريقة مهذّبة؛ فبعد أعوام كان لي خلالها مطلق الحرية في الدوام وقتما أشاء فوجئت، ذات يوم، بمن ينوه بضرورة التوقيع على سجل الحضور، حتى إذا مر أسبوع طالبوني مباشرة بضرورة الدوام يومياً، فلم أملك إلا أن ألملم أوراقي وأسلمهم مفاتيح أدراج مكتبي مغادراً إياهم دون وداع: فبرغم حاجتي الشديدة إلى مرتبي من ذلك العمل – ولاسيما بعد إلغاء "بريمر" وزارة الإعلام التي كانت زوجتي تعمل فيها موظفة – توصلت إلى قناعة نهائية بأن عملي في تلك الدائرة بات مستحيلاً؛ فبتسلّم جيل جديد أكثر شباباً وحماسة لـ"التحرير" قيادة الأنشطة الثقافية أمسيت أُعامل كوني من "الحرس القديم": أحسب على الماضي شئت أم أبيت!

وهكذا التحقت مجدداً بأصدقائي كهول الزقاق وعجائزه: أشاركهم يومياً في جلستهم عند "كشك أبو منير" حيث نتداول، مع السجائر وإستكانات الشاي، آخر الأخبار التي لا تبشّر بخير بطبيعة الحال؛ فمنظمة "القاعدة" – كما يؤكد "أبو منير" وهو يمسد لحيته – وجدت في العراق خير ميدان لخوض غمار صراعها المرير مع الأمريكان دون أن يقلقها عدد الضحايا الذين يسقطون "مصادفة" بفعل سيارة مفخخة تُفجّر في هذا الشارع أو حزام ناسف يتشظى في تلك السوق!

وكنا نضرب بالأمم المتحدة مثلاً على النعامة التي تحاول تجاوز المحنة بدفن رأسها في الرمال؛ إذ ما جدوى إرسالها مندوبها الأخضر الإبراهيمي للتشاور بشأن تشكيل حكومة مؤقتة والوضع يزداد تأزماً بين القوات الأمريكية وبعض المدن العراقية مثل الفلّوجة والنجف؟

وكانت أغلب المدن الجنوبية قد انتفضت ضد الاحتلال؛ فاستولى الثائرون في الناصرية والعمارة وكربلاء ومدينة الثورة على مراكز الشرطة والجسور ومباني البلدية. وكانت أخبار معركة الفلوجة قد تصدرت معظم الفضائيات.

ليلاً، وبعدما أملّ من التنقّل بين الفضائيات فأسلّم "الريموت" إلى ندى دون الحاجة إلى مغازلتي بكنية "بابي"، أصعد درجات السلّم إلى الطبقة العليا لأنفرد بمكتبتي "ملجأي الأخير" على سطح هذا الكوكب. وبعدما أستلّ كتاباً من هذا الرف وآخر من ذاك الرف أتهالك جالساً على كرسيّ الدوار لتمتد يدي نحو المصباح المنضدي المهمل على المكتب مضيئة إياه بحركة تلقائية لا أملك لها رداً حيث أجد أرشيف الرواية تحت بصري؛ فأستعيد المعاناة التي تكبدتها وأنا أدبج صفحاته؛ ذلك

لأنه لم يكن من اليسير التعويل على ما احتفظت به ذاكرتي – المترعة بكؤوس الويسكي – من نتف أحاديث لم يكن بدر يجود بها عليّ آنذاك إلا بعد طول معاناة، تاركاً لي مهمة تنظيمها، فيما بعد، بالشكل الذي تغدو فيه مفهومة مع الاحتفاظ بحيويتها!

ومما كان يزيد الأمر تعقيداً اضطراري، مع كل عودة لي إلى بغداد، إلى الاستعانة بكتب التاريخ المعاصر وبالسير الشخصية والمذكرات – دون أن أنسى الرجوع إلى الكتب التي تتناول تاريخ محلات بغداد – لغرض توثيق أحاديث بدر مجنباً إياها، ما وسعتني الحيلة، من الوقوع في التناقض أو الخطأ.

وطوال انشغالي بهذا الجانب كان بدر يبقى على اتصال بي: لا يكاد يمر يومان أو ثلاثة حتى يرتج البيت على رنين الهاتف اللعين؛ فأسارع – وسط تمتمات زوجتي وقد جفلت مستاءة من نومها، وتقلب أطفالي في أسرّة نومهم مضطربين – إلى التقاط السماعة، مخمناً سلفاً أن المتصل ليس سوى بدر؛ إذ كان الوحيد الذي يجرؤ إلى الاتصال وقد تجاوز الليل منتصفه!

وكان يبدأ اتصاله عادة بضحكة ثملة يعقبها بسؤاله التقليدي عن مدى تقدمي في العمل؟ حتى إذا ما طمأنته عاد يطلب مني، هذه المرة، أن أقرأ له مقاطع مما كتبت، مبدياً اعتراضات وإرشادات ونصائح بضرورة ألا أخرج عن "سياق" ما كان يعنيه بكلامه.

وكان يضيف، دون أن يولي ردي عليه أدنى انتباه، أنه يتمنى أن أطبع تلك الصفحات التي انتهيت منها لأحملها معي في سفرتي القادمة إلى الأسلاف لكي يتسنى له التدقيق في كل كلمة وفاصلة وردت فيها!

بتلك الطريقة دأب بدر على تعذيبي حتى اضطرني، في إحدى المرات، إلى أن أكاشفه بحجم معاناتي وأنا أقوّم ذكرياته المشتتة قبل أن أصل بها إلى صيغتها النهائية.

واستطردت في كلام لا يخرج عن ذلك النطاق، مؤملاً نفسي بأنني سأخفف بذلك من غلواء الرجل عساه أن يقلل بعض الشيء من "دلاله" عليّ.

بيد أنني فوجئت به يغرق في ضحكة ثملة جعلته يقع أسير نوبة سعال ما كاد يسيطر عليها حتى سألني دهشاً:

– أيعقل أنني أسبب لك كل هذه المعاناة دون أن أدري؟!

وسرعان ما أضاف جاداً:

– إنها لبطولة لا تحسد عليها وأنت تجاهد من أجل كتابة رواية أدرك جيداً أنها لن تخفف من معاناة أسرتك، هذا إن لم تزد من أعبائها وأنت تسعى لغرض نشرها.

وعاد يسألني بعد لحظات:

– هناك سؤال لا أستطيع الامتناع عن طرحه على نفسي كلما رأيت الدنيا لا تكاد تسعك مع انجاز كل رواية جديدة: ألم تتعب من تعاطي هذه المهنة التي لم تورث لك ولأسرتك – في مثل هذه السنين العجاف – غير الخسران والخيبة؟!

فسألته بدوري:

– وهل تعبت أنت أو ندمت لأنك نذرت عمرك لأجل إنشاء متحف مدينة الأسلاف؟

– الأمر كان يختلف معي؛ فقد شرعت في عملي ذاك وثمة ملعقة ذهب – كما يقال – في فمي!

– محال.. لولا رغبتك في انجاز ذلك العمل الجبار لما قمت به لقاء كل ملاعق الذهب في الدنيا.

وأردفت مستبقاً رده:

– ما من متعة تعادل متعة الخلق والإبداع، بل لا أكتمك أنني أسقط اليوم، الذي لا أبدع فيه، من روزنامة عمري؛ فأحاول تعويضه في اليوم اللاحق بمضاعفة نشاطي!

– أنا أتفهم ما تقول؛ فقد أعدتني بكلامك إلى شبابي وإلى تلك الفترة الذهبية التي عمدت فيها إلى تكوين المتحف وسط معاناة الناس من أعباء الحرب العالمية الثانية.

وأضاف مجاملاً وهو بصدد إنهاء الاتصال:

– على كل حال لا املك إلا أن أدعو ربي ألا يضيع جهدك في زمن لا تكف فيه المطابع عن إصدار الروايات على مدار الساعة.

– آمل أن تطمئن إلى أن ما يؤكد أن جهدي لن يضيع مع الرواية القادمة وجود شخص واحد، في الأقل، يجنبني هذه الخيبة!

– ومن يكون هذا الشخص المحظوظ؟!

– إنه أنا!!

– أنت؟ عجباً!... وما سر حماستك لهذه الرواية؟!

– ذلك يعود ليقيني بوجود وازع أخلاقي يجعل من هذا الإنجاز واجباً لا بد لي من أدائه مهما كلفني الأمر مسوغاً بذلك مغزى وجودي على سطح هذا الكوكب!

فعلق بدر وقد أغرق في ضحكة جديدة:

– يبدو أنك على استعداد لتحمّل مزاجي التعس حتى لو تضاعف سوءاً عشرات المرات سعياً منك لإنجاز روايتك!

– يمكنك أن تطمئن إلى هذا الأمر.

– في هذه الحالة ما سبب تلكؤك في العمل ما دمت متحمساً بهذا القدر؟

– سؤال مهم يفترض بالرواية نفسها أن تكون خير جواب له!!

أجبته منتشياً مساهماً بذلك في إثارة فضوله أكثر؛ فقد بقي، على امتداد ليالٍ، يلاحقني باتصالاته الهاتفية وهو يحاول أن يفهم مغزى جوابي الملتبس، حتى إذا ما وجدني لا أشفي غليله

أخذ يحثني على ضرورة القدوم إلى الأسلاف بحجة أنه سيكشف جانباً مهماً من ذكرياته متطرقاً، هذه المرة، إلى الفترة التي قضاها في بغداد بعد التحاقه بأخيه فرج الذي تكفّل – وبسادية لا يُحسد عليها – بكشف أسرار "شجرة نسبهما" التي تشابكت أغصانها بسبب زواج المرحومة أمهما ثلاث مرات دون أن يخطر لها أنها بعملها ذاك "ستتحف" تاريخ الأسرة بحفيد "بومه" اسمه رياض!

وأضاف في محاولة مكشوفة لحثّي على الإسراع بشد رحالي إلى الأسلاف:

– إنها فترة حاسمة في حياتي جعلتني أعيش تلك الازدواجية التي لم استطع التخلص منها إلا في شيخوختي وبعدما أيقنت من أن الأمريكيين بصدد تكرار التجربة البريطانية باستعمارنا من جديد ممهدين لذلك بفرض هذا الحصار غير المعقول؛ فبرغم افتضاح المخطط الذي كان الإنكليز يسعون من خلاله إلى الاستعاضة عن خسارتهم الانتداب – الذي كشفت ثورة العشرين استحالته – بفرض أول معاهدة عراقية بريطانية تتيح لهم إدارة شؤون البلاد – بما في ذلك تمثيلها في عصبة الأمم – بشكل غير مباشر، بيد أنني تبنيت أفكارهم باندفاع بليد حتى بلغ الأمر بي مجابهة كل من يحاول إثارة تلك الشكوك التي سممت طفولتي – والتي نشأت بسبب ولادتي لأب ثبت عقمه بعد زيجتين سبقتا اقترانه بأمي فضلاً عن زرقة عينيّ مثل عينيّ المستر "تيلر تومسون" الذي اشتهر بوثوق علاقته بأبي – بترديد كلام أحمق عن ضرورة وجود "شيء من نغولة" لدى المبدع ليقدح لديه زناد الفن والإبداع!

هكذا مضى بدر في استدراجي للقائه سريعاً في الأسلاف سعياً منه لكشف سبب ترددي في انجاز الرواية، غير مدرك أنه لم يكن من اليسير عليّ آنذاك أن أكشف له السر؛ وذلك لأن هذا "الكشف" لا يتخطى شعوري المبهم بوجود "فصام" يتمثل بهذه الازدواجية الصارخة التي تفضح نفسها حين أكتشف مذعوراً حرصي على الانطلاق من أكثر المناهج الإبداعية حداثة للكتابة عن بسطاء الناس!

تُرى كيف لي أن أوفق في تجسيد معاناة ضحايا الحروب والحصار بأحدث الطرق السردية إغراقاً في الشكلية والترف الجمالي؟!

كانت ثمة شكوك، لم استطع التنصل منها، أتلمسها في قراءتي لنماذج من الفلسفة المعاصرة؛ فبرغم عشقي لها إلا أن ما كان يصدمني فيها تمثّل بتلك "العدمية" التي كانت تنظّر لها إيماناً منها بأن "الإنسان" أمسى ظاهرة حديثة موشكة على الاندثار!

ولعل ما كان يعمّق تلك الشكوك الاستخفاف الذي كان من المألوف أن تؤخذ بها بعض المقولات الفلسفية مثل شعار "دريدا" الذي بات متداولاً لدى المثقفين: "لا شيء خارج النص"؛ فقد تطرق إليه، ذات يوم، أمجد سالم؛ فقد تساءل بمكر، وهو يدير عينيه الجاحظتين في رواد جلسة يوم الجمعة في مقهى "الشابندر"، عن مغزاه؟ فعلّق هاني الأحمد بكل جدية أنه دون مغزى، وأضاف مسوّغاً رأيه:

– أيعقل أن تكون هذه العبارة ذات مغزى من وجهة نظرنا نحن العراقيين؟ ومعاناتنا على امتداد حرب السنوات الثماني مع إيران؟ وحرب "عاصفة الصحراء" – أكثر الحروب المعاصرة حداثة – ومن ثم الحصار وما سبب من قتل وتجويع وتشريد لملايين الناس، انتهاء بالحرب الأخيرة التي توجت بكارثة الاحتلال، أحدثت كل هذه الكوارث خارج النص؟

فتدخلت – بعد طول تردد – محاولاً أن أوضّح أن "دريدا" لم يعنِ بعبارته تلك ما ذهب إليه الأستاذ هاني؛ ذلك لأن ما كان يرمي إليه يتلخّص بانطلاقه من أن الوجود نفسه نص ولا شيء خارج الوجود؛ فالنص بوصفه بنية ذات علاقات وعناصر متغايرة بات يعطي الوجود بأكمله.

– هل فهمتم شيئاً؟

تساءل هاني وهو يدير صلعته يميناً وشمالاً، فضج الجالسون في الضحك، في حين زاد أمجد سالم الأمر تهريجاً حين صاح بعامل المقهى، وسط نفثتي دخان من نارجيلته، مهيباً به إسعافنا بإستكانات شاي على حسابه شريطة أن تكون من "خارج القوري"!!

***

وكما توقعت: لم أكد ألتقي "بدر" مجدداً حتى بادرني بالاستفسار عن سبب ترددي في انجاز روايتي ما دمت متحمساً لها بهذا الشكل؟

لم اجبه بطبيعة الحال؛ فقد كان عليّ الإبقاء على إثارة فضوله أطول مدة ممكنة مستدرجاً إياه ليسرد لي المزيد من ذكرياته قبل أن أشفي غليله.

ذكّرته بصوت خفيض، وأنا أومئ برأسي نحو رياض المنهمك، قرب المقصف، بإعداد مستلزمات جلستنا، بوعده لي بأنه سيكشف هذه المرة أسرار شجرة نسبهما التي انتهت بحفيد "بومه"!

– أتقصد "رياض" بالـ"بومه"؟

تساءل بدر بخبث وهو يغالب ضحكه، فرفع رياض رأسه عما بين يديه ليردد تلقائياً لازمته المعهودة:

– أنا في خدمتك يا عمي.

فانفجرنا في ضحكة ازدادت استعاراً حين مطّ رياض فمه بابتسامة بليدة وهو يتنقل بعينيه بيني وبين بدر محاولاً أن يفقه سبب مرحنا!

ومضت لحظات وبدر يحاول السيطرة على نفسه، حتى إذا ما هدأ بعض الشيء تمتم لاعناً الشيطان، وأضاف بعدما ما مسح عن عينيه الدموع:

– حسن... لندع المزاح جانباً ولنأخذ الأمر على محمل الجد؛ فبرغم انتهاء شجرة نسبنا بما انتهت إليه إلا أن زواج أمي الثالث اقترن بحدث قلب حياتي رأساً على عقب؛ ذلك لأنه كان أحد أسباب هجرتي إلى بغداد.

وأوضح محاولاً تسويغ طريقته في سردِ الأحداث:

– آمل أن تتحلى معي بالصبر؛ ذلك لأنه لا مفر لي من البدء بالحديث عن هجرتي إلى بغداد قبل التطرق إلى شجرة النسب؛ إذ إن هذه الطريقة قمينة بان تجعل الأمور بالغة الوضوح.

ومضى يتحدث بعدها عن أخيه فرج الذي كان قد سبق له الاستقرار في بغداد منذ عام – سنة ١٩٢٣ على وجه التحديد – على أثر استدعاء المستر "تيلر تومسون" إياه للالتحاق به في تلك الفترة التي كرست السكرتيرة الشرقية "المس بيل" – التي اشتهرت بلقب "الخاتون" – خلالها جهودها الطويلة في النبش عن الآثار لأجل تأسيس أول متحف عراقي.

وكان فرج قد شارك أسرة مسيحية في السكن في واحد من تلك البيوت التي شرعت بالظهور آنذاك على أطراف مزرعة "بستان الخس" التي كانت تقوم في منطقة الباب الشرقي، والتي ستسمى بعد أعوام معدودة باسم منطقة "البتاويين". وكانت غالبية الأسر التي سكنت تلك المنطقة خليطاً من مسيحيين ويهود زاوجوا في بناء بيوتهم بين الطراز الغربي – بالشرفة التي تعلو الباب الخارجي – والشرقي – بالحوش المفتوح على السماء والمحاط بالطارمات والأعمدة تتوسطه حديقة داخلية صغيرة تزدهر فيها شجيرات الورد والريحان – وكان فرج قد اعتاد، في زياراته النادرة إلى الأسلاف، أن يجيب كل من يسأله عن وضعه في بغداد بترديد نصف بيت الشعر:

الماءُ والخضراءُ والوجهُ الحَسَنْ

وكان يضيف منتشياً أن دجلة تقع على مرمى حجر من مسكنه، ورؤوس الخس تطالع عينيه بخضرتها أينما التفت، أما العذارى المسيحيات واليهوديات فيخطرن هنا وهناك سافرات الوجه لا يغضضن الطرف حياء كلما لاحقهن بنظراته؛ بل يتحدينه بنظرات مماثلة!

وجاء التحاق بدر بأخيه فرج في بغداد على أثر زواج أمهما ثالث مرة زواجاً بدا أشبه بفضيحة؛ ذلك لأنها ما اختارت لها زوجاً غير بشّار الذي لم يكن يكبر "فرج" إلا ببضع سنوات، كما أنه كان زميلاً له في العمل؛ إذ كان من ضمن المجموعة التي اعتاد المستر "تيلر تومسون" التعامل معهم في التنقيب عن الآثار خلال سنوات وجوده في الأسلاف، ففضّل استدعاءهم للالتحاق به في بغداد حينما كلّف بالإسهام في إنشاء المتحف.

– لا أزال أتذكّر عصر ذلك اليوم المشهود الذي اقتحم فيه فرج البيت كالعاصفة وكأنه حدث البارحة!

تكلم بدر مستعيداً دقائق ذلك اللقاء بين وأمه وأخيه الذي كان قد قدم من بغداد حال سماعه بـ"الكارثة" وقد عزم على ثني أمه عن إتمام هذا الزواج الذي كان يرى أنه عقد من خلف ظهره.

انتصب فرج واقفاً في مواجهة أمه التي كانت منشغلة بغزل الصوف؛ تبرم رأس المغزل بين إبهامها وسبابتها قبل أن تطلقه ليدور في الهواء محيلاً الصوف الملقى على ظاهر يدها

الثانية إلى خيط، مدندنة لنفسها بإحدى أغنيها التي اعتاد بدر أن يسمعها ترددها كلما كانت منشغلة بالغزل.

وقف فرج فوق رأسها لحظات لاهث الأنفاس، شاحب الوجه، زائغ النظرات، يعجز عن الكلام، حتى إذا ما سيطر على نفسه سألها بصوت راجف وقد أوشك على البكاء:

– أصحيح هذا الخبر يا أمي؟

– أي خبر تعني؟

سألته ببرود قاتل مواصلة غزلها، فقرفص فرج أمامها ليجيبها وقد أخذ يبكي فعلاً:

– زواجك الميمون بأخسّ إنسان على وجه الأرض!

وقبل أن يتسنى لأمه الوقت اللازم للرد اختطف المغزل من كفها ليشمّر به بعيداً وهو يصرخ:

– أنسيت من هو بشار هذا؟ إنه يقاربني في السن، أي أنه بعمر ابنك البكر، أتسمعين؟ ثم إنه لص آثار؛ كان الوحيد الذي يعوّل عليه ذلك الإنكليزي اللعين في تهريب بعض القطع الآثارية لغرض إيصالها إلى بغداد لتتخذ سبيلها فيما بعد إلى لندن، ذلك كان شأنه في الماضي، أما الآن وقد استقرّ في بغداد فقد أضاف إلى "مؤهلاته" تلك السمسرة!.. أتعلمين ما الذي تعنيه هذه الكلمة؟

– لا.. لا أعلم ما الذي تعنيه، وسأعوّل عليك في أن تفهمني ذلك!

أجابته ساخرة وقد نهضت لتعود بمغزلها لتجلس في موضعها مواصلة الغزل، في حين بقي فرج يراقبها لحظات محاولاً السيطرة على نفسه.

– أتدرين يا أمي أن زواجه بك جاء بوحي من ذلك الإنكليزي، بل بتمويل منه بما في ذلك تأجير غرفة له على حسابه في واحد من تلك البيوت القريبة من "الشورجه"؟!

سألها فرج، فتساءلت بدورها وقد سكن مغزلها في الهواء:

– ومن أين جئت بهذه المعلومات؟

– منه هو بشار؛ فقد اعتاد أن يسمعني إياها كلما ثمل، وليس هذا فحسب؛ بل دأب العاملون معنا، ومنذ موافقتك على هذا الزواج المشؤوم، أن يطلبوا مني – بين جادين ومازحين – بأن أخاطب "بشار" بكنية "عمي"!

– وما يضيرك ذلك؟ فسبق لك أن كنت تخاطب المرحوم "فرهود" بـ"عمي"!!

علقت الأم وقد انفجرت مقهقهة، فانقض فرج عليها ليختطف المغزل منها من جديد محطماً إياه، هذه المرة، تحت حذائه وهو يصيح وقد خرج عن طوره:

– لا تكلميني على طريقة العاهرات هذه، آن لك أن تحترمي نفسك بعدما شاب شعرك!

– وأنت.. آن لك أن تتأدب حين تخاطب أمك!

صرخت به وقد وثبت ملتقطة فردة خفها لتضربه بها على فمه، فلكمها فرج من فوره على أنفها؛ فانفجر الدم يتدفق منه كالينبوع!

ووسط اضطراب بدر وحيرته من كيفية التصرف وهو يراقب الاثنين وقد تلطخ وجهاهما بالدم فأخذ أحدهما يكيل ضربات عشوائية إلى الآخر سمع أخاه يردد أغرب كلام عزاه في حينها إلى فقده السيطرة على نفسه؛ فقد انطلق يذكّر أمه، لاهث الأنفاس، بأنه الملوم لأنه ستر عليها فلم يفضحها حين ضبط "تيلر تومسن" أكثر من مرة وهو يتسلل إلى غرفتها كلما تجاوز الليل منتصفه ليلبث عندها حتى مطلع الفجر!!

وفجأة تلفت فرج حوله كمن يبحث، بعينين مجنونتين، عن شيء ما، حتى إذا ما شخص "بدر" قريباً منه انقضّ عليه ليختطفه حاملاً إياه من تحت أبطيه ليرفعه في مواجهة أمه وهو يصرخ بها وكل عصب فيه يرتجف:

– أترينه؟ تطلعي جيداً إلى هاتين العينين الزقاوين!!... من أين جاء بهما هذا المسكين؟ إنهما آثار جريمتك، نشوتك العابرة التي ختمت وجه هذا الصبي بوصمة عار لن تمحى أبداً!!

هكذا حصلت القطيعة الأبدية بين الأم وابنها البكر، لم يلتقيا بعدها قط. ويوم لازمت الأم فراش مرضها الأخير الذي أودى بها رفض الابن الاستجابة لإلحاح الأقارب والأصدقاء بضرورة أن يعودها من باب اللياقة والأصول، مكتفياً بأن يردد:

– أنا غفرت لها، نسيت خطاياها كلها، تاركاً إياها لمن هو الأجدر بطلب العفو والغفران.

بيد أن ذلك ما كان يخالف الواقع تماماً؛ فبدر كان واثقاً من أن أخاه لم يغفر لأمهما في يوم من الأيام؛ فهدفه من الحياة اقتصر على الانتقام منها ما وجد إلى ذلك سبيلاً بادئاً خطته منذ انتقالهم إلى بغداد وسكنهم في إحدى غرف ذلك البيت القريب من "الشورجه"؛ فقد استطاع إقناع "تيلر تومسون" بضرورة أن يشاركه بدر السكن في بيته هو عوضاً عن ذلك البيت وذلك لقربه من "المدرسة الأمريكية" التي كان الإنكليزي ينوي تسجيله فيه والتي كانت قد أوشكت على فتح أبوابها بعد شهور.

وأوضح بدر متحدثاً عن تلك الفترة:

– وقد حصل له ما أراد؛ فدأب، منذ اليوم الأول، على زرع كراهية أمي في قلبي، دون أن ينسى رعايتي دون ملل: فبرغم أنه لم يكن يعدم وسيلة إلا ويستثمرها لمماحكتي، بيد أنه كان يحرص، في الوقت نفسه، على اصطحابي في جولات طويلة في بغداد مبرهناً بذلك عملياً على ميزة مشاركته السكن عوضاً عن السكن عند أمي. وكانت وجهتنا في الغالب "الجادة العمومية" التي عرفت عند افتتاحها باسم "خليل باشا جادة سي" – لتشتهر فيما بعد باسم شارع الرشيد" – حيث يوجد مطعم "الشمس" أشهر مطاعم بغداد.

وعلق ضاحكاً:

– كان فرج مولعاً بأمرين لا يجمعهما جامع: جهاز غرامفون مزود بأسطوانات "بيضافون" تحتوي على أحدث الأغاني الشائعة آنذاك – مثل مقامات القبنجي وعبد القادر الموصلي ورشيد القندرجي ويوسف حوريش فضلاً عن أولى أغنيات أم كلثوم التي بدأ اسمها بالذيوع آنذاك – والأمر الثاني الأكلات البغدادية: يصطحبني صباحاً مثلاً إلى تلك المحلات الصغيرة الملاصقة للمدرسة المستنصرية والمعروفة بعمل أفضل "كاهي".. أو يعرج بي على أشهر صانع "هريسة" في "باب الأغا".. أما الكباب فلم يكن يتناوله إلا في مطعم باقر الإيراني القائم عند مدخل "سوق الصفافير" حيث كنا نتناول مع الكباب الطرشي المدبس وشراب "الإسكنجبيل".. أو كباب "الموله خانه" الذي كان يقوم في مدخل سوق السراي من جهة عقد الصخر والذي يسمى الآن باسم شارع المأمون.

وخلد بدر لحظات إلى الصمت قبل أن يستدرك مذكّراً إياي بأن هذه التفاصيل الجانبية المتعلقة بظروف مغادرته الأسلاف واستقراره في بغداد وما أشبه لم تشغله يوم وصوله قدر انشغاله بملاحقة أخبار تلك المظاهرات التي كانت قد عمت شوارع العاصمة. وكان فرج من أشد المتحمسين لهذا الحدث: يبدو مأخوذاً به كأنه أصابه بالحمى؛ لا تكاد الشمس تشرق حتى ينطلق خارجاً ليختفي طوال ساعات النهار، حتى إذا ما آذن الليل بالقدوم اندفع داخلاً بملابس مبللة بالعرق وعيناه تتألقان حماسة وثمة جريدة ملفوفة تطل برأسها من أحد جيوب سترته.

وكان يشرع في ذرع غرفته جيئة وذهاباً، أو يجلس على طرف سريره ليفتح جريدته بين يديه – وكانت في الغالب جريدة "العراق" المعروفة لصاحبها "رزوق داود غنام" – فيقلب صفحاتها مستاءً لكونها تحبب "المعاهدة العراقية البريطانية" للناس. وكان يقرأ لبدر مقاطع مما منشور فيها ليبرهن على رأيه بتلك الجريدة قبل أن يشمرها بعيداً عنه باشمئزاز، يحدث بعدها أخاه الصغير بكل جدية – وكأنه ندّ له! – عن بسالة تلك الحشود التي تسعى جاهدة للوصول إلى مبنى "المجلس التأسيسي" لغرض منع النواب من إبرام هذه المعاهدة المشؤومة، مجابهة قوات الشرطة والجيش المكلفة بحماية ذلك المبنى بصدور عارية!

وبرغم أن "بدر" كان أصغر من أن يفقه آنذاك مغزى هذه الأمور بيد أن "فرج" كان يحرص على أن يشرح له حقيقة ما يحصل؛ فيتطرق إلى ذكر تقرير قدمته اللجنة الخاصة بالتدقيق في المعاهدة قبل رفعها إلى "المجلس التأسيسي" كشفت به ما انطوت عليه تلك المعاهدة من إجحاف بحق الشعب العراقي.

وحينما كان بدر يجازف بسؤاله عما يدفعه إلى المخاطرة بحياته لأمر لا يمسه من قريب أو بعيد كان فرج يفاجئه بصفعته المعهودة على مؤخرة عنقه ليردد صارخاً:

– الأبقار وحدها لا شأن لها بما يجري حولها ما دامت تعلف جيداً، أما أنا فإنسان.. أم لعلني واهم فيما أقول؟!

وعاد فرج ذات يوم من إحدى المظاهرات وقد علت الكدمات وجهه وتلطخت ملابسه بقطرات دم. وحين سأله بدر قلقاً عما حصل؟ رمقه بنظرات زائغة لجأ بعدها إلى سريره لينال قسطاً من النوم، حتى إذا ما استيقظ بعد ساعة أخبر "بدر" بأنه اتفق مع صاحب البيت على ضرورة عودته إلى بيت أمه القريب من "الشورجه" في حالة حصول أمر ما له!

وبقي على امتداد ساعات ذلك اليوم متحفّزاً قلقاً: لا يكاد باب البيت يطرق حتى يجفل ويهب واقفاً ليصيخ السمع. بيد أن ذلك اليوم مر بسلام، حتى إذا ما قدم الليل ولم يحدث ما يعكّر الصفو انبسطت أساريره فتهيأ لإعداد مستلزمات الشرب اليومية بادئاً إياها بتشغيل جهاز "الغرامفون" تاركاً صوت أحد مطربيه المفضلين يصدح ملء جدران الغرفة لينصرف هو إلى إعداد صحني "الجاجيك" و"اللبلبي" المعهودين. ومع شروعه في ارتشاف أول كأس أخذ يحدث "بدر" عن اصطدام تظاهرة ذلك اليوم بالقوة المكلفة بحماية "المجلس التأسيسي" ورشقها إياها بالحجارة التي جوبهت بإطلاق النار.

ومضى يوضح كيف أن الأحداث احتدمت منذ أيام على أثر دعوة لفيف من المحامين بعض النواب للتجمع في سينما "رويال" حيث ألقيت خطب حماسية فضحت المعاهدة، مؤكدة أن البريطانيين ينشدون من وراء إبرامها جعلها بديلاً عن صك الانتداب، فضلاً عن تخفيض نفقات الاحتلال وما شابه من أمور مذلة أثارت نخوة بعض الشرفاء؛ فعمدوا، وبعد مرور ثلاثة أيام، إلى إطلاق النار على عضوين من المجلس كانا متحمسين للمعاهدة، فبادرت الحكومة إلى إلقاء القبض على عدد من المحامين؛ فأقفلت الحوانيت والمخازن، وانطلقت المظاهرات مستهدفة محاصرة مبنى "المجلس التأسيسي" لغرض منع النواب عن توقيع هذه المعاهدة المجحفة!

وأنهى فرج حديثه مؤكداً أن كل ما يجري يحصل بتخطيط من "المندوب السامي" السابق "برسي كوكس" وخلفه "هنري دوبس"؛ فمنذ اغتيال الوزير توفيق الخالدي في الثالث والعشرين من شباط – وهو أول اغتيال سياسي يحصل منذ تنصيب فيصل ملكاً على العراق – فضح البريطانيون أنفسهم؛ فبعدما استحال عليهم إدارة البلاد بشكل مباشر بعد انفجار ثورة العشرين ها هم يعمدون إلى الدس والوقيعة وصولاً إلى إبقاء الخيوط في أيديهم في الخفاء!

ولاذ بدر بالصمت دقائق بدا خلالها وكأنه يستجمع أفكاره. ولم أنبس بدوري بكلمة إنما بقيت أتأمله في استرخائه في عربته وقد شرع جفن عينه الواقعة في الجانب المشلول بالانسدال. بيد أنه فاجأني بأن صاح على غير توقع وقد دبّت الحيوية فيه من جديد:

– كان ما يدهشني آنذاك – وبرغم صغر سني – هو هذا الضرب من الازدواجية الذي ينطوي عليه فرج؛ فاستقراره في بغداد وتمتعه بخيراتها حصل بسبب علاقته القديمة بالمستر "تيلر تومسون"، الجاسوس البريطاني الذي قدم إلى الأسلاف بصفة منقب عن الآثار ليختفي باندلاع

الحرب العظمى، حتى إذا ما احتلت بلاده العراق ظهر في الأسلاف مجدداً ولكنْ بصفة أول نائب حاكم عسكري على المدينة، فما سر عداء فرج المستحكم للإنكليز؟!

وعاد بدر يمسك عن الكلام مجدداً، وأخذ يبادلني النظر لحظات كأنه يتوقع مني أن أجيبه على سؤاله ذاك، بيد أنني كنت قد ألممت بأساليبه "الملتوية" في استحضار الماضي؛ فلزمت الصمت داعياً الله في سري أن يخرس "رياض" بعض الوقت فلا يتدخل بكلام بليد قد يبدد تلك الفرصة الذهبية للحصول على المزيد من أخبار الماضي. واستجاب الله لي؛ فعاد بدر ليفيض في الكلام منوهاً بأنه لا مفر له من إرجاء الإجابة عن ذلك السؤال إلى الوقت الملائم والانصراف الآن إلى التطرق إلى كيفية نشوء تلك العلاقة الوثيقة بين فرج والمستر "تيلر تومسون"، بادئاً إياها بالحديث عن زواج أمه "شذرة" الأول الذي اشتهر أمره في "الديرة" – هذه التسمية العشائرية التي كانت تعرف بها الأسلاف قبل أن تتحول إلى مدينة متحضرة – فوسط تنافس الشباب – كما اعتادت المرحومة أمه أن تحدثه متباهية – للاقتران بها لاتصافها بجمال نادر في منطقة ريفية عرفت فتياتها – بسبب التزاوج المستمر منذ أجيال بين الأقارب – بكونهن عاطلات عن الجمال برز على غير توقع فتى خامل الذكر كان ينتمي إلى "البربرة" ذلك العرق المحتقر في العشيرة لكونه يرتزق من بيع صيده.

ومضى بدر في سرد ذكرياته بالتطرق إلى تلك الأيام التي كانت القيم العشائرية فيها لا تزال مؤثرة، ليس من اليسير تجاوزها؛ فيوم أُشيع خبر قرب زواج شذرة فوجئ الجميع بمتعب، ذلك الصياد اليتيم الذي عُرف بوداعته، يتنكب بندقيته ليشق سبيله ليلاً نحو بيت شذرة حيث وقف على مقربة من بابه ليطلق في الهواء بضع طلقات معلناً بذلك أنه "ينهي" عن إتمام مراسيم الزواج!

وعلى الفور أُستقبل قرار متعب ذاك بالاحترام المتوقع؛ فقد كان من حقه المطلق – كما تقضي الأعراف العشائرية – إعلان "النهوة" بحكم كون شذرة ابنة عمه، بيد أن ما أثار حيرة الجميع تمثّل بسر توقّف متعب عند تلك الخطوة؛ إذ كان يُفترض به – بعد نجاحه في إعلان حقه – مواصلة الخطوات المعهودة التي تفضي إلى الزواج.

إلا أن ذلك لم يحصل؛ فقد استمر متعب في رواحه فجراً إلى "بزايز الجولان" ليعود عصراً محملاً بصيده من السمك، حتى إذا ما مرت الشهور وأُشيع خبر تقدم خاطب جديد طالباً الاقتران بشذرة لجأ متعب إلى بندقيته مرة أخرى.

على هذا المنوال تعاقبت السنوات، ومعها بقيت بندقية متعب تدوي، كل بضعة شهور، بطلقاتها في سماء "الديرة" وهو "ينهي" الشباب من الاقتران بابنة عمه، حتى اضطر والد شذرة إلى الاختلاء به طالباً منه أما الزواج بابنته، أو الكف عن مواصلة "لعبته" التي باتت دون معنى.

– سأتزوجها حين أعد نفسي لهذا الأمر.

أجاب متعب عمه بجدية تستدعي الجنون، فانقض هذا عليه ممسكاً بخناقه وهو يصيح به بصوت راجف:

– ومتى تعد نفسك؟ بعد الإجهاز على سمك البزايز كله؟

وأضاف وقد تهيأ للانصراف:

– حسن.. سأضع للعبتك نهايتها.. أتسمع؟ سأتحمل صاغراً تكاليف الزواج، سأجهّز ابنتي للأمر خير تجهيز، وكل ما هو مطلوب منك هو التخلص من أسمالك البالية هذه والاستحمام بقليل من الماء، وتشذيب لحيتك وشاربك!

وهكذا تم زواج شذرة الأول؛ وبذلك آن لمتعب أن ينسى بندقيته بعض الوقت لينصرف إلى إحاطة أسرته الناشئة برعايته لاسيما أن عروسه أتحفته، بعد تسعة أشهر، بابنه فرج.

– لعل تلك الأعوام المعدودة كانت أجمل فترة عاشتها أمي؛ فقد اعتادت أن تحدثني عنها، وهي تطلق الحسرات وتمسح بطرف شيلتها الدموع، ملتاعة كأنها كانت حلماً سرعان ما صحت منه على كابوس الواقع؛ فإذا بزوجها الشاب يتنكب بندقيته من جديد استجابة، هذه المرة، لأوامر السلطة العثمانية القاضية بالتحاقه مع مجموعة من الشباب بتلك الحملة التي أُعدّت على عجل لغرض التوجه سريعاً إلى صحراء القصيم!

علق بدر ليستطرد متحدثاً عن ذلك النجم الجديد الذي بزغ آنذاك في سماء الجزيرة العربية: "ابن سعود" الذي اشتهر بجسارة كانت تقترب أحياناً من التهور؛ فبضربة مباغتة لم تكن في الحسبان هاجم بالعدد القليل من رجاله مدينة "الرياض" العائدة لأمير حائل "ابن رشيد"، فاستولى عليها في معركة خاطفة اشتهر أمرها وأضحت حديث المضايف والدواوين.

كان انتصاراً خاطفاً شجع هذا المغامر الشاب على العمل في توسيع نفوذه حتى انتهى الأمر به إلى الاصطدام المباشر بـ"ابن رشيد" في القصيم الواقعة في منتصف الطريق بين الرياض وحائل، فاستنجد ابن رشيد بالدولة العثمانية التي كان حليفاً لها.

وهكذا سرعان ما وصلت الأوامر من إسطنبول إلى بغداد للإسراع بنجدة هذا الحليف المهدد في عقر داره، وكانت النتيجة تشكيل حملة من أربعة أفواج من بطرية مدافع الصحراء تألف معظمها من فقراء العراقيين بعدما افتدى الأغنياء أبناءهم بالليرات الذهبية.

لم تكد تمر أشهر من تلك السنة – ١٩٠٤ – حتى وصلت الأنباء إلى "الديرة" بفناء رجال تلك الحملة وتشتتهم وضياعهم في الصحراء المترامية الأطراف.

– يومذاك أدركت أمي عمق الكارثة التي حلّت بها؛ ففضلاً عن فقدها زوجها باتت موقنة أنه كُتب عليها الترمل إلى الأبد؛ فمن الذي يقرب أرملة فقيرة مثقلة بأعباء طفل في السادسة من عمره يتشبث بأذيال ثوبها أنى تحركت والعذارى يملأن "الديرة"؟

تساءل بدر وقد عاد يتأملني بعينه السليمة مغالباً جفن العين الثانية في استماتته للانسدال، حتى إذا ما مرت لحظات أردف ضاحكاً وهو يلقم فمه بحبة زيتون:

– لم يخطر لها قط وجود رجل يخالف الآخرين في هذا الشأن عادّاً ابنها امتيازاً لا عبئاً؛ ففي الوسع استثماره كأي خادم أو عبد!

وعاد بدر يراقبني بنظرة متحفزة وهو يلوك حبة الزيتون ملتذاً محرّكاً إياها يميناً وشمالاً قبل أن يلفظ نواتها ليضيف مستمتعاً سلفاً بوقع المفاجأة عليّ:

– ذلك الرجل لم يكن غير أبي فرهود الطارش!

وانطلق يقهقه جذلاً مردداً مثلاً شعبياً اعتادت أمه ذكره كلما تطرقت إلى سيرة أبيه:

– "عايش ديم"!

كانت أمه تكرر ذلك المثل لتعقبه بشرح مغزاه ممهدة السبيل لكي تثلب أباه على هواها:

– إنه مثل يُضرب لمن يعيش على حساب الآخرين شأن الفلاح الذي يبذر أرضاً مقطوعة عن الماء معولاً على ما تجود به السماء من مطر.

في تلك الفترة كان فرهود الطارش يعد من أكثر أغنياء "الديرة" ثراء؛ يملك العديد من البساتين والحقول والبيوت، لا شيء ينغص عليه حياته سوى أنه لم يرزق بذرية برغم زواجه مرتين متعاقبتين، فوجد في شذرة النموذج المثالي للزوجة القادمة؛ ففضلاً عن جمالها لا يبعد أن تتحفه بالابن المنتظر بحكم كونها قد سبق لها الإنجاب.

وهكذا، وجد في صلة قربى بعيدة تربطه بشذرة خير عذر للتقرب إليها: لا تكاد تحل مناسبة – عيد الفطر أو الأضحى أو ما شابهتهما من مناسبات – إلا وشق سبيله نحو بيتها وقد أثقل ذراعيه بزنبيلين متخمين باللحم والفاكهة والخضر فضلاً عن قطعة قماش أو شيلة يتأبطها بمنتهى الحرص، مجابهاً قريبته، لحظة استقبالها إياه عند العتبة، بابتسامة هائلة تمتد من أذن إلى أخرى!

– اللهم زد وبارك، يبدو أنك يا فرهود لا تفوت فرصة إلا وتغتنمها لتوزع عطاياك على الأقارب والمعارف!

بتلك الطريقة الساخرة اعتادت شذرة استقباله متوقعة أن تسمع منه جوابه المعهود:

– الخير كثير يا ابنة العم، والظفر لن يتنكر للحم أبداً.

ويتخطاها داخلاً ليركن حمله على الأرض مغالباً لهاثه، في حين تواصل شذرة سخرياتها منه مجابهة بذلك تلميحاته المبطنة بأمنيته بأن يوثق أواصر القرابة بينهما بشكل أعمق، مؤكداً لها حرصه على أن يأخذ بيد ابنها اليتيم فرج ممهداً له بذلك السبيل ليغدو رجلاً يعتمد عليه.

على تلك الوتيرة بقيت لقاءات فرهود تتجدد بشذرة، ومعها اعتاد الاثنان تبادل العبارات نفسها بصيغ وأشكال متعددة كانت تنتهي في الغالب بمغادرة فرهود بيت الأرملة وقد أُلجم وأوقف عند حده.

بيد أنه لم ينهزم؛ فتعاقب السنوات لم يزده إلا إصراراً على التقرّب منها واجداً في ابنها فرج خير وسيلة لهذا الأمر؛ فقد أخذ على عاتقه مهمة تخليصها منه بالالتزام بتشغيله على مدار الساعة: لا يُشاهد فرهود إلا والصبي يتعقبه مثل ظله؛ ينوء تحت ثقل كيس يفوقه حجماً، أو يتصبب عرقاً وهو يجاهد ليوازن خطاه مع ما أثقل به ذراعيه النحيلتين من بضائع ليكافأ، مع أدنى هفوة تصدر عنه، بصفعات رنانة لم يكن فرهود يبخل بها عليه، مجابهاً كل من يعاتبه على قسوته بأنه يكفيه بأنه يقوم بأوده عن طيب خاطر. وكان يضيف دون حياء:

– ثم لا تنسوا أنني من المؤمنين بأن الصفع والركل لن يوديا به، هذا إن لم يقوماه جاعلين منه رجلاً!

وتوّج فرهود "رعايته" لفرج، بعدما كبر بعض الشيء، باقتناء دابة له بات من المألوف مشاهدته معتلياً صهوتها وهو في طريقه إلى البساتين أو الحقول ليعود منها وقد حمّلها بخصاصيف التمر أو سلال الفاكهة أو أكياس الحنطة والشعير.

– هكذا درج فرج على درب صباه قبل وصول البعثة الآثارية.

قالها بدر وهو يجهز على كأسه ليعيدها إلى موضعها فارغة تاركاً لرياض مهمة "تعميرها" من جديد.

– وكان قد سبق تلك البعثة بالقدوم رجل داهية لعب دوراً أساسياً في إثارة الشقاق بين أرباب الأسر الكبيرة المتنفذة في المنطقة؛ فبرغم أن الطابع العشائري كان قد ألغي رسمياً بتحويل "الديرة" إلى مركز ناحية باسم "الأسلاف"، إلا أن الصراعات الخفية كانت تمور في الأعماق في انتظار من يؤججها لتطفو على السطح؛ وذلك ما عمد إلى تبنّيه ذلك الرجل الداهية!

وعاد بدر يبادلني النظر لحظات شاحذاً فضولي أطول مدة ممكنة قبل أن يسترسل في الكلام:

– ذلك الرجل لم يكن سوى... وهنا تبدأ المشكلة؛ ذلك لأنه عرف بأكثر من اسم قبل أن يفتضح – مع اندلاع الحرب العظمى وإعلان الدولة العثمانية النفير العام – على حقيقته؛ فعند قدومه مثلاً عُرف باسم "فوكس وايت"، وسرعان ما اشتهر بلقب "الصاحب"، قبل أن أكتشف، بعد سنوات طوال، أن اسمه الحقيقي هو "تيلر تومسون"، وما "فوكس وايت" سوى التسمية التي عرف بها بين أبناء جلدته لمكره ودهائه!

وعرّج بدر إلى ذكر أسماء بريطانيين وأمريكيين آخرين سبقوا المستر "تومسون" في القدوم على امتداد عقود من الزمن، متخذين صفة منقبي آثار ومبشرين وأطباء وباحثين أنثربولوجيين ومغامرين مأخوذين بسحر الشرق.

– بيد أن البعثة التي ترأسها "تومسون" شكلت ظاهرة ساهمت – برغم ما ذكرت – في تغيير الطابع العشائري لمدينة "الأسلاف" المستحدثة؛ ذلك لأنها ضمت خليطاً من إنكليز وأرمن وأكراد وتركمان

اشتهر منهم مهندس معماري ورسام مختص بقراءة الخط المسماري، فضلاً عن رئيسي عمل كردي وآخر تركماني.

كانت أياماً حافلة انتشلت مدينة الأسلاف الجديدة من رتابة حياتها الراكدة؛ فالتحق العديد من شبابها بالبعثة التي نصبت مخيمها غرباً قرب "تل العاشق"، وبذلك بات من المألوف أن ترى الكردي وهو يتهادى بـ"شرواله" وسط مجموعة من العرب "المعقلين"، وثمة أعداد من الأرمن يرطنون بلغتهم الخاصة وهم ينصاعون لأوامر أعداد من الإنكليز ذوي القبعات والبناطيل القصيرة التي تعلو الركب.

وكان دور فرج قد ازداد أهمية، ولم يعد مقتصراً على نقل ما يطلب فرهود منه نقله على ظهر دابته من تمر وفاكهة وخضر وحبوب، بل تخطى ذلك بنقل القطع الآثارية المكتشفة.

– لقد ساعده عمله وسط أفراد البعثة الآثارية ليس على تعلّم القراءة والكتابة بسرعة عجيبة فحسب، بل أصبح خبيراً بدقائق عمله الجديد؛ يفاجئ أمه شذرة أحياناً بالتحدث إليها حديث العارف بخفايا الأمور: فوسط تأكيده أهمية تلك القطع الموزعة بين مدونات وتعاويذ وعقود مبرمة وأختام اسطوانية وجرار فخارية، ينوه، وقد خفض صوته، بأن "الصاحب" يستغل حاجته إلى العمل بتكليفه بتهريب قسم من تلك القطع – ومن تحت أنف المراقب التركي المسطول دائماً بسبب تعاطيه الأفيون – لتخفى في بيوت بعض المتعاونين مع "الصاحب" – ولاسيما في بيت بشار – قبل الوقوع على الوسيلة التي تكفل نقلها بأمان إلى بغداد ومن هناك إلى لندن.

وكان فرج يستدرك قائلاً:

– أتعلمين يا أمي أن العديد من الشباب العاملين في "البعثة" – وعلى رأسهم بشار – يتعاونون مع "الصاحب" ليس في تهريب الآثار فحسب، بل الإعداد لأمر يبيّت له يتجاوز نطاق هذه المنطقة كثيراً!

وقطع بدر حديثه ليعلق ضاحكاً:

– وذلك ما افتضح أمره مع اندلاع الحرب العالمية الأولى – التي عُرفت في حينها باسم الحرب العظمى – فإذا بالسلطة العثمانية تكتشف، متأخرة كالعادة، أن التنقيب عن الآثار لم يكن سوى ستار يعمل "الصاحب" من ورائه على تحريض الشباب ضد الدولة العثمانية – التي كان يسميها بـ"الرجل المريض" – مجنّداً إياهم لصالح بلاده بريطانيا العظمى!

وهكذا صدرت الأوامر بإلقاء القبض على المستر "تيلر تومسون" – الذي كان لا يزال يُعرف باسم "فوكس وايت" – فتوجهت مفرزة بقيادة مدير الناحية نفسه فضلاً عن مأمور الجندرمة إلى بيته لتفاجأ بخلوه منه؛ ذلك لأنه كان قد سبق إعلان النفير العام بالتسلل هارباً إلى جهة مجهولة!

– في تلك الفترة الدقيقة التي كان الناس مشغولين فيها بافتضاح أمر "الصاحب" وقع ما استحوذ على انتباه الجميع؛ ففجأة ودون سابق إنذار، وفّق أبي فرهود في إقناع أمي بالزواج منه بعد سنوات الانتظار الطويلة!... أما كيف تحققت المعجزة؟ فلذلك حكاية قد أرويها لك حينما يحين أوانها، فالمهم

الآن التطرق إلى قضية ولادتي المبكرة قبل اكتمال الأشهر التسعة المعهودة عقب كل زواج، وجاءت زرقة عينيّ لتحيل هذا الأمر إلى فضيحة مجلجلة ذكّرت الجميع بحقيقة عقم أبي عقب زيجتين سبقتا اقترانه بأمي شذرة!

وعاد بدر يلوذ بالصمت مبادلاً إياي النظرات، كما هو دأبه، قبل أن يسترسل في الكلام:

– لم أفقه هذه الإشكالات في حينها بطبيعة الحال، إنما تكفّل أخي فرج بنفثها في سمعي فيما بعد؛ فقد كان من دأبه التنفيس عمّا تراكم في صدره من غل لكوني "أثير" أمه المدلل؛ فما من مرة ثمل فيها إلا وفاجأني بصفعة على مؤخرة عنقي ينفث بعدها حقده الدفين على الماضي كله: أمه التي كان يلقبها بـ"العاهرة"، ويتمه المبكر وهو في السادسة من عمره، وقسوة أبي عليه وهو يكلفه بحمل بضائع تفوقه وزناً وحجماً، وبلاهته يوم لم تسعه الدنيا فرحاً على أثر شراء أبي دابة طفق يهرول خلفها كالأبله هنا وهناك وقد حمّلها بالبضائع.

وانقطع بدر عن استرساله في الحديث وقد أغمض عينيه حتى خيّل إليّ أنه نام، بيد أن "رياض" أومأ لي بحركة طلب بها مني الانتظار؛ فالرجل لم ينم بعد؛ إذ لم تكد تمر دقائق حتى انتفض في عربته، ففتح عينيه – إحداهما على سعتها والأخرى إلى النصف – وتأملني لحظات قبل أن يستطرد في حديثه:

– هذه الأسرار اطلعت عليها وقد تخطيت العاشرة من عمري؛ فأحيت في ذاكرتي من جديد مأساة ولادتي قبل الأوان ولعنة زرقة عيني التي لازمتني؛ فمنذ وعيت على نفسي آمنت أن عيني ستكونان مصدر شقاء دائم لي: لا يكف من يلتقيني من أن يزوي ما بين حاجبيه ليتساءل مستنكراً عن سر حصول هذا الأمر؟ في حين كان هناك من يهز رأسه أسى مردداً باستسلام أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير!

هكذا مرت سنوات طفولة بدر لتتوج – وهو في السادسة من عمره – بتلك الكارثة التي حلت بأبيه فرهود؛ فقد كان الجميع يناصبونه العداء، ليس لثرائه الفاحش فحسب، بل لحرصه الغريب على ترسيخ علاقته بالمستر "تيلر تومسون" برغم افتضاح أمره!

وكان هذا قد عاد إلى الأسلاف عقب انتهاء الحرب العظمى واحتلال بلاده للعراق، عاد بصفته أول نائب حاكم عسكري للمدينة بعد تحويلها من "ناحية" إلى "قضاء"؛ فاستأنف بذلك هوايته القديمة في التنقيب عن الآثار دون رقيب، مقرباً "فرج" إليه حتى بات أشبه بساعده الأيمن في التنقيب.

بيد أن الرجل لم يهنأ طويلاً بالاستمتاع بهوايته تلك؛ ذلك لأن سنوات الاحتلال الثلاث تمخضت عن انفجار ثورة شعبية عرفت فيما بعد باسم "ثورة العشرين"، فتمردت مدينة الأسلاف على حاكمها الإنكليزي أسوة بغالبية المدن العراقية؛ فحاصره الثوار في السراي الذي سرعان ما سقط بأيديهم؛ فاقتيد المستر "تومسون" و"شبانته" الهنود والأرمن أسرى، وكان بعض الشباب الثائر قد

هاجم المتعاونين مع الانكليز؛ فأُحرقت دكاكين فرهود الذي اندفع كالمجنون محاولاً إطفاء أحد الحرائق؛ فكان أن شبّت النيران في ملابسه فأصيب بحروق قاتلة مات على أثرها بعد مرور أيام لم يكف خلالها عن التوجع والصراخ كالنساء من شدة الألم.

وأستدرك بدر قاطعاً استرساله في الكلام:

– وهنا يحل دور زواج شذرة الثالث الذي تمخض عنه حفيدها "البومه" رياض وهو ما سبق لي أن حدثتك عنه!!

وقهقه باستمتاع لحظات قبل أن ينهي حديثه في ذلك اللقاء:

– إذ لم تكد تمر سنة على ترمل أمي شذرة من جديد حتى راجت سوقها مرة أخرى كما كان شأنها قبل زواجها الأول بمتعب؛ فقد تزاحم الخطاب عليها لا لجمالها وحده هذه المرة، بل لكونها – بموت فرهود – باتت ذات ثراء فاحش؛ فهبّ الجميع يخطبون ودها مؤملين أنفسهم بالزواج منها ليقع اختيارها، بعد مرور أربعة أعوام على وفاة فرهود، على بشار دون الشباب جميعاً؛ وبذلك وقعت القطيعة الأبدية بينها وبين ابنها البكر فرج الذي سارع بالعودة إلى بغداد قبل أن يفتك بأمه – التي كانت قد أمستْ مضرب المثل في تلاحق زيجاتها! – ليواصل عمله مع المستر "تيلر تومسون" الذي كان قد كوفئ على "بطولته" في خدمة بلاده بترقيته إلى رتبة أعلى وإلحاقه بالسكرتيرة الشرقية "المس بيل" التي كانت تعمل آنذاك على إنشاء أول متحف عراقي.

***

أطفأتُ المصباح المنضدي، ونهضت عن الكرسي تاركاً الأرشيف مفتوحاً على المكتب في انتظار جلسة أخرى أتابع فيها "بدر" بعد وصوله إلى بغداد والتحاقه بـ"المدرسة الأمريكية للبنين"، مثنياً، مع نفسي، على طريقته "الملتوية" في سرد أحداث الماضي؛ ذلك لأنها بدت ذات طابع شخصي، لا يعوزها سوى القليل من الجهد لتتحول إلى فصول رواية ناجحة في وسعها الأخذ بخناق قارئها!

وعدتُ أقرّع نفسي لترددي، كل هذه السنوات، في انجاز رواية سترفدني ذكريات بدر عن الماضي بأهم فصولها.

أيعود ذلك إلى تمكّن اليأس مني وقد توصلتُ إلى يقين أن الكتابة أمر لا جدوى منه؟ أم إلى حيرتي في إيجاد الطريقة التي أربط بها الماضي بالحاضر؟ أم إلى القلق الذي أعيشه كمن يتوقع أن ينهار فوق رأسه سقف بيته أو تتساقط الجدران من حوله في أية لحظة؟ أم...

غادرت المكتبة متخذاً طريقي نحو السلّم وقد قررت الانزواء بالحديقة ساعة من الزمان لعزق بعض أحواض الزهور تاركاً تلك الأسئلة معلّقة في الهواء.

هكذا عدت أتابع أيامي على الوتيرة المعهودة محاولاً ملاحقة ما يجري حولي من أحداث تكفّلت الفضائيات بتزويدي بها وقد مُلّحتْ وتُبّلتْ كما يشتهيها المشاهدون ولاسيما ذلك الصنف الذي يتابع

عادة هذه المآسي وقد تزود بجهاز تحكّم من بعد ليتسنى له استبدال قناة بأخرى في اللحظة المناسبة شأنه تماماً حين يتابع أفلام العنف والجريمة!

وكانت الاستعدادات لإجراء أول انتخابات لاختيار جمعية وطنية انتقالية تجري في فترة بلغ خلالها العنف حداً غير مسبوق منذ الاحتلال؛ فكان هذا التوقيت مثار دهشة الجميع حتى إن الأستاذ "حسيب" خرج، في أحد لقاءاتنا يوم الجمعة في زاويتنا من مقهى الشابندر، عن تحفظه وحذره؛ فعلق صارخاً عقب انتهائه من احتساء شايه بسلسلة رشفات متلاحقة لم يكف خلالها عن إرسال اللعنات بسبب احتراق فمه، أو لنقص السكر، أو سوء "تخدير" الشاي:

– لا أدري ما هو سر تحديد هذا الموعد الغبي لإجراء هذه الانتخابات؟ فخلال شهري أيلول وتشرين الأول المنصرمين حدث أكثر من ثلاثين تفجيراً بسيارات مفخخة!

فانبرى هاني الأحمد مسانداً إياه:

– كما "فطس" مئة واثنان وستون "علجاً" – بحسب تعبير الصحاف – خلال الفترة نفسها، وهو عدد يتجاوز ما خسروه في أسابيع الحرب!

وسارع أمجد سالم يقول مرسلاً سحب دخان نارجيلته من حوله:

– وهناك الاضطرابات التي انفجرت في سامراء فور انتهاء أزمة النجف، فضلاً عن تأجج المعارك مجدداً في الفلوجة ولجوء الأمريكيين إلى استعمال أسلحة محظورة – مثل الفسفور الأبيض والقنابل الحارقة – قبل السيطرة على المدينة.

وعاد الأستاذ حسيب يعلق وقد خفّض صوته هذه المرة:

– ثم لا تنسوا أن أحزاباً عديدة لها وزنها قد أعلنت عن امتناعها الاشتراك في هذه الانتخابات احتجاجاً على ما حصل في الفلوجة.

وكانت صور المرشحين للانتخابات – صور ضخمة بالألوان الزاهية لرجال مبتسمين ببزات أنيقة على أحدث طراز، وأخرى تقليدية متوجة بالعمامة أو الكوفية والعقال، فضلاً عن وجوه نسائية قليلة تطل على استحياء من بين تلك الوجوه وقد التزمت بالحجاب الإسلامي المعهود – كانت تلك الصور تطالع عيني أينما توجهت وقد علقت على الجدران وأعمدة الكهرباء وكابينات حافلات نقل الركاب.

ولم يكتف المرشحون بالدعاية لأنفسهم بوساطة تلك الصور فقط؛ بل رفدوا حملتهم بهدايا عينية: فبين يوم وآخر كنت أفاجأ بندى أو أحمد أو طه يعودون من مدارسهم ليعرضوا على أنظارنا أقلاماً وقرطاسية أهديت إليهم وقد طبعت عليها أسماء عدد من القوائم المرشحة، كما أن زوجتي حظيت بمدفأة نفطية من إحدى القوائم، لكنها لم تكتف بها بل أخذت تسعى للحصول من قائمة أخرى على بطانية من تلك البطانيات التي راجت سوقها آنذاك!

وكان إطلاق الوعود "الدسمة" من أبرز سمات هذه الانتخابات؛ فعلى مدى الأسابيع التي سبقت الثلاثين من كانون الثاني دأب هؤلاء المرشحون على استثمار أية فرصة تتيحها لهم وسائل الإعلام لتكرار وعودهم، مؤكدين أنهم سيشمرون عن سواعدهم ويشرعون بالعمل حال نجاحهم في الانتخابات ووقوفهم تحت "قبة البرلمان"!

وبرغم شكي بوجود مبنى متوج بقبة سيختار مقراً للبرلمان القادم بيد أنني لم أكن أفوّت متابعة تلك الوعود لأعمد أحياناً إلى تدوين بعضها في دفتر صغير لم يكن يفارق جيبي خصصته لهذا الغرض.

وكان أحد المرشحين قد زين صورته بكلمات لا تحتمل اللبس يؤكد بها أنه هو وحده الكفيل بتطوير الخدمات وفي مقدمتها الكهرباء التي سيعمل على إيصالها إلى أبعد قرية امتثالاً للحكمة القائلة: "أشعل شمعة عوضاً من أن تلعن الظلام"!.. وحرص آخر على التذكير بآلاف الشباب العاطلين وضرورة توفير فرص العمل لهم، في حين نبه آخر على حتمية البدء باستتباب الأمن قبل التفكير بأي شيء، وبلغت الحماسة و"التهّور" بأحد المرشحين حداً تجاوز معه ما هو مسموح به؛ ذلك لأنه أعلن عن إصراره على إخراج البلاد من تحت "نير" الاحتلال اليوم قبل الغد!... وكانت النتيجة شطب اسمه وإبعاده عن قوائم المرشحين!

وبلغ الذكاء بمرشح آخر أنه أضفى سمة "درامية" على وعده: فعلى الجانب الأيمن من صورته خُطّتْ عبارة باللون الأحمر مفادها: أيها العراقي تحسس موطئ قدميك وأنت تخطو على ثرى أرض الرافدين ذلك لأنك تسير في الواقع على بحيرة من نفط!

وتأتي التكملة على الجانب الأيسر بعبارة باللون الأخضر تقول: واصل خطاك نحو المستقبل مرفوع الرأس؛ وأنا الكفيل بإغراقك بخيرات بلادك أغنى بلدان العالم!

هكذا استمرت حمى الانتخابات على مدى أسابيع سبقت يوم الثلاثين من كانون الثاني تنافس خلالها آلاف المرشحين المنضوين في مئة وإحدى عشرة قائمة سعياً منهم ليكونوا من ضمن المئتين والخمسة والسبعين نائباً الذين سيحق لهم الوقوف تحت "قبة البرلمان"!

حتى إذا حلّ اليوم الموعود اكتفيتُ بالمرابطة أمام التلفاز بعدما وجدتُ في قرار منع المركبات عن السير في الشوارع خير عذر للامتناع عن التصويت؛ فمركز الاقتراع كان يبعد عن بيتي بضعة كيلومترات.

والحق أن تقاطر آلاف الناس – شباب متحمسون، وشيوخ في أرذل العمر يسيرون على مهل متوكئين على عصيّهم أو على أكتاف مرافقيهم، ونساء بالعباءات وأخريات سافرات، معوقون يدبون على عرباتهم ذات العجلات – بدا مثيراً لدهشتي بعدما ترددت الشائعات عن موجات من التفجيرات ستعمّ الشوارع!

كان منظر هؤلاء المقترعين، وهم يقفون في طوابير تزحف ببطء نحو الصناديق ليصوتوا قبل أن ينسحبوا رافعين سبّاباتهم المصبوغة بالحبر البنفسجي عالياً، يستدعي التأمّل حقاً: فخلف كل وجه مستبشر كانت ثمة آمال وأحلام تنتظر التحقيق؛ فهل سيتم ذلك على أيدي الذين سيفلحون بالوقوف تحت "قبة البرلمان"؟

وفي انتظار إعلان نتائج تلك الانتخابات جدّ في حياتي ما شغلني بعض الوقت؛ فذات ليلة، ونحن متجمعون أمام التلفاز نتنقل بين الفضائيات للوقوع على فلم أجنبي يستحق أن نسهر معه، دق هاتفي النقّال، فالتقطته زوجتي؛ لكونه في متناول يدها، وأنابت عني في الرد، بيد أنها سرعان ما أعلنت مجروحة وهي تبادلني النظر:

– لقد أغلقوه في وجهي!

– لعله كان أحد أصدقاء المقهى.

– أبداً؛ ما سمعته كان صوتاً نسائياً!

– عجباً!.. ولمَ لم ترد إذن؟!

– وما أدراني؟

أجابتني لتلوذ بعدها بالصمت، حتى إذا ما مرتْ دقائق مشحونة بالتوتر نهضت عن أريكتها معتذرة لاضطرارها إلى اللجوء إلى فراشها مبكرة بعض الشيء، بيد أنها لم تنس، وهي في طريقها إلى غرفة النوم، أن ترمقني بنظرة بدتْ أشبه بطعنة مدية أصابتني في الصميم.

أيعقل أن يسبّب لها محض اتصال خاطئ كل هذا الألم؟!

ومثل جرح قديم عصي على الاندمال عادت ذكرياتي عن تلك الفترة التي ارتبطتُ خلالها بـ"مي" بتلك العلاقة الملتبسة، عادت تخطر لي مجدداً بكل ما حملتْ من آلام ومشكلات كانت تعصف، مع كل زيارة تقوم بها "مي"، بجو بيتي الذي كان قد اعتاد السكينة والهدوء.

كان ما يؤلم زوجتي إلى حد الجنون شعورها بأن "تلك المرأة" تسخر منها وهي التي فتحت لها باب بيتها ظناً منها أنها ستجد فيها نعم الصديقة!

كانت تصيح ملتاعة، عقب رحيل "مي"، وهي تجول في البيت على غير هدى:

ـ إنها تستغفلني متوهمة أنني أجهل العلاقة الخفية التي تربطها بك!

وحينما كنت أحاول تهدءتها كانت تردد تلك الجملة التي ألفتْ ترديدها في مثل تلك الحالات:

ـ لا شك أنها تسخر مني في دخيلة نفسها؛ أرأيتها كيف كانت تترصدني في كل حركاتي وسكناتي داخل بيتي وقد شمّرتُ عن ساعديّ لأعد لها أشهى المأكولات والحلويات؟

وكنت أحاول، دون جدوى، تبديد أوهامها تلك، ولكن عبثاً؛ فقد كانت تصر على أن "تلك المرأة" تسير على هدى "خطة معينة" ستنتهي باستئثارها بي، حتى إذا ما رأتني أصطنع الضحك انفجرتْ صارخة:

ـ أيعقل أنك لم تتنبه للطريقة التي كانت تنظر بها إليّ؟ أو تكلمني؟ بل حتى إطراؤها لطبخي لم يكن يخلو من تهكم؛ وإلا ما معنى أن تقارن الحلويات التي أعدّها لها بحلويات "الشكرجي" و"أبو عفيفي"؟

وكانت تصمت لحظات قبل أن تستطرد بعزم أشد:

ــ إن هذه المرأة تحاربني بطريقتها الخاصة بعدما ترسخت لديها روح القتال فاستعاضت عن "الكلاشنكوف" بسحر عينيها ورقة كلماتها ووقع ضحكاتها!

وكانت تختم "منلوجها" العاصف وقد حوّلت ماضي "مي" إلى سلسلة مغامرات لا تهدف من ورائها سوى "تكسير" رقاب الرجال... ليس كل الرجال دون شك، بل السذّج منهم بطبيعة الحال!

***

تلك الليلة حرصت على إبقاء هاتفي النقال في متناول يدي لأعرف من تكون تلك المرأة المجهولة في حالة تكرار الاتصال بعدما أيقنت باستحالة أن تكون "مي"؛ ذلك لأنها هاجرت قبل شيوع الهواتف النقالة في البلاد، فضلاً عن أن التردد والحذر لم يكونا يوماً ما من شيمها؛ فقد عرفتها جريئة، من المحال أن تعمد إلى إغلاق الهاتف لأنها فوجئت بزوجتي ترد عليها.

صباح اليوم التالي – بعد توجه أطفالي إلى مدارسهم وخروج زوجتي للتسوق – ارتقيت درجات السلّم نحو الطبقة العليا لأعمد من فوري إلى الاتصال بذلك الرقم. وبعد بضع محاولات فاشلة كادت تصيبني باليأس تحققت المعجزة فشرع الهاتف بالرنين ولكنْ دون أن أحظى بجواب.

ما معنى ذلك؟

أخذت أتمشى جيئة وذهاباً محاولاً، ما وسعني ذلك، عدم الابتعاد عن النوافذ المشرفة على الحديقة الأمامية حرصاً مني على أن لا تمسك بي زوجتي، لحظة عودتها، متلبساً بـ"الجرم المشهود" وأنا في خضم اتصال هاتفي يستدعي الريبة والشكوك.

لم تكد تمر دقائق حتى انتفض الهاتف في كفي وقد شرع في الرنين، فسارعت بإلقاء نظرة خاطفة على رقم المتصل؛ فإذا به الرقم المجهول!

فوجئت بالمتصلة تبادرني بصوت لاهث بالاعتذار لتأخرها في الرد؛ ذلك لأنها كانت تنشر الغسيل فوق السطح.

– كدت أكسر رقبتي وأنا أهبط درجات السلم وثباً، ولكنني وصلت متأخرة.

علقت ضاحكة وسط لهاثها، فاعتذرت إليها لما سببت لها من إرباك، فقاطعتني مؤكدة أنها هي التي يفترض بها الاعتذار بسبب اتصال البارحة وإغلاقها الهاتف حال سماعها صوت امرأة لا صوتي أنا.

– لا أعلم ما الذي دهاني؟ لم أكد أسمع ذلك الصوت حتى عمدت إلى قطع الاتصال من فوري دون أن يقلقني احتمال أن أكون قد سببت في مشكلة بسبب حركتي البلدية تلك!

فطمأنتها إلى أن الأمر مر بسلام، واستدركت راجياً إياها أن تعذرني لو صارحتها بأنني لم أتشرف بمعرفتها بعد، فصاحت في الهاتف مستنكرة:

– لم تتشرف بمعرفتي؟ أيعقل ذلك؟ أنا "دنيا"!

"دنيا"؟ ومن تكون "دنيا" هذه؟

سألتُ نفسي، في حين واصلت المرأة في الجانب الآخر من الخط الكلام:

– أنا "دنيا" التي كانت تعمل في مكتب يحيى للاستنساخ... أيعقل ألا تتذكرني يا أستاذ؟

يا إلهي!... إنها تلك المسيحية المحجّبة!

كررت اعتذاري مسوغاً الالتباس الذي حصل لكوني أسمع صوتها في الهاتف أول مرة. وأضفت وأنا أفتعل الضحك:

– ... ثم لا تنسي أنه ندر أن سمعتك تتكلمين، وإن حصل فبصوت خفيض؛ فقد كان من دأبك الانكباب على جهاز الاستنساخ مواصلة عملك دون كلل حتى إذا ما التقت عيوننا مصادفة جابهتني بابتسامة!

– الأمر كما تقول يا أستاذ؛ فأنا خجول بطبعي: أتهرب من المجابهة، بيد أن الأمر يختلف مع الهاتف؛ فأنا معه جريئة جرأة عنترة بن شداد وهو يخوض معاركه!

ختمت كلامها ضاحكة، فسألتها عن أحوالها، وكيف تجري الأمور في الأسلاف؟ فأجابتني جادة هذه المرة:

– كما تجري الأمور لديكم في بغداد؛ فالفوضى لم تعد مقتصرة على مدينة دون أخرى؛ بل عمت البلاد كلها!

أصغيت إليها وأنا أغالب دهشتي لطريقتها الواثقة بالكلام؛ فقد خيل إليّ أن امرأة أخرى تكلمني لا "دنيا" المترددة المنزوية!

– وصديقك يحيى؟ كنت أتوقع أن يكون أول من تسأل عنه؛ فقد كنتما مضرب المثل في صداقتكما: يلازم أحدكما الآخر على مدار الساعة!

علّقتْ "دنيا" عاتبة، فوضحت لها أنني سبق لي لقاء يحيى في بغداد، متجنباً بذلك إخبارها بالقطيعة التي وقعت بيننا، بيد أنها فاجأتني بمعرفتها الدقيقة بكل ما يخص يحيى؛ فقد استطردت بنبرة العتاب نفسها:

– لقد مضت شهور على ما بدر بينكما من خلاف بسبب التباس ما كان يحصل لو عرفت الأمر على حقيقته؛ ذلك لأنك كنت ستعذر يحيى.

واسترسلتْ في حديث طويل محوره ثقتها بطيبة قلب يحيى، فأكدت بدوري أنه كان كما تقول ولكنْ قبل تورطه بعمله الجديد في المنفذ الحدودي، فقاطعتني متسائلة باستنكار:

– تعني أنه تغير بسبب تحسن وضعه المالي؟

وأضافت مستبقة ردي:

– قد يبدو الأمر كذلك لمن لا يعرف الأمر على حقيقته؛ فيحيى يمر بأزمة أخشى أن تودي به إن لم نعمل – نحن أصدقاءه – على انتشاله منها.

وعادت تؤكد طيبة قلب يحيى التي تدفع به إلى أن يثق بالآخرين سريعاً مفترضاً أن الجميع على شاكلته.

هكذا مضت دنيا في كلام غامض لم أفهم ما الذي ترمي إليه من ورائه حتى أنني اضطررت إلى أن أرجوها أن توضح الأمر عوضاً عن إبداء الحذر والتردد، فأجابتني أن الهاتف قد لا يصلح لبعض الأمور، فتساءلتُ ضاحكاً:

– عن أي حذر تتحدثين يا صديقتي وأخطر أسرار الدولة – ملفات الأمن والمخابرات وكل ما يتعلق بالتصنيع العسكري والأسلحة المحظورة – تباع على أرصفة سوق "المريدي"؟

ومرت لحظات قبل أن تجيبني بشيء من التردد:

– أخشى أن يحيى ضحية مجموعة من النصابين المحترفين!

– يكفي أن أحدهم هو نجيب الكذّاب.

علقت محاولاً حثها على تجاوز ترددها، لكنها لاذت بالصمت حتى خيل إليّ أن الاتصال قد انقطع، فعدتُ أسألها عما يدعوها إلى أن تشك بتلك المجموعة؟ فأجابتني بحذر:

– أمور كثيرة مثل هذا التنافس المحموم للحصول على الربح السريع حتى لو كان مصدر ذلك الربح مشبوهاً!

– ذلك ما حذّرت يحيى منه؛ فهو أكثر براءة – واعذريني لو قلت أكثر سذاجة – من أن ينجح في مجارات لصوص محترفين: يبيعون آباءهم وأمهاتهم لقاء حفنة دولارات.

وأخبرتها بما حدّثني يحيى به عما يجري في ذلك المنفذ الحدودي وكأن "مغارة علي بابا" تقبع هناك: يكفيك أن تردد العبارة المعروفة "افتح يا سمسم" لتنهمر عليك الدولارات مثل قطرات المطر، فاعترفت "دنيا" بصحة ما ذكرتُ، لكنها عادت تعتذر عن التحدث عن هذا الأمر في الهاتف مؤكدة أنها قد تقوم بزيارة خاطفة إلى بغداد حالما تسنح الفرصة، وحينها ستعمل على لقائي لتكشف لي الأمور بأدق تفاصيلها.

بيد أن ذلك اللقاء لم يتحقق إلا بعد مرور شهور حاولت خلالها نسيان يحيى نهائياً؛ ذلك لأن ما أخبرتني به "دنيا" عن تورطه مع تلك المجموعات المتكالبة على ذلك المنفذ الحدودي أصابني باليأس؛ فها هو الرجل أخيراً يجابه عقدة حياته المركزية: نهمه المرضي إلى المال؛ فما أكثر ما حدثني عن طفولته البائسة تحت سطوة أب شحيح لم تكن النقود تفلت من بين براثنه المسودة إلا بمعجزة!

وكان ذلك الأب يعمل "مبيضجياً" في زمن كانت أوعية الطعام تصنع فيه عادة من النحاس، يقضي سحابة يومه في دكان علا هباب "الكورة" فيه كل شيء: القدور والطاوات والطشوت والقماقم والسطول والأباريق والأوعية الأخرى المبعثرة في كل موضع.

وكان يحيى ملزماً، استجابة منه لإلحاح أمه، بالمرابطة أمام ذلك الدكان على مدى ساعات كان يحرص خلالها على أن يقبع على مسافة تكفيه للنجاة بنفسه في حالة انفجار أبيه بإحدى ثوراته التي قد يرميه خلالها بأي شيء يقع في متناول يده سواء أكان إبريقاً أم سطلاً أم قدراً!

كان يحيى يراقبه ملياً وقد انتصب واقفاً وسط الإناء المراد تبييضه والذي يوضع عادة في "الجفرة" – تلك الحفرة التي تغطي طبقة رمل قاعها – وهو يدور يميناً وشمالاً في "رقصة" غريبة تتناقض مع سيل الشتائم الذي يتناثر من ذلك الفم المختفي في ثنايا شارب تداخل مع شعر لحيته التي خالطها البياض.

كان الأب يكرر أبجدية شتائمه غير القابلة للنفاد لأن ابنه قدم سعياً للحصول على "مصروف البيت اليومي"، يصيح به وسط رقصته الغريبة وقد ازداد إيقاع حركته سرعة:

– أتحسب أمك العاهرة أنني أسك النقود في دكان الهباب هذا؟!

ويظل يكرر ذلك السؤال بصيغ وأشكال متعددة على مدى ساعات كانت ملابسه المشدودة إلى خصره تخضل خلالها بالعرق ليتنازل في خاتمة المطاف بقذف قطعة نقدية يحرص يحيى على التقاطها قبل سقوطها على الأرض خوفاً من أن تتدحرج لتختفي في أحد شقوق الزقاق، أما إن كانت العملة ورقية – ونادراً ما كان يحصل ذلك – فكان على يحيى أن يتلقفها قبل أن يطيّرها الهواء.

– كانت كلمة "النقود" أشبه بكلمة "السرطان"؛ يحاذر الجميع النطق بها في البيت!

كان يحيى لا يمل من تكرار هذه الجملة كلما تحدث عن أبيه الذي عمد، بسبب شحه ذاك، إلى الإسراع بتزويجه وهو يكاد يكون طفلاً؛ وذلك لأن العروس الميمونة "لقطة":

– إنها يتيمة، لا يوجد وراءها من يسأل عنها مهما فعلت بها... ثم إنها دون مهر... أتسمع يا ابن العاهرة أم عليّ تكرار كلماتي؟ إنها مقطوعة من شجرة لا بابا ولا ماما... محض ثقب يفي بأغراضك الدنيئة التي أخشى أن توقعني بسببها بورطة مع إحدى بنات الجيران!

وكانت عروسه تلك – مثلما قال أبوه – محض "ثقب"... ولكن لا لإشباع "أغراضه الدنيئة" فحسب، بل بدا أشبه بـ"سوق هرج": تنبثق البنات منه تباعاً كل تسعة أشهر ليثقلن عنق يحيى المسكين قبل بلوغه الثلاثين من عمره!

والطريف في الأمر أن يحيى كان يحدثني عادة بتلك الأمور بكل جدية مكرراً بعض الألفاظ الخادشة للحياء حرفياً بطريقة كانت تجعلني أبذل جهوداً مضنية خوفاً من أن أنطلق مقهقهاً مثيراً بذلك غضبه؛ ذلك لأنه كان يعدّ زواجه على تلك الشاكلة مأساة لا تقل لديه شأناً عن إحدى "التراجيديات" الإغريقية!

على تلك الصورة بدأتْ معرفتي بيحيى في تلك السنوات التي أعقبت حرب "عاصفة الصحراء" والتي كنت أقوم خلالها بزيارات دورية إلى الأسلاف عقب استقراري بأسرتي في بغداد وذلك بإغراء من بدر الذي عرف كيف يستدرجني إلى الإعداد لكتابة هذه الرواية، زاعماً أنني ساجد في شخصه خير عون؛ إذ إنه لن يكتفي برفدي بذكرياته التي ستشكل المادة الرئيسية لمشروعي الإبداعي فحسب، بل إنه سيدعم تلك الذكريات بسيل من وثائق تاريخية نادرة وبحوث ميدانية "أثنوغرافية" ورسائل وصور.

والحق أنني وجدت في تلك الوثائق مادة ثمينة تمنيت لو كان في وسعي الاحتفاظ بها لغرض دراستها بالكيفية التي ستلهمني في كتابة الرواية، بيد أنني لم أجازف باستئذان بدر – وأنا من أدرى معارفه بحرصه المرضي على وثائقه تلك – بالسماح لي بهذا الأمر مما اضطرني إلى أن أرجوه أن يأذن لي باستنساخها، فتأملني ملياً بنظرة طويلة استأنف بعدها الحديث الذي قطعته عليه بطلبي ذاك، حتى إذا ما مرت أشهر والتقينا مجدداً بادرني هو باقتراح مفاده أنه سيسمح لي بذلك شريطة أن تعود الوثائق إلى ملفاتها في متاهة مكتبته في اليوم نفسه بعدما يتم استنساخها – وبإشراف مباشر من رياض – عند رجل يدعى يحيى شفيق.

وفي طريقنا إلى محل الاستنساخ ذاك، محملين بصيدنا الثمين، أوضح رياض أن يحيى هذا موضع ثقة بدر؛ لا يسمح لغيره بتخطي عتبة بيته والعبث بوثائقه ليقينه أن الجميع لصوص: يتحينون الفرصة الملائمة لاختلاس ما يسعهم اختلاسه من كنوزه التاريخية!

حينها كانت سوق أجهزة الاستنساخ قد راجت رواجاً منقطع النظير عقب فرض الحصار على البلاد وما ترتب عليه من منع استيراد الكتب؛ فعمد أصحاب تلك الأجهزة إلى استنساخ الكتب الرائجة، وكان محل يحيى قد أصبح من أكثرها شهرة في مدينة الأسلاف: يقصده المثقفون وعشاق الكتب مطمئنين إلى أن يحيى – بتشعب علاقاته مع أصحاب المكتبات ليس في الأسلاف فحسب، بل في بغداد أيضاً – سيبذل المستحيل للاستجابة لطلباتهم.

في محل يحيى للاستنساخ بات من المألوف أن أقضي سحابة أغلب أيام سفراتي إلى الأسلاف: أبادل يحيى، وسط إيقاع صوت الجهاز الرتيب، أحاديث لا تخرج عن نطاق قراءاتنا ولاسيما في مجال الرواية التي وجدتُ في صديقي الجديد أحد عشّقها النادرين؛ لم تفلت رواية عالمية بارزة منه، يكاد يحفظ أحداثها عن ظهر قلب: يحدثك عن "راسكيلنكوف" بطل رواية "دستويفسكي" "الجريمة والعقاب" مثلاً حديث العارف الخبير وكأنه انتهى منذ دقائق من لعب الطاولة معه في المقهى القريب!

وطوال أحاديثنا الصاخبة تلك كنت ألاحظ "رياض"، المنزوي على أحد الكراسي، يتطلع حوله بعينين خدرتين وقد انصرف إلى احتساء إستكانات الشاي المتتالية مغالباً شعوره بالنعاس الذي يبدو أن صوت الجهاز الرتيب كان يفاقمه.

حينها لم يكن يحيى قد شغّل "دنيا" في محله بعد؛ فكانت علاقته برياض خالية مما يعكر الصفو: لا يكادان يلتقيان حتى يستقبل أحدها الآخر بالأحضان ليعمدا، من حين إلى آخر، إلى تبادل أحاديث خاطفة ذات طابع عاطفي كنت ألتقط منها أسماء فتيات وموظفات كن يعملن في المتحف مقر عمل رياض.

ومثل شرطي حريص على أداء مهمته بألا يدع المتهم يفلت من رقابته الصارمة كان رياض يعود بي ليعرض على بدر الوثائق التي كان قد أؤتمن عليها قبل أن يعيدها إلى ملفاتها التي تحتل في النهاية موضعها على أحد رفوف المكتبة الهائلة الممتدة على ارتفاع طبقتين تاركاً إياي أنصرف إلى مبادلة "بدر" أحاديثنا التي لم تكن تخرج عن نطاق ذكرياته عن تلك الأعوام التي قضاها في بغداد.

على هذه الوتيرة كانت زياراتي الدورية إلى مدينة الأسلاف تنقضي، محاولاً الحصول خلالها على أكثر عدد ممكن من الوثائق المستنسخة عسى أن تعينني في إنجاز روايتي، محاولاً، في الوقت نفسه، توجيه بدر – في سرده ذكرياته – الوجهة التي تخدم غرضي سعياً مني إلى توثيق فترة الخمس عشرة سنة التي قضاها في بغداد، والتي وجدتُ فيها مادة دسمة للفكرة التي تشغلني: فكرة انخراط بدر في "طاقم المحتلين الإنكليز" آنذاك، هذا الانخراط الذي بدأ عام ١٩٢٦ بعد مرور سنة دراسية على التحاقه بـ"المدرسة الأمريكية للبنين".

يومها رافق فرج أخاه "بدر" – بعد شهور قضاها في ضيافته – إلى مقر سكناه الجديد في القسم الداخلي الملحق بالمدرسة، والذي كان يقع عند مدخل شارع الشيخ عمر من جهة الباب الشرقي على بُعد دقائق مشياً على الأقدام، ملمّحاً بطريقة خبيثة إلى أنه محظوظ؛ فهو من القلّة التي حازت هذا الامتياز بفضل بعض من "ذوي النفوذ"؛ ذلك لأن القبول في هذه المدرسة وقف على أبناء الأجانب ومن "لفّ لفّهم"!

وحينما سأله بدر، وكان قد تخطى بوابة القسم بمتاعه القليل المكوّم في كيس، عما يعنيه بهذه الـ"لفّ لفّهم"؟ عالجه فرج بصفعته المعهودة على مؤخرة عنقه وأجابه وهو يغادره دون وداع:

– تطلّعْ إلى أول مرآة تصادفها في قسمك الداخلي لتدرك مغزى كلامي!

فأسقط بدر حمله وقفل عائداً ملاحقاً أخاه بسؤاله، وهو يكاد يبكي، عما يعنيه بكلامه الغامض هذا؟ فأجابه فرج وهو يندفع مبتعداً عنه:

– أنسيت عينيك الزرقاوين؟ أم عليّ أن أذكّرك بهما؟

وهكذا عادتْ "لعنة زرقة عينيه" تلاحقه برغم وداعه لمدينة الأسلاف، بيد أن ما خفف عنه الأمر هذه المرة اكتشافه أن أغلب تلاميذ المدرسة يماثلونه في لون العيون؛ فمعظمهم كانوا أبناء أوربيين وأمريكيين قدموا في أعقاب الاحتلال ليشغلوا مناصب ووظائف في شتى المجالات المرموقة.

كانت الدراسة في هذه المدرسة تتم على مرحلتين: الأولى ابتدائية وأمدها ست سنوات، والثانية ثانوية ومدتها خمس سنوات؛ وبما أن "بدر" كان قد أنهى دراسته في مدرسة الأسلاف الأولية – وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات – فقد تم قبوله في الصف الخامس الابتدائي.

لم تكد تنقضي أسابيع حتى وجد بدر نفسه في خضم حياة جديدة مبهرة توزعت بين المدرسة والقسم الداخلي الملحق بها؛ ففضلاً عن ازدحام منهاجه الدراسي بما لم يعهده من قبل – مثل أخذ دروس في اللغتين العربية والإنكليزية وفي شتى الآداب والعلوم والرياضيات والتاريخ والموسيقى بالإضافة إلى تنمية الملكات الخطابية والتمثيلية – وجد أمامه مكتبة مشرعة الأبواب، حافلة بكتب في مختلف المعارف والفنون، ناهيك عن الصحف والمجلات، كما كانت في المدرسة ثلاثة مختبرات للبيولوجيا والفيزياء والكيمياء.

ولم تكن الدراسة تقتصر على تلك المعارف؛ إذ كانت هناك دروس لا منهجية تمثلت بوساطة جمعيتين إحداهما عربية والأخرى أدبية إنكليزية.

وكان هناك نادٍ للصلات الدولية، وآخر للطرب والتمثيل تتمخض فعالياته عن إقامة حفلات اجتماعية تتخللها نزهات ومحاضرات ودروس ليلية.

وكان هناك أيضاً اهتمام بالمجال الرياضي كألعاب الكرة التي تتوج عادة بحفلات استعراضية فوجئ، في إحداها، بحضور الملك فيصل شخصياً لتوزيع الجوائز على الفائزين في إحدى المسابقات الرياضية؛ فتأمل بدر مبهور الأنفاس ذلك الملك الوسيم بقامته النحيلة وببزته الناصعة البياض والسدارة السوداء تعلو رأسه وهو يستقبل باسماً الرياضيين ليصافحهم واحداً واحداً موزعاً عليهم جوائزهم.

وأما حياته في القسم الداخلي فقد كانت بالغة الدقة والانتظام تحت إشراف سيدة أمريكية صارمة كانت تقدم للطلاب وجبات الطعام اليومية الثلاث في مواعيد محددة بعدما سبق لها أن اختارت الأصناف الملائمة.

وكانت غرف النوم واسعة، والأسرّة وثيرة، وثمة معلم أُختير لكل قاعة، تتلخص مهمته بتولي توعية الطلاب وإرشادهم في لعبهم ودروسهم.

هكذا تعاقبت الأسابيع وهو في دوامة متصلة صحا منها عصر اليوم الذي سبق حلول عيد الفطر على وجه فرج وهو يطالعه عند باب القسم الداخلي بابتسامته المتهكمة.

– لقد أصبحت واحداً منهم ليس بزرقة عينيك فحسب، بل ببياض بشرتك ونظافتك التي تكاد تقطر ماء الورد!

خاطبه أثناء اجتيازهما تلك المسافة التي تفصلهما عن البيت الذي يقطن في إحدى غرفه ليضيف متسائلاً:

– هل علفوك جيداً من موائدهم؟ أم أنك عرفت كيف تختلس منهم ما تقيت به نفسك كما كان دأب المرحوم أبيك الذي اعتادت أمنا أن تردد كلما ورد ذكره: "عايش ديم"؟

بدا فرج ناقماً لسبب يجهله بدر؛ فالتزم جانب الحيطة والحذر في انتظار انقضاء أيام العيد والعودة إلى مدرسته.

ليلاً، ومع شروع فرج في ممارسة طقسه اليومي بشرب "ربع العرق" المعهود على وقع صوت أحد مطربيه المفضلين، أفصح عن سر غضبه؛ فقد فاجأ "بدر" بأن سأله وهو منهمك بإعداد المقبلات وذلك بتقطيع الطماطة والخيار والليمون:

– لم تسألني عما أفضت إليه تلك التظاهرات التي كنت أشارك فيها!

وبعدما أضاف إلى ما انتهى من إعداده اللبن وفصوص ثوم رشها بقليل من الملح أوضح قائلاً:

– لا شيء!.... ذلك ما تمخضت عنه التظاهرات؛ فقد ذهبت الدماء التي سفكت هدراً، وتم توقيع أول معاهدة عراقية بريطانية!

ظهيرة اليوم التالي اصطحب فرج أخاه إلى مطعم "الشمس" أرقى مطاعم بغداد ليكفّر عن مماحكته إياه البارحة بإتحافه بتناول وجبة غداء محترمة غادرا بعدها المطعم نحو مقهى "حسن عجمي" المجاور مارين في طريقهما بمدرسة "شماس" اليهودية.

– سأغيب عنك دقائق، فانتظرني على هذا التخت.

أمره فرج وقد أجلسه على تخت محاذٍ للواجهة المطلة على الشارع. وفي طريقه إلى الخارج أوصى عامل المقهى بأن يجلب له قنينة "تامليت" غادر بعدها المقهى واجتاز الشارع نحو الجانب الآخر داخلاً جامع "الحيدرخانه"، في حين بقي بدر يسأل نفسه، مع كل رشفة يتناولها من ذلك السائل الممزوج بنكهة البرتقال، عن سر ذهاب أخيه إلى هناك؛ إذ إنه لا عهد له بالصلاة!

حينما غادر فرج الجامع بعد دقائق وعاد يجتاز الشارع نحو المقهى بدا سعيداً: يقلّب بين يديه جريدة عنوانها "الصحافة" متتبعاً عناوين المقالات المنشورة فيها.

تلك الليلة، وعقب انتهائه من أول كأس عرق، خاطب "بدر" بفم ممتلئ بـ"الجاجيك":

– لقد آن للمعتقدات البالية والأحكام المسبقة المتأصلة في نفوس الناس أن تنتهي.

وأضاف متسائلاً وهو يرفع كأسه عالياً:

– أترى هذا السائل اللبني الساحر؟ ما معنى استهجان من يتعاطاه بحجة أنه حرام؟

واستطرد وهو يبحث حوله عن شيء ما أضاعه قبل أن يهتدي إلى الجريدة التي كانت قد سقطت عن السرير الذي كان جالساً عليه:

– أيعقل أن تكون الخمر حراماً في حين يكون احتكار قوت الناس وسرقتهم بل قتلهم حلالاً؟

وتابع ملوحاً بالجريدة تحت أنف بدر:

– هاك... اقرأ مقالات هذه الجريدة لتفتح عينيك على حقيقة ما يجري في بلادك التي يتحكم بها صاحبك "تيلر تومسون" ومن هم على شاكلته من المستعمرين والأجانب.

فعلق بدر بشيء من الحذر:

– ظننتك لم تؤم جامع "الحيدرخانه" إلا لأداء الصلاة!

– أداء ماذا؟ أجننت؟ ما شأني أنا بالصلاة؟

تساءل فرج مقهقهاً وقد استلقى على سريره، فتشجع بدر بأن سأله هذه المرة مباشرة:

– ولكن ما علاقة الجامع بجريدة تناهض الدين؟

– ممتاز... سؤال ذكي لا يصدر عمن هو أكبر منك بالعمر يدل على أنهم أزالوا، بمناهجهم الاستعمارية، عن عقلك صدأ مدينة الأسلاف المتراكم.

واعتدل في جلسته ليحدثه عن أديب عراقي اسمه "محمود أحمد السيد" استطاع – بفضل كونه ابن إمام جامع "الحيدرخانه" – أن يفرد إحدى غرف الجامع لمجموعة يرأسها شخص يدعى "حسين الرحال" تركّز على المشكلات الاجتماعية وذلك بمهاجمة كل ما هو متأصل في نفوس الناس من معتقدات بالية وأحكام مسبقة.

وذكّر فرج أخاه بـ"الحزب السري العراقي" الذي نشط أعضاؤه المسلحون في السنة الماضية فهاجموا مكاتب كبار رجال الأعمال مهددين إياهم بدفع آلاف الروبيات فدية عن أنفسهم مما اضطر معظمهم إلى الهرب إلى لبنان.

– المجموعة الجديدة – وأنا لست سوى صديق لهم شأن عشرات الشباب، نكتفي بالحصول على نسخ من هذه الجريدة – قررت إعادة الكرّة، ولكن بطريقة أكثر حذراً، بادئين بتغيير معتقدات الناس وصولاً إلى محاربة الأغنياء الذين يسندون المستعمرين ومن هم على شاكلة صاحبك "تيلر تومسون"!

أنهى فرج كلامه بأن اكترع كأسه دفعة واحدة.

بتلك الطريقة المباشرة فضح فرج سر عدائه لولّي نعمته "تيلر تومسون"، وكان على بدر أن ينتظر لقاء آخر ليكتشف وجهة نظر الطرف الثاني في هذا الأمر، وقد حدث هذا اللقاء في أوائل شهر نيسان في أعقاب هبوب عاصفة رملية سبقت طغيان نهر الفرات الذي أتلف المزروعات وقطع السير بين المدن والقرى القائمة على جانبيه. وسرعان ما فاضت مياه دجلة فيضاناً لم يُشهد له مثيل؛ فلم تكتف المياه الغرينية الهائجة بإغراق البيوت والبساتين، بل إنها اكتسحت البلاط الملكي، فجرفت الأثاث الفاخر والمواشي والأبقار الملكية؛ فاضطرت العائلة المالكة إلى الانتقال مؤقتاً إلى قصر الوجيه اليهودي "مناحيم دانيال".

وكانت الدراسة في المدارس قد تعطلت، والتحقت فرق الكشافة بالأهالي لغرض درء خطر الغرق عن بغداد، فقدم بدر إلى غرفة فرج في انتظار انحسار هذا الخطر الداهم ليفاجأ، عصر ذات يوم،

بأخيه يخبره، بعد قدومه من عمله في البناية التي اختيرت للمتحف، بضرورة أن يهيئ نفسه للقاء "سيده" غداً!

وحينما سأله بدر عما يعنيه بـ"سيده" هذا؟ امتنع كعادته عن الإجابة؛ إنما انصرف إلى الاستحمام ليلجأ إلى سريره. حتى إذا ما استيقظ قبيل المساء، وشرع في إعداد مستلزمات الشرب، أخبره عرضاً بضرورة أن يتهيأ ضحى اليوم التالي للقاء المستر "تومسون"، تجاهله بعدها ليستغرق – وسط ضجة غناء أحد مطربي "الغرامافون" – بالشرب وقد انهمك بتصفح جريدته.

وقبيل انتصاف النهار عمد بدر إلى ارتداء ملابس المدرسة المعهودة: البنطال القصير فوق الركبتين، والقميص الأبيض. وكان قد انتهى من إلقاء آخر نظرة على هيئته في المرآة حين تردد صوت منبه سيارة عند باب البيت، فتلفت حوله ليودع أخاه، بيد أنه اكتشف أنه كان قد انسلّ ليختفي بعيداً عنه.

كانت سيارة سوداء صغيرة الحجم في انتظاره في الزقاق وسط حشد من الأطفال دفعهم الفضول للتجمع، وثمة سائق هندي بملابس غريبة وعمامة ملونة استقبله من خلف المقود باسماً.

– هنا.... اجلس هنا بجانبي.

كلّمه بعربية مشوهة ليطبق بعدها شفتيه الرماديتين وهو يقود السيارة بهدوء نحو الشارع العام الذي اعتاد بدر، منذ مجيئه إلى بغداد، ذرعه برفقة فرج عشرات المرات حيث طالعه، من نافذة السيارة، تلك القصور الفخمة التي تطل واجهاتها على الشارع، في حين تشرف من الخلف على دجلة.

كانت تبدأ بقصر الباجچي فقصري آل الخضيري، يليهما قصر القنصل البريطاني بسارية العلم المرفوعة فوقه وبالمدفعين المشرئبين بعنقيهما البرونزيين على جانبي البوابة. وامتدت أمامه خضرة بساتين النخيل "السنك" التي يقوم وسطها مقهى "هوبي" حيث اعتاد الجلوس برفقة أخيه والإصغاء إلى "رشيد القندرجي" وهو يؤدي مقاماته بمصاحبة فرقته الموسيقية. وكان هذا المقهى بمثابة محطة استراحتهما التقليدية كلما كانا في سبيلهما لاجتياز جسر "مود" نحو حدائق "الصالحية" التي اعتاد فرج أن يتسمّر جالساً ساعات على أحد كراسيها ملاحقاً بعينيه الصبايا المسيحيات واليهوديات وهن يتجولن بين الأشجار سافرات الوجوه.

إلى اليمين شمخت الكنيسة "الأنكليكانية" بهيكلها الفخم فوق ما تحيط بها من بنايات متواضعة، تلتها حديقة الألعاب الرياضية فالشارع المؤدي إلى محلة "باب الشيخ" فمقهى لا يتذكر اسمه، ومن ثم شركة "عدس" لبيع سيارات الـ"فورد".

وتخطت السيارة به محلة "الجنابيين" ودكاكين الأرمن وقد عرضت عند واجهاتها شرائح "البسطرمة" المعلقة على حبال، وجامع "السيد سلطان علي" والزقاق المؤدي إلى الشريعة التي تحمل الاسم نفسه، وكازينو "شريف وحداد" القائم قريباً من جسر "مود"، ولاحت له واجهة "سنترال سينما"

المزدانة بملصقات تعلن عن الفيلم الذي يعرض، فتكية "السيد البدوي" فعمارة شركة "بيت لنج" الضخمة للنقل البحري التي تقوم في الطبقة الأرضية منها مكتبة "مكنزي".

هكذا تتابعت على جانبي الشارع بنايات تتوزع بين بيوت وحوانيت ومقاهٍ كانت تتطلب منه – حين مروره بها راجلاً – وقتاً طويلاً لاجتيازها، في حين تتخاطف الآن على جانبي السيارة بسرعة البرق فلا يتذكر منها إلا أبرزها مثل "دربونة النملة" و "خان الأورطمة" وجامع "مرجان" وفي مواجهته الساحة الواسعة التي اعتاد الباعة التجمع فيها ليبيعوا لليهود "الششه" وحلوى "الخريط". وإلى اليمين مرت أسواق "الشورجة" بضجة المتبضعين، في حين ارتفعت عن شماله دقات المطارق في "سوق الصفافير"، ولاحت له بناية "رويال سينما" في "باب الأغا" قبل أن ينحرف السائق بسيارته إلى اليسار نحو شارع "الأكمكخانة" الفرعي الذي ألف ارتياده بصحبة فرج الذي اعتاد المرور بمحل "حوريش" القائم في مدخل الشارع والخاص ببيع اسطوانات المغنين والمغنيات.

– هنا مقر الحكومة...

ذلك ما كان فرج يردده على سمعه كلما اصطحبه إلى هذا الشارع فطالعهما ذلك البناء الضخم الممتد بمحاذاة دجلة ليضيف بعدها متهكماً:

– ... هنا يشغل وزراء عراقيون لا يملكون من أمرهم شيئاً غرف هذه القلعة الضخمة التي طالما رجّعتْ جدرانها أصداء الأصوات وهي تردد نصوص الفرمانات الهمايونية القاضية بتعيين الولاة العثمانيين على بغداد؛ وكأنما كتب على هذا البلد المنحوس أن يحكم من قبل الأجانب!

وقفت السيارة بهما عند البوابة الضخمة التي كان ينتصب إلى جانبيها جنديان شاكيا السلاح، وترجّل بدر ليتعقب السائق الهندي وهو يقوده إلى الداخل حيث أصداء وقع أقدامهما أخذت تتردد بوضوح خلال ذلك الرواق الطويل الذي تنفتح عليه أبواب عشرات الغرف.

وكان الرواق ينفتح من جانبه الآخر على حديقة واسعة معشبة تتوسطها ساعة البرج المشهورة، تنتهي بمسناة تشرف على نهر دجلة بمياهه الهائجة المتدفقة جنوباً وعشرات النوارس تحلق زاعقة فوقه، في حين تتراصف بيوت جانب الكرخ بشناشيلها فوق الجرف الآخر المرتفع.

وقف السائق ببدر عند باب إحدى الغرف، فميّز من فوره المستر "تيلر تومسون" برغم أنه مرت سنوات على آخر مرة رآه فيها. كان قد تغير هذه المرة، ليس لأنه كان يرتدي بزة مدنية بربطة عنق على شكل فراشة عوضاً عن ملابسه العسكرية المعهودة، بل لأنه كان قد طعن في السن، فسقط أغلب شعره الأشقر، وغزت التجاعيد وجهه محيطة بعينيه الزرقاوين.

كان يقف قرب امرأة أجنبية ضئيلة الحجم احتلت كرسياً منجّداً بمسندين وقد وضعت ساقاً بيضاء هزيلة على أخرى مراقبة "بدر" بنظرة باردة.

أومأ المستر "تومسون" إلى السائق ليأذن له بالانصراف، فدخل بدر الغرفة وقد احتبس أنفاسه في صدره، ملاحظاً المستر "تومسون" وقد انحنى نحو المرأة ليهمس لها بكلام ما جعلها

تعاود تأمل بدر بفضول هذه المرة قبل أن تنهض واقفة بقامتها الضئيلة وقد رسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة باهتة، ومرت ببدر لتربت على رأسه بحركة مداعبة خاطفة وهي في طريقها إلى الخارج ليتردد وقع حذائيها في الرواق من بعدها لحظات.

– لقد وثقتُ من حسن قراري بتسجيلك في "المدرسة الأمريكية".

كلّمه "تومسون" بعربية تشوبها لكنة لا تكاد تلحظ، وأضاف مثنياً على تفوقه في دروسه – كما أخبره بذلك أساتذته – مؤكداً أنه يكفيه أن يواصل تقدّمه على هذه الشاكلة ليحقق، بفضل إسناده إياه، طموحاته في بلاد بدأت بالنهوض بعد سبات أربعة قرون تحت هيمنة السلطة العثمانية المتخلفة.

واستطرد وهو يشير إلى ما حولهما من قطع آثارية كانت قد رتبت على حوامل أو في خزانات زجاجية:

– انظر.... ها هي محتويات غرفة "الحجارة البابلية" التي ستكون نواة أول متحف عراقي أوشكنا على الانتهاء من إعداده في عقد الصخر في البناية الملحقة بمطبعة الحكومة حيث يشرف أخوك فرج وبشار، زوج أمك، على أعمال الترميم؛ إذ سيفتتحه جلالة الملك فيصل بعد أسابيع.

وأضاف مرافقاً إياه في جولة بين تلك القطع:

– إنها محض شواهد متواضعة على حضارات عريقة عمرت بلاد ما بين النهرين – بلادك – لا بد من بذل جهود جبارة لانتشالها من تحت طبقات تراكمت من فوقها على مدى عشرات القرون.

وصادف أن دوّت، في تلك اللحظة، ساعة البرج بدقاتها معلنة انتصاف النهار؛ فتجمّد بدر في موضعه مصيخاً السمع، فسأله المستر "تومسون" إن كان يرغب بمشاهدة الساعة من الداخل؟ فلم يملك بدر إلا أن يحرك رأسه إيجاباً؛ فلا شيء يضارع رؤية هذه الساعة العجيبة عن كثب بعدما ألف سماع دقاتها عن بعد.

تقدمه هذا مغادراً الغرفة ليجتاز الأرض المعشبة باتجاه برج الساعة العملاق، حيث ارتفع في سمع بدر هدير المياه الثائرة التي كادت تطغى على حافة المسناة، وأفعمت أنفه رائحة الغرين النفّاذة.

– لقد شيد أحد الولاة العثمانيين هذا البرج منذ أكثر من ستين سنة بارتفاع ثلاثين متراً...

كلّمه المستر "تومسون" ليستطرد بعدها ضاحكاً كاشفاً أسنانه التي سوّد دخان السجائر منابتها:

– .. وجئنا نحن لنتوجه بتمثال صغير لـ"لجمن"... أتعرف من هو "لجمن"؟

وأضاف وهو يدور به حول قاعدة البرج:

– كان قائد البادية الشمالية، وقد أُغتيل غدراً على يد الشيخ ضاري قبل ست سنوات أي بتاريخ الثالث عشر من آب سنة ١٩٢٠ فتأثرت الجالية البريطانية لمصرعه؛ فعمدت إلى تجميع

تبرعات لأجل عمل هذا التمثال البرونزي الذي يبدو فيه بالزي البدوي على ظهر جمل وقد وضع، باقتراح من "المس بيل" الكاتبة للشؤون الشرقية بدار المندوب السامي – وهي المرأة التي رأيتها قبل دقائق – على السهم الذي يشير إلى اتجاه الريح.

وواصل المستر "تومسون" الكلام وقد تقدم "بدر" مرتقياً معه درجات السلم اللولبي حيث صدى صوته كان يتردد بوضوح غريب:

– إنها ثلاث وسبعون درجة ليس من اليسير على عجوز بعمري ارتقاءها.

ومضى يختصر تاريخ البرج والمراحل التي مر بها لينصرف بعدها – وقد دخلا الغرفة – إلى التحدث عن أجزاء الساعة العملاقة التي تدار مكائنها كل ثلاثة أيام بالنصب اليدوي من قبل مختص بهذا الأمر.

وتركه يتأمل غرفة الساعة بنافذتيها الشمالية والجنوبية والجرس الدقاق الذي ذكر أن قطره يبلغ متراً وارتفاعه متراً ونصف المتر.

– حين تدوي الساعة يساعد النهر على حمل الأصداء إلى أبعد مسافة.

سمع بدر المستر "تومسون" يعلق. وكان قد وقف بإزاء إحدى النافذتين متأملاً من ذلك العلو الشاهق عشرات البيوت والشوارع الممتدة على مدى البصر وثمة مآذن وقباب تبدو هنا وهناك تتخللها خضرة الأشجار ولاسيما أشجار النخيل.

– لا تنس أن أقدم ما يلوح لبصرك لا يتخطى عمره بضعة قرون؛ فبغداد تعد مدينة حديثة نسبياً: تاريخ تأسيسها معروف، بيد أن التأريخ الحقيقي والعريق يكمن تحت طبقات الأرض – ليس في هذه البقعة وحدها فحسب، بل على امتداد بلاد ما بين النهرين – إنه تأريخ مذهل يتكشف من حين إلى آخر عن كنوز إنسانية لا تقدّر بثمن.

استطرد المستر "تومسون" في كلامه لينهيه بجملة قد تكون السبب الرئيس لاختيار بدر فيما بعد التنقيب عن الآثار مهنة العمر:

– انظر... وتأمل جيداً ما يقع تحت عينيك دون أن تنسى أن ما لن يسعف البصر لرؤيته يتطلب عمل العقل واليدين نبشاً وحفراً.

وقفل الاثنان هابطين درجات السلم ليغادرا بعدها "القشلة" حيث السيارة السوداء كانت بانتظارهما عند البوابة، فأمر المستر "تومسون" السائق الهندي بأن يتجه بهما إلى أحد النوادي الخاصة بضباط الجالية البريطانية ليحظى بدر بوجبة غداء فاخرة أنسته كل الوجبات التي سبق له تناولها برفقة أخيه في مطعم "الشمس"!

عصراً عادت السيارة به إلى البيت، فاستقبله فرج في غرفته متجهماً، ولم يكلّمه حتى حلول الليل. بدا كأنه يدينه على ذنب اقترفه كان يزيد من عذابه جهله به!

– لا شك أنه عرف كيف يخدعك بكلامه المعسول كما كان شأنه معي حين كنت بعمرك فكنت أكد وأتعب كالحمار وأنا أنقب عن الآثار في الأسلاف إرضاءً له.

كلّمه فرج بعد شروعه في الشرب. وحينما وجده لا يحير جواباً صاح نافد الصبر:

– ما لك صامت لا تنطق؟

– لأنك تبدو غاضباً مني لسبب أجهله.

– ولم أغضب منك يا حمار؟ ألست أخي؟

سأله فرج حاثاً إياه بنظراته على الكلام؛ فحدّثه بدر متردداً عن رحلته إلى "القشله" واصطحاب السائق إياه إلى غرفة كان المستر "تومسون" ينتظره فيها بصحبة امرأة أجنبية...

قاطعه فرج متسائلاً:

– ومن تكون هذه المرأة؟ صفها لي.

– نسيت اسمها... كانت نحيفة البنية، بيضاء شاحبة، بعينين صغيرتين تتطلعان إلى ما حولهما ببرود... ولها ساقان نحيفتان عظميتان...

– إنها هي..."الخاتون" أعني "المس بيل".

– تماماً؛ لقد تذكرت الآن؛ فذلك كان اسمها كما أخبرني المستر "تومسون"، بيد أنني لم أحبها إطلاقاً؛ بدت منفرة يخشاها المرء عوضاً من أن يحبها.

وفوجئ بدر بصفعة فرج المعهودة على مؤخرة عنقه قبل أن يصيح ضاحكاً:

– هذه المرأة التي تراها غير محبوبة ينشد الأمراء وكبار الساسة ودها. إنها سكرتيرة دار الاعتماد، وهي التي نصبت "فيصل" ملكاً على رأسي ورأسك ورؤوس ملايين العراقيين عوضاً عن منافسيه على العرش: طالب النقيب، والشيخ خزعل أمير المحمرة.

ومضى يحدثه بدقائق ما حصل من صراع على عرش العراق قبل أن تحسمه "المس بيل" لصالح فيصل لتنطلق بعدها في "ترتيب" الأوضاع في البلاد بالطريقة التي توحي وكأن الإنكليز منحوا العراق، كما وعدوا، استقلاله، في حين تجري الأمور في الخفاء على النقيض من ذلك.

وتابع وهو يضحك بمرارة:

– بعدما استوردوا لنا ملكاً من الحجاز عمدوا إلى تشكيل وزارة لا تملك من أمرها شيئاً برغم أن وزراءها عراقيون؛ فبجانب كل واحد منهم هناك مستشار بريطاني له طاقمه المتكون من معاونه وسكرتير مكتبه الخاص، وليس هذا فحسب؛ بل إنهم وضعوا على رأس كل مديرية مفتشاً له دائرته المستقلة ومكتبه؛ وهكذا عجت تلك المكاتب بأجناس عجيبة من هنود وأرمن يستقتلون لخدمة سادتهم الإنكليز... وليت الأمر توقف عند هذا الحد؛ فعند إعادة ترتيب ألوية العراق عينوا لكل متصرف لواء مشاوراً بريطانياً... وكذلك الأمر في الأقضية والنواحي: فبجانب كل قائمقام أو مدير ناحية ثمة مسؤول متعاطف مع سلطة الاحتلال!!

وأنهى كلامه بجملة بدا وكأنه يبصقها بصقاً:

– وهكذا أمسكوا بالحكومة من مقودها مثلما يُمسك بالدابة الجموح!

***

كانت مفارقة أن أتابع – بعد قراءتي تلك الصفحات من أرشيف روايتي – تقريراً، بثّته إحدى الفضائيات، عن السفارة الأمريكية في بغداد، واحتمال تقليص عدد العاملين فيها – بعد انسحاب الجيش الأمريكي – إلى عشرين ألف موظف فقط!!

– التاريخ يعيد نفسه، ولكنْ على شكل مهزلة كما هو معروف!

علقت وأنا أطفئ التلفاز، وحين رمقتني زوجتي بنظرة متسائلة أوضحتُ لها الأمر؛ فصاحت وهي تلطم خدها مستفظعة:

– إذا كان عددهم سيصبح، بعد الانسحاب، عشرين ألف موظف؛ فكم عددهم حالياً؟!

– وما أهمية العدد الذي تتطلبه سفارة على هذه الشاكلة وهي التي سبق لها أن اختارت مقراً لها، من دون الأماكن كلها، القصر الجمهوري رمز سيادة البلاد؟!!

قلتها وأنا أقلّب أوراقي في درج المنضدة الخاصة بالحاسوب، حتى إذا ما عثرت على بغيتي استطردت قائلاً:

– اسمعي ما ورد في هذه القصاصة التي احتفظت بها من إحدى الصحف الصادرة منذ أيام والتي يتحدث فيها راجيف شاندرا سيكاران، رئيس مكتب "الواشنطن بوست" في بغداد، عن مشروع كتاب لا يزال يعمل عليه، يتطرق فيه إلى حياة الأمريكيين في "المنطقة الخضراء" في بغداد، بعدها يورد نص الصفحة الأولى من كتابه، وهو ما سأقرؤه لك الآن... اسمعي: "غطس شباب سمر البشرة، بعضلاتهم المفتولة، وسواعدهم الموشومة، في بركة السباحة الواقعة في الحديقة الخلفية للقصر الجمهوري الذي يحتل قلب المنطقة الخضراء، بينما استلقى آخرون، بما يرتدون من سراويل عريضة ونظارات شمسية، على أرائك مظللة بأشجار النخيل الباسقة، يتناولون المقرمشات، ويرتشفون الشاي المثلج. استرخى – في الوقت ذاته، في الجانب المقابل – رجال ببزات الكاكي، ونسوة يرتدين ما هو رقيق من الملابس، في أحد الأكواخ الخشبية، ليعمد بعضهم إلى قراءة ما هو مبتذل من الروايات، ويستلقي آخرون بعد تناول الطعام في المقصف الحافل بالمأكولات، وبينما يستمعون إلى موسيقى "الهيب هوب" الأمريكية، عمل عشرة من العراقيين، من ذوي الأجساد النحيلة، بقمصانهم وسراويلهم الزرقاء المتماثلة، بين الفينة والأخرى، على تنظيف الأرض، وتشذيب الحدائق، وري المزروعات، يأتمرون بإمرة أمريكي ضخم الجثة، كث الشاربين، وقد بدا جميعهم، عن بُعد، كمجموعة من المساجين المقيدين بالسلاسل"!!

– يا ويلي عليكم أيها الذين تبدون كمجموعة مساجين مقيدين بالسلاسل؛ أمرة أخرى يخلف القادم من خلف الحدود وعده بأنه جاءكم محرراً لا فاتحاً؟!

هتفتْ زوجتي بطريقتها العاطفية المعهودة، فعلّقت وأنا أعيد القصاصة إلى الدرج:

– لا مفرّ له من أن يخلف وعده وصولاً إلى قطف ثمار عمله.

واسترسلت مذكّراً إياها بما يجري الآن بشأن الإعداد لمسودّة الدستور ؛ فقد بات من المعروف أن "مستشاري السفارة الأمريكية" يحرصون على حضورهم في خلفية المفاوضات الجارية على قدم وساق بين مختلف الكتل!

وسألتها متهكماً:

– أتتصورين أن سبب تأرجح هذه العملية بين مد وجزر يعود لاختلاف وجهات نظر الفرقاء العراقيين بينهم فقط؟ أبداً؛ فالأمر يعود في الغالب إلى الكسب الذي يجنيه المرشح الأمريكي – في شتى المجالات الانتخابية في بلاده – عما يجري هنا: وكأن العراق أمسى مضماراً لسباق خيول يتنافس على نتائجه المرشحون الأمريكيون لتحقيق المكاسب!

وكانت مسألة وضع مسودة دستور جديد قد باتت محور أحاديث الجميع؛ فما من يوم جمعة توجهت فيه إلى مقهى الشابندر إلا وفوجئت بصراخ الأستاذ حسيب رجب يعلو من وسط حشد الجالسين، حتى إذا ما دنوت من هناك وفي ظني أن أحد الحضور قد استفزه – وهذا ما كان يعمد إلى إتّباعه، كلما ساد الضجر على جلستنا، هاني الأحمد تاركاً لأمجد سالم، وهو يغالب ضحكاته الخبيثة، مهمة إذكاء النيران أكثر ! – اكتشفت أن مسودات الدستور – لا غيرها ! – هي سبب غضب الرجل: يقلّب نظراته الضارية في الوجوه، وهو يطرح أفكاره "النارية" المحيّرة التي لا يحظى عليها عادة بجواب، سائلاً مثلاً عن سر عدم التوازن بين الكتل التي يُفترض بالدستور أن يمثلها؟ أو مغزى جعل رفض الدستور المقترح منوطاً بثلاث محافظات؟ والفدرالية... ما المقصود بهذا المصطلح؟ أليس الأمر مقدمة لتفتيت البلاد إلى دويلات وطوائف؟ ثم ألا يلاحظ المنهمكون بوضع مسودة الدستور أنهم حوّلوا مسألة كركوك إلى عقب "أخيل"؟.. وكان يطرح سؤاله الأخير دون أن ينسى مبادلتي نظرة متواطئة انطلاقاً من أن سؤاله "الثقافي" ذاك يقع عندي موقعاً حسناً!

وفوجئت، ذات يوم جمعة، بغافل النجار ينسلّ بين الحضور ليجلس لصقي على التخت مبادراً إياي بـ"صباح الخير" مضمخة بعطر نفّاذ. وبعدما أصغى دقائق، بكل أدب، للأحاديث مال على أذني ليسرّ لي هامساً:

– آخر العلاج الكيّ!

– علاج ماذا؟

– الدستور طبعاً يا أستاذ!!

أجابني بطريقة بدا فيها وكأنه يشك بقواي العقلية!.. وأضاف متسائلاً وهو يتهيأ للانصراف:

– أليس من العبث إعادة طرح الأسئلة الأزلية نفسها التي سبق طرحها بدءاً بجمهورية أفلاطون وانتهاء بجمهورية غافل النجار الديمقراطية؟!

وغادرني دون وداع بعدما دسّ ورقته المطويّة المعهودة في كفي ليواصل تنقله بين التخوت حيث كان يختار أحد الحضور فيجلس لصقه لحظات تنتهي بأن يدس ورقته في كفه!

في البيت تجاهلت نقمة زوجتي التي أثرتها بسبب تأخري في المقهى لما بعد موعد الغداء؛ فأهملتُ أطباق الطعام أمامي لأنصرف إلى التدقيق في ورقة غافل النجار بحثاً عما كان يقصده بكلامه الغامض. وكانت الورقة تحمل على وجهيها – كما في كل مرة – سلسلة مقتطفات من مقالات وحوارات سبق له أن نشرها أكثر من مرة، تتخللها صور له بالقبعة تارة وبالسدارة طوراً.

وكانت هناك "مانشيتات" بخطوط عريضة يحمل بعضها عناوين مثل "مؤسسة السجناء السياسيين.. هموم تحتاج إلى من يستمع إليها"، أو "ما بعد الخط الأحمر"، أو "الحوار ثم الحوار لحل المعضلة العراقية"، أو "ثقافة السندان"، أو "دمقرطتة البلاد أولاً"... وبعدها، في آخر عمود، ورد مانشيت نصه "معضلة الدستور: التشخيص و...العلاج" تلته إحالة على "جمهورية غافل النجار الديمقراطية" كونها هي وحدها الكفيلة بتقديم "الترياق"!!

***

وسط "معمعة الدستور" تلك فوجئت، صباح ذات يوم، باتصال هاتفي من "دنيا" أخبرتني فيه بأنها في بغداد، وحين سألتها عن كيفية لقائنا؟ اعترفت ضاحكة أنها لا تعرف من جانب الكرخ، حيث أسكن، سوى شارع الأميرات، فطلبت منها أن توافيني بعد ساعة في ذلك الشارع عند "جامع الرحمن"، فقاطعتني سائلة:

– وأين يقع هذا الجامع؟

– إلى يمين الداخل، قريباً من المدخل.

– أتعني ذلك البناء الكونكريتي العجيب الذي تعلوه قبة هائلة الحجم وسط عدد لا يحصى من القباب والرافعات العملاقة؟

– تماماً هو الذي أعنيه.

فعلّقتْ ضاحكة:

– لم يخطر لي قط أنه جامع؛ فهو أشبه ما يكون بكاتدرائية!

وبرغم قرب المكان من محل سكني بيد أن الوصول إليه تطلّب أكثر من ساعة ونصف وذلك بسبب الإجراءات الأمنية المشددة؛ فنقاط التفتيش كانت تقطع عليّ السبيل كل بضعة أمتار، حيث يطالعني رجال ملثمون مزودون برشاشات وأجهزة اتصال تقتصر مهمتهم على عرقلة حركة سير السيارات وهي تتخطاهم واحدة في أعقاب الأخرى في سير بطيء يبعث على الجنون.

لم أكد أصل إلى المكان المنشود حتى فوجئت بـ"دنيا" واقفة في انتظاري بهيئة جديدة كان من المحال أن أعرفها بها لولا معرفتنا السابقة؛ فقد كانت دون حجاب، ينسدل شعرها الأشقر في

خصلة واحدة خلف ظهرها، وقد ارتدت ملابس أنيقة، وثمة حلى، من المؤكد أنها ذهبية، تزين عنقها وزنديها!

- لا شك أنك تحسبني جئتك متنكرة؟!

سألتني مبتسمة لحظة دلفت إلى السيارة تسبقها رائحة عطرها، فأجبتها مازحاً وأنا أصافحها:

- يبدو أن من دأب القادمين من الأسلاف، بعد التاسع من نيسان، أن يعمدوا إلى التنكر قبل وصولهم إلى بغداد؛ فسبق لي أن فوجئتُ بهيئة يحيى لحظة التقيته أول مرة في بغداد بعد رحلتي المشؤومة إلى الأسلاف!

واعتذرتُ إليها لتأخري بسبب الإجراءات الأمنية المشددة، فعلّقتْ بدورها:

- أعرف؛ فسيارة الأجرة التي حملتني من الرصافة إلى الكرخ شقت سبيلها بشق الأنفس وسط آلاف السيارات المحشورة في الشوارع وكأن الدنيا انقلبت!!

وحين طلبت منها أن تذكر المكان الذي تفضّل الجلوس فيه أجابتني من فورها:

- المكان الذي اعتاد يحيى أن يصطحبني إليه كلما قصدنا هذا الشارع؛ أعني مرطبات "الروّاد".

فسألتها، وأنا أقود سيارتي على مهل، عن سر ملازمتهما - هي ويحيى - هذا الشارع المترف؟ فأجابتني ضاحكة:

- ذلك هو السبب؛ لكونه شارعاً مترفاً!

وأردفتْ متحدثة عن الأميرتين الهاشميتين "بديعة" و"جليلة" ابنتي الملك علي وأختي الوصي على عرش العراق عبد الإله، واللتين كانتا من أوائل من بنوا دوراً سكنية في هذا الشارع الذي اتخذ اسمه منهما.

- وهل تنوين الاقتداء بهما عسى أن تصبحي أميرة مثلاً؟

سألتها مازحاً، فأجابتني من فورها ضاحكة:

- وما جدوى الاقتداء بمن أمستا "دقة قديمة"؟ فقد انتهى مصير دار إحداهما إلى تاجر غنم، في حين تدهور حظ الثانية، بعد زمن الأمجاد والترف، فباتت محل مزاد علني!

وكنت، في أثناء حوارنا، قد اجتزت شارع الأميرات بسيارتي حتى نهايته لأستدير عائداً بها إلى الشارع العام حيث عبرت إلى الجهة المقابلة لأوقفها عند الرصيف المحاذي لمرطبات الرواد.

- اسمح لي أن أدعوك، هذه المرة، على حسابي لكوني من الزبونات القديمات.

رجتني "دنيا" ضاحكة وهي تتقدمني نحو الواجهة الزجاجية للمحل لتسبقني في دفع ثمن المثلجات التي عدنا بها لنجلس إلى إحدى الموائد القليلة الموزّعة على الرصيف حيث "دنيا" أخبرتني بأنها قدمت إلى بغداد، هذه المرة، دون علم يحيى وذلك لشأن خاص. ومضت، وسط

ضجة السيارات في الشارع وصخب الناس في رواحهم ومجيئهم من حولنا، تتحدث عن الوضع المقلق في الأسلاف.

بدا وجهها على شحوبه المعهود برغم أنه لم يخلُ من لمسات زينة سريعة. وكانت عيناها الكبيرتان الغارقتان وسط كثافة أهدابهما تتصيدانني، بين فينة وأخرى، بنظرات خاطفة لتواصلا بعدها ملاحقتهما للسيارات.

– لكنك لم تخبريني بسر تعلّقكما بهذا الشارع!

كلّمتها وأنا أراقبها وقد انشغلتْ بالنقر بملعقتها على كتلة المثلجات التي تملأ، بألوانها المتعددة، كأسها، فأجابتني بشيء من التردد:

– ذلك لأننا اشترينا أحد بيوته!!

تأملتها لحظات غير مصدّق ما سمعت؛ فالبيوت هنا مرتفعة الأثمان لكون الشارع من أرقى شوارع بغداد!

– لأنكم؟ من تعنينه بهذه "أنكم"؟

سألتها بشيء من قسوة؛ فرمقتني من فورها بنظرة الذعر القديمة التي كانت دائمة الارتسام في عينيها، كمن اعتاد زجر الآخرين، لتوضح بعدها باندفاع وكأنها تدفع عن نفسها تهمة:

– أنا ويحيى بطبيعة الحال!

– أنت ويحيى؟ وهل استعضتما عن استنساخ الكتب بالمتاجرة ببيع العقارات هذه المرة؟

عدتُ أسألها بالقسوة نفسها، فتأملتني لحظات بعينين لم أدرك جمالهما إلا تلك اللحظة. وكانت شمس الصباح قد انصبت على وجهها جانبياً كاشفة اتساق تلك الملامح وسط هالة شعرها الأشقر الذي زادته الشمس سطوعاً.

– أصدقني القول يا أستاذ: أأنت غاضب مني لأمر أجهله؟!

فوجئت بسؤالها؛ فبادلتها النظر لحظات وأنا في حيرة من كيفية الرد، لكنها سارعت بانتشالي بأن استرسلت مبتسمة:

– أنا أعرف طبعاً ما حصل بينكما يوم كنتما في طريقكما إلى مطعم "فلس"!... بالمناسبة: أيوجد مطعم بهذا الاسم حقاً؟ أم أنك اخترعته من باب النكاية بيحيى؟

واسترسلت في كلامها دون أن تنتظر ردي: فتحدثتْ عما سببته من ألم ليحيى في ذلك اللقاء العاصف الذي انتهى بخروجي من سيارته – وسط هدير أجهزة تنبيه السيارات الذي انطلق احتجاجاً على قطع يحيى عنهم السبيل بإيقاف سيارته وسط الشارع – صافقاً ورائي بابها منهياً بذلك صداقة كانت مضرب المثل في الأسلاف.

– صدّقني يا أستاذ: لم يكن يحيى يستطيع الإمساك بدموعه كلما تطرق إلى ذكر تلك اللحظات، وحينما كنت اسأله عما يمنعه من أن يتصل بك هاتفياً منهياً بذلك ما حدث بينكما من سوء فهم

مرده جهلك – واعذرني على هذه المفردة – بحقيقة الأمور؟ كان يؤكد استحالة أن ترد عليه، مكرراً أنك أخذت في احتقاره منذ حدثك عن عمله في المنفذ الحدودي وما ترتب على ذلك من تحسّن أوضاعه المادية.

– لم يكن مخطئاً في يقينه ذاك!

قاطعتها وقد فاض بي الكيل. وأفرغتُ كل ما تراكم في صدري من غلّ ليس بإزاء يحيى فحسب، بل بإزاء كل ما يجري في طول البلاد وعرضها من سلب ونهب منظمين بدءا منذ التاسع من نيسان ليزدادا عنفاً وشراسة بمرور السنوات!

– أتدرين ما هي الأسطورة التي فوجئت بالناس يتداولونها يوم عدت إلى بغداد عقب سفري بأسرتي إلى الأسلاف هرباً من الاجتياح الأمريكي المرتقب؟

باغتُّ "دنيا" بذلك السؤال، واستطردتُ متحدثاً عما أشيع عن توقف "كهرمانة"، في نصبها القائم في "الكرادة"، عن سكب الزيت في جرارها، منذ التاسع من نيسان، حيث شوهد أربعون لصاً يثبون تباعاً مغادرين تلك الجرار ليتوزعوا، تحت جنح الظلام، في شتى أرجاء بغداد!

– أنا لم أصدّق تلك الأسطورة بطبيعة الحال؛ بل عزوتها إلى شعور الناس بافتقاد الأمان، لكنني الآن، حين أستعيدها مع نفسي، أذهل لمدى قدرة الحس الشعبي العريق على استباق الأحداث: فها هو ما كان يخشى حدوثه منذ أول يوم للاحتلال وقد بات تحصيل حاصل مع فارق تمثّل بأن هؤلاء اللصوص أمسوا الآن يعدون آلافاً مؤلفة في طول البلاد وعرضها!

– يا لها من صورة سوداوية هذه التي يتبدى لك فيها يحيى المسكين!

علّقتْ "دنيا" وهي تتأملني بأسى، فأجبتها كالمعتذر:

– اعذريني فالأمر خارج عن إرادتي.

فعادت تتأملنني بنظرة ثابتة قبل أن تسألني على حين غرة:

– هكذا تحتقره دون أن تعرف دافعه لعمله ذاك؟

– وما يكون دافعه غير تسويغ عمله بذكر الأسباب المعهودة: فقره الأبدي، وطفولته البائسة، وقسوة أبيه "المبيضجي" وهو يتمايل يميناً وشمالاً في تجليته للأواني النحاسية، وقسره على زواج مبكر لأن من تزوجها كانت دون مهر وأنها...

وسكت مستعيداً مع نفسي بقية كلام يحيى عن أبيه وهو يخبره، وسط شتائمه، أن زوجته ستكون بمثابة ثقب سيفي بأغراضه الدنيئة قبل أن يورّطه مع إحدى بنات الجيران!

– ولكن الأسباب التي كان يستند إليها حقيقية ولم تكن قط تسويغاً لعمله هناك.

قالتها وقد زوت ما بين حاجبيها استنكاراً، فأجبتها متهكماً:

– في هذه الحالة ما من امرئ ينحرف عن سواء السبيل إلا وله الأسباب التي يسوغ بها انحرافه!

– من المؤكد أن كلامك صائب لو كانت الأمور تجري في سياقها الطبيعي لا كما شأنها الآن إذ الأخ يكاد يفترس أخاه.

ومضت تحدثني عما يجري في الأسلاف الآن حيث الجميع في سباق محموم لاغتنام الفرص المتاحة بعد سنوات الحصار التي حرموا خلالها من أبسط وسائل العيش كبشر.

– يدهشني أن أسمع منك هذا الكلام الغريب وأنت المسيحية التي تربّتْ على قيم الفداء والتضحية!

قاطعتها بتلك الجملة الاستفزازية؛ فكفت من فورها عن النقر على كتلة المثلجات التي كانت قد بدأت بالذوبان في كأسها. وسألتني ويدها معلقة بالملعقة في الهواء:

– وهل اختلف المسيحيون في عمق معاناتهم، في فترة الحصار، عن المسلمين؟

– أبداً؛ لقد ذهبت بعيداً في فهم كلامي، في حين أنني تذكرت – وأنا أسمع تسويغاتك – ما ورد في الإنجيل: "ما قيمة أن تكسب العالم وتخسر نفسك"؟

– ما ورد في الإنجيل هو كلام الله... أما أنا فأعيش على الأرض حيث لا سبيل لي إلى الحصول على خبزي "كفاف يومي" إلا بشقّ النفس!

قالتها وهي تغرز الملعقة بحركة سريعة في كتلة المثلجات، وسحبت منديلاً ورقياً من حقيبتها اليدوية أخذت تمسح به أصابعها وهي تتطلع أمامها بنظرة ساهمة.

– نحن سلالة آيلة إلى الانقراض!

أضافت بصوت خفيض وكأنها تخاطب نفسها. وسألتني وهي تحدق في عيني مباشرة:

– أتدري يا أستاذ كم عدد المسيحيين الذين يعيشون الآن في الأسلاف؟ إنهم لا يكادون يتخطون أصابع اليدين إلا قليلاً!

ومضت تتحدث عن شروع المسيحيين بالهجرة إلى أوربا وأمريكا وأستراليا ونيوزلندا منذ اشتعال الحرب بين العراق وإيران، حتى إذا ما فرض الحصار في أعقاب احتلال الكويت تضاعفت أعداد المهاجرين لتتحول إلى أرقام فلكية بعد الاحتلال الأمريكي وبروز التنظيمات الأصولية المتطرفة على الساحة، هذه التنظيمات التي ناصبت الأقلية المسيحية العداء.

– تصوّر... لم يبق من أسرتي سوى حشد عجائز أصغرهم أنا التي تخطيت الثلاثين من عمري. إنهم مجموعة رجال ونساء يبعث منظرهم – بشعرهم الأبيض، وظهورهم المحنية، وخطاهم المتعثرة وهم يتجولون في أرجاء البيت دون هدف – على الشفقة. إنهم لا يجازفون بالخروج إلا عند الضرورة القصوى، وإن حصل فلا مفر لنا من أن نتصل بهم هاتفياً – وحمداً لله لأن وجود الهاتف النقال يوفر علينا الكثير من القلق – لنطمئن إلى أنهم وصلوا إلى أهدافهم بسلام ولم يختطفوا مثلاً لنساوم على إطلاق سراحهم لقاء مبالغ خيالية!

وصمتت لحظات لتلتقط أنفاسها قبل أن تواصل الكلام:

– والحجاب؟ هل سمعت قبل الآن بمسيحية تعمد إلى الاقتداء بالمسلمات في ارتداء الحجاب؟ لا أعني نفسي بطبيعة الحال؛ ذلك لأنني لم أتحجّب إلا استجابة لإلحاح يحيى، بل أعني أفراد أسرتي المسنّات: إذ من المحال عليهن مثلاً الخروج حاسرات الرؤوس؛ ذلك لأنهن لن يطقن النظرات المنتقدة والمستهجنة التي تلاحقهن في رواحهن ومجيئهن، هذا إذا لم يتطور الأمر إلى الزجر علناً، أو الإهانة والضرب كما حصل أكثر من مرة!

– أيعقل أن أثير لديك كل هذه التداعيات لمحض سؤالي البريء إن كنتما قد استعضتما عن العمل باستنساخ الكتب بالمتاجرة ببيع العقارات؟

سألتها وأنا اصطنع الدهشة، بيد أنها لم تؤخذ بطريقتي في طرح السؤال؛ ذلك لأنها أجابتني متهكمة:

– يا له من سؤال بريء!... يبدو أنك يا أستاذ – وأعتذر مرة أخرى على صراحتي معك – لا تزال تنظر إليّ نظرتك إلى "دنيا" المحجّبة وهي منهمكة بالعمل على آلة الاستنساخ!

وأضافت وهي تزيح بظاهر يدها كأس المثلجات من أمامها لتنحني على المنضدة مقرّبة وجهها مني وهي تتطلع إليّ عن كثب:

– لم أجازف في القيام بهذه الرحلة إلا لكي التقيك لأجل أن أبدد ما تراكم لديك من أوهام عن العلاقة التي تربطنا أنا ويحيى... ذلك لأننا متزوجان... نعم أنا ويحيى متزوجان، والبيت الذي اشتراه في هذا الشارع المترف هو مهري!!

***

يومذاك لم أملك إلا أن أصغي إلى "دنيا" وهي تحدثني – على امتداد الوقت الذي استغرقه إيصالي إياها بسيارتي إلى موضع قريب من منطقة "الشورجة" – بدقائق تلك الصفقة – صفقة شراء البيت – التي لم يستطع يحيى الإيفاء بها كاملة؛ فلم يجد مفراً من توقيع عدد من "الكمبيالات" التي اضطرته بالنتيجة إلى الاستماتة في عمله في المنفذ الحدودي لدفع ما بذمته بحسب تواريخ السداد.

في طريق العودة إلى البيت، وأريج عطر "دنيا" لا يزال يضوع من حولي في السيارة، تذكرت "مي" التي كانت تماثل "دنيا" في صراحتها وجرأتها؛ فقد اعتادت أن تتحدث على مسمع من زوجتي عن ماضيها، وكيف أنها، وبتأثير من تربيتها الأسرية، انتمت، في مراهقتها، إلى إحدى المنظمات الفلسطينية اليسارية العاملة في لبنان لتتزوج أحد قادة تلك المنظمة زواجاً لم يستمر سوى أشهر انتهى بحصار الإسرائيليين لبيروت وإجبارهم المنظمات الفلسطينية على الجلاء عن لبنان والاتجاه نحو تونس، فعادت "مي" بدورها مهزومة إلى بغداد لتستثمر تلك الفترة العابرة من حياتها بكتابة سلسلة مقالات عن تجربتها كفتاة عراقية انتمت إلى صفوف العمل الفدائي نشرتها في إحدى المجلات الأسبوعية تحت عنوان "عشتار بالكاكي".

حين عرّف بهجت لطيف أحدنا إلى الآخر، بعد هجرتي في التسعينات إلى بغداد، كانت قد باتت اسماً راسخاً في الوسط الثقافي: تحرر عموداً أسبوعياً في تلك المجلة. وكانت المهرجانات الموسمية ــ ولاسيما مهرجان المربد السنوي ــ قد وفرت لنا فرص اللقاء في تلك الفنادق الراقية مثل "الميليا منصور" و"الميريديان" و"الشيرتون" و"الرشيد" حيث كنا نحضر الجلسات الشعرية التي كانت تعقد في قاعة مسرح الرشيد المواجهة لفندق "الميليا منصور" أو في "قصر المؤتمرات" المقابل لفندق "الرشيد". وكان من المألوف أن نجلس على مقعدين متجاورين، حتى إذا ما سبق أحدنا الآخر في الحضور حجز سلفاً المعقد المجاور.

كنا نهتز طرباً للقصائد الجميلة لنتبادل نظرات استنكار ونحن نسمع نصوصاً عجيبة لا تمت إلى الشعر بصلة، ملاحظين تقارب ذوقينا وتشابههما في فرز الشعر الجيد عن الرديء.

وكنا نحرص على أن نشارك في تلك السفرات السياحية التي كان المشرفون على المهرجان ينظمونها لأعضاء الوفود العربية إلى "نصب الجندي المجهول" أو "الشهيد" أو المتحف العراقي، أو إلى آثار بابل وبحيرة الرزازة. وكنا نسابق الآخرين في استقلال إحدى السيارات لنجلس متجاورين نردد، مع الآخرين، الأغنيات، حتى إذا ما التقت أعيننا تبادلنا الابتسام.

كنت أدرك، دون شك، فارق السن بيننا؛ فقد كنت أكبرها بأعوام، بيد أنها ــ بلباقتها وحيويتها وجرأتها الخارجة عن المألوف في تعاملها مع الرجال ــ كانت تجعلني أتجاوز ذلك الفارق، كما أن رواياتي أسهمت في التقريب بيننا؛ فقد أحبتها، ودأبت على مناقشتي في أحداثها ونحن جالسان وسط الآخرين في جانب من فندق "الميليا منصور" متحلقين حول نافورة صغيرة تصب مياهها المتدفقة في حوض دائري من الرخام.

وكانت لها بدورها تجربتها الروائية الأولى، هذه التجربة التي لم تكن قد أنجزت منها سوى فصول معدودة رفضت أن تسمح لي بالاطلاع عليها إلا بعد طول ممانعة؛ فقد كانت تقول بوجه احمرّ خجلاً:

ـ لا أريد لهذه الفصول أن تصبح لديك مادة للسخرية والتندر؛ إذ أين هي من تجربتك الطويلة التي ترسخت بالعديد من الروايات المتميزة؟

لكنها اضطرت، وبعد طول تردد وإحجام، إلى أن تسلّمني فصولها تلك لتشرع بعدها في ملاحقتي باتصالات هاتفية كانت تبدأها بسؤال محدد:

ـ ها "حباب"؟ أخبرني دون لحظة تردد: أما تزال فصولي المسكينة في حوزتك أم أنك تخلصت منها لرداءتها برميها في اقرب سلة مهملات؟

ويوم رجوتها الكفّ عن ادعاء التواضع؛ فالفصول التي قرأتها تدل ــ إن استطاعت الوصول بها إلى خاتمة مقنعة ــ على ولادة روائية جديدة سيكون لها شأن كبير، فوجئتُ بها تصيح في الهاتف:

ـ أحبك... أحبك... أحبك... بل أموت عليك!

والحق أنني لم أجاملها في رأيي ذاك؛ فقد أحببت تلك الفصول من صميم قلبي، ووجدتها قريبة إلى نفسي، تتشابه كثيراً مع أسلوبي الروائي، ولعل هذا الشعور يعود إلى حبنا المشترك لروايات أمريكا اللاتينية وللواقعية السحرية وما خلّفتْ من أثر على الرواية العربية.

هكذا، مع كل فصل جديد تنتهي من كتابته لتسلّمه إياي، أخذتْ علاقتنا تأخذ لها منحى عاطفياً بتنا معه نقوم باتصالات هاتفية يومية، كما أخذت تزورني في بيتي بحجة استعارة الكتب ـ ولاسيما الروايات ـ من مكتبتي. وارتبطت بزوجتي بصداقة كان من الممكن لها أن تترسخ وتستمر لولا لذعات الغيرة التي أخذت تنغّص علينا حياتنا الزوجية مع كل زيارة، وهي لذعات لم تكن وهمية؛ فبسببها، وبسبب إعجابي بما كتبت أخذنا نتحين الفرص ـ مثل المراهقين تماماً ـ للقاء في متنزه "الزوراء" باحثين، بلهفة عاشقين، عن أكثر مقاعد المتنزه انزواء وبعداً عن الأنظار!

***

قبل وصولي إلى البيت تنبهت إلى وجود حشد من الناس عند كشك "أبو منير" الذي كان مغلقاً، حتى إذا وقفت بسيارتي عند باب البيت فوجئت بزوجتي تنتظرني في الحديقة لتسارع بفتح الباب؛ فسألتها مازحاً بعدما ركنت السيارة في مكانها المعهود:

– يبدو أن هناك مناسبة تاريخية – كأن تكون ذكرى زواجنا مثلاً – هي دافعك إلى تدليلي كما أظن!

لكنها لم تجبني من فورها؛ إنما قادتني من يدي، حتى إذا ما أصبحنا في الداخل خاطبتني وثمة نظرة رعب قد ارتسمت في عينيها:

– لقد اغتالوا "أبو منير"؛ اقتحموا عليه حانوته منذ أكثر من ساعتين ليصلوه بعشرات الطلقات قبل أن ينسحبوا بطرفة عين!!

– من هم الذين اغتالوه؟

سألتها وقد ارتفع وجيب قلبي مستعيداً بلمحة خاطفة نتفاً من ذكرياتي مع هذا الجار الوديع الذي كان من دأبه أن يمسد لحيته كلما همّ بالكلام، فأجابتني وقد أخذت الدموع تترقرق في عينيها:

– كانوا مجموعة رجال ملثمين لم يتركوا وراءهم سوى هذا المسكين مضرجاً بدمه وهو يتخبط وسط بضائعه قبل أن يسلم الروح!

واسترسلت محذّرة بعد لحظات بقينا نتبادل خلالها النظر مذهولين:

– ينبغي لك الآن أن تكون أكثر حذراً؛ فثمة ما ينبئ بأن الأمور آخذة بمزيد من التردي!

لم أجد في نفسي الرغبة بالرد؛ فأقصى ما تمنيته تلك اللحظة هو الإسراع باستبدال ملابسي واللجوء إلى فراشي لأنام كالحجر.

اعتكفت، طوال الأسابيع اللاحقة، في البيت، لا أكاد أغادره إلا لماماً؛ فالوضع الأمني – كما تنبأت زوجتي – ازداد سوءاً ولاسيما بعد الاستفتاء على الدستور وانتشار شائعات عن عمليات تزوير لجأت إليها القوى المتنفّذة سعياً منها إلى أن ينتهي الاستفتاء بتلك الطريقة، حتى إذا ما جرت الانتخابات البرلمانية في الخامس عشر من كانون الأول وتأجل إعلان النتائج إلى السنة القادمة عادت الشائعات تزداد قوة عن عمليات تزوير جارية على قدم وساق، ومعها برز اسم "الزرقاوي" كزعيم لمنظمة متطرفة قامت بسلسلة عمليات انتحارية ذهب العشرات من الأبرياء ضحايا لها. وأخذ أعضاء الميليشيات الأصولية يظهرون علناً في وضح النهار بعدما كانوا يحرصون في السابق على التكتم في تحركاتهم: يضربون ضربتهم دون أن يظهر لهم أثر.

بيد أن المفارقة أن هذا التطور حصل في أعقاب مشهد "سريالي" لم نحسب آنذاك أنه سيكون أشبه بنذير لأكثر الحوادث عنفاً ودمويّة: مشهد قطيع من الماعز – من تلك القطعان التي اعتاد رعاتها الكسالى تركها تسرح على أطراف البيوت – وقد أُخفيتْ أعضاؤها التناسلية وأثداؤها الطافحة باللبن بملابس داخلية بمختلف الألوان – يطغى عليها اللونان الأحمر والوردي – خيطت خصيصاً لذلك الغرض!!

وكان هذا المشهد الشاذ مدار أحاديث يومية كنا نتبادلها ونحن مجتمعون عند كشك "أبو منير"، وكان الراحل نفسه – الذي لم يكن يخلو من خفة دم – يحاول جاهداً التخفيف من جو الكآبة المهيمن؛ فيذكّرنا، من حين لآخر، بمنظر ذلك القطيع العجيب؛ إذ اعتدنا استعادة ذلك المشهد مقهقهين لنتبارى بعدها في تبادل تعليقات فكهة حول مبلغ "ثورية" تلك "الميليشيا" الأصولية التي وجدت في "عورة" الماعز أمراً بالغ الخطورة لا ينبغي غضّ الطرف عنه، دون أن ننسى التطرّق إلى مشاعر تلك الحيوانات المسكينة وهي ترى نفسها فجأة ملزمة بما اعتاد البشر الالتزام به من سلوكيات "أخلاقية" صارمة، ومحنة صغارها وهي تجدّ باحثة، بأفواه ظامئة، عن أثداء لم يعد من اليسير الوصول إليها، أما الرعاة فمن المؤكد أن وضعهم لا يُحسد عليه حين يفاجأون بمعزاة وهي بصدد قضاء حاجتها!

وكان "أبو منير" يذكي موجة الضحك مجدداً بسؤال مباغت:

– ترى ألا يحتمل أن تعمم تلك "الميليشيا" أمرها "الخطير" في المستقبل لتشمل به الخراف هذه المرة دون أخذ إلياتها بنظر الاعتبار؟!

وكنا ننهي جدلنا، قبل أن نتفرق ليعود كل واحد منا إلى بيته، بأنه لا ضير من الحرص على ستر عورة الماعز، بل إننا كنا نسوّغ الأمر زاعمين أن حفظ أثداء الماعز بتلك الطريقة خير من إبقائها مكشوفة معرّضة للسع البق والهوام الأخرى!

والغريب في الأمر هو أن ثمة شعوراً مبهماً بقرب وقوع كارثة أخذ يهيمن علينا برغم تصنّعنا المرح واللامبالاة؛ فحوادث القتل والاختطاف والابتزاز والسرقة كانت تزداد عنفاً وضراوة بمرور الأيام منذرة بأننا مقبلون على حدث مزلزل سيضع البلاد على شفا حرب أهلية، وذلك ما حصل صباح يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شباط؛ ففجأة طار النبأ المروّع: تفجير قبة الإمامين العسكريين في سامراء!!!

***

كلمات كهرمانة الأخيرة

كان أفراد الشرطة أول من اختفى من الشوارع المحيطة بحيّنا، لينسلّ، في أعقابهم، رجال الحرس الوطني، تاركين مواضعهم، المحصّنة بعوارض إسمنتية عملاقة، لسطوة رجال "ميليشيات" ملثّمين، بلحى مسترسلة، وملابس سود!

وأخذت بوادر الخطر القادم تظهر تباعاً: فذات يوم انتشر خبر تعرّض عسكري سابق، كان في طريقه إلى بيته، لإطلاق نار نجا منه بأعجوبة، فعمد، فجر اليوم التالي، إلى الفرار بأسرته. أعقبه، بعد أيام، تصفية فلاح عجوز اعتاد المرور بشارعنا محمّلاً بأدواته المعهودة للاعتناء بأشجار النخيل لقاء مبالغ متواضعة؛ فقد طورد من بيت إلى بيت وهو يستغيث وما من مغيث ليُنحر بدم بارد قرب باب بيتي بعدما عجز عن الركض!

وسرعان ما أُغتيل ربّ أسرة يقع بيته على بعد بضعة بيوت من بيتي، كان قد ألف الذهاب إلى الجامع القريب، فجر كل يوم، لأداء صلاته، قُتل أمام بيته؛ فبقي دمه المسفوح على شكل بقعة كبيرة لطّختْ إسفلت الشارع أسابيع!

كما لوحق سائق سيارة أجرة انحرف بسيارته نحو شارعنا حيث أدركه مطاردوه عند أول منعطف؛ فتناثر مخّه على زجاج سيارته المهشم!

وكان القلق قد خيم على الجميع؛ فخلا الحي من ساكنيه بالتدريج: لا أحد يلوح لي – حين أتطلع عرضاً من إحدى نوافذ الطبقة العليا – وهو يجتاز الشارع، وإنْ صادف ولمحتُ شخصاً ما فيكون عادة في عجلة من أمره؛ لا يكاد يظهر لحظة خاطفة حتى يختفي تاركاً الريح من بعده تواصل عبثها بأوراق الأشجار المتساقطة وبالأكياس البلاستيكية، محرّكة إياها بإصرار في طيرانها هنا وهناك. وكانت النفايات قد شرعت بالانتشار بعدما ازدادت تكدساً بمرور الأيام عقب فرار آخر الزبالين نافذين بجلودهم!

وتكفّلت الفضائيات وأجهزة الهاتف النقال بفضح ما يجري في طول البلاد وعرضها – وفي بغداد على وجه التحديد – من مجازر مروّعة تمثلت بمهاجمة الطوائف المتناحرة إحداها الأخرى عامدة إلى إحراق بيوت الله وذبح أئمة المساجد. وسمعنا مذهولين بمجالس فاتحة تقام على أرواح المغدورين، ينحر فيها أفراد من الطائفة المناوئة عوضاً عن الأضاحي!

لقد بات الخروج من البيت ضرباً من مغامرة: لا أجازف بخوضها إلا عند الضرورة القصوى، كأنْ اضطر إلى أن أعرّج على المصرف القريب لتسلّم راتبي التقاعدي؛ فأعمد إلى اتخاذ شتى ضروب التنكّر والخداع للذهاب والعودة بسلام. وكانت زوجتي قد جنّدت نفسها لتنوب عني في إيصال الصغار إلى مدارسهم القريبة فضلاً عن تزويد البيت بالمؤونة محررة بذلك إياي من التزاماتي السابقة.

لقد بات وقتي موزّعاً بين العمل في الحديقة والانفراد بالمكتبة: أقضي أغلب ساعات الصباح في النبش بمعزقي الصغير في التربة، مرمماً أكتاف أحواض النباتات، مطهّراً السواقي

مما تراكم فيها من أدغال، قبل أن ألتقط المقص لأقلّم، هذه المرة، غصناً من هذه الشجرة أو تلك، مقوّماً فرعاً خرج عن مساره من عريشة العنب، موجّهاً "الجهنميات" لتغطي بحمرة زهورها الجدران وحافات الشبابيك، مشذّباً في طريقي عناقيد زهور "الجيرانيوم"، وعرائش الياسمين، ونوارات "السنتوريا" الزرق، وبراعم القرنفل، شاعراً بأكثر من بتلة تسقط، بين فينة وأخرى، من حولي، وثمة بلبل لا يكفّ من الانتقال من غصن إلى آخر فوق رأسي صادحاً بتغريد عذب يتجاوب معه بلبل آخر من عمق الحديقة بتغريد مماثل.

هكذا كنت أعمل سعياً مني لنسيان ما لا سبيل لي إلى نسيانه؛ فوسط انهماكي بالعمل كنت أفاجأ، على حين غرة، بهدير مروحية أمريكية تمرق على ارتفاع خفيض سرعان ما تعقبها مروحية أخرى، يسبقهما ومض تلك القذائف الحرارية التي اعتاد الطيارون إطلاقها فوق "المناطق الساخنة" درءاً لصاروخ مضاد للطائرات قد يفاجئهم به "مجاهد" يتربص منتظراً في موضع ما.

كما كنت أتنبه، بين فينة وأخرى، إلى ذلك الطنين الرتيب الذي ألفه سمعي، طنين طائرة الاستطلاع "الزنانّة" وهي تجوب السماء ذارعة إياها بوصة بوصة في إثر بوصة.

حينما أعود بعد ساعات إلى البيت أسارع بإعادة أدوات العزق إلى موضعها، شاعراً ببشرتي – مع كل رشقة ماء أغسل بها وجهي – وقد تشرّبتْ بلفح الشمس. وفي المرآة التي تعلو المغسّلة كانت تطالعني ملامحي البليلة يعلوها شعري الأبيض الذي لا تزال بتلات بعض الأزهار ملتصقة به.

بعدها كان يحلّ دور المكتبة؛ فأرتقي درجات السلّم نحو الطبقة العليا لأتنقل بعض الوقت بين غرفها على غير هدى قبل أن أدخل في النهاية إلى المكتبة حيث أتهالك على الكرسي تاركاً يدي تمتد بحركتها التلقائية نحو المصباح المنضدي، المستقر في مكانه المعهود فوق المكتب، مضيئة إياه.

وكما هو متوقع: كان يطالعني أرشيف الرواية مبعثراً تحت عينيّ، يغريني بمتابعة الحدث الذي توقفت عنده آخر مرة؛ وكأني ببدر فرهود الطارش يطالعني بزرقة عينيه من بين الأوراق وقد انسدل جفن إحداهما إلى المنتصف – مثل ستارة نافذة نصف مسدلة – معاتباً إياي لانشغالي عنه أطول مما ينبغي!

والحق أن الحوارات التي كنت قد خرجت بها مع بدر، وهو يتحدث عن تلك الفترة التي أعقبت أول لقاء له مع المستر "تومسون" في "القشلة"، بقيت تدور حول نشاطات "المس بيل" وهي تعيش آخر أيامها، منصرفة إلى وضع اللمسات الأخيرة على "متحفها" – كما اعتادت أن تردد نصف جادة نصف مازحة! – فضلاً عن قيامها بزيارات متعاقبة إلى مواقع التنقيبات في "أور" و"لكش" سعياً منها للحصول على حصة المتحف المستحدث من آخر القطع الآثارية التي عُثر عليها.

وكان بدر ملزماً بأن يتهيأ، بين أسبوع وآخر، للتوجه إلى "القشلة"؛ إذ بات من المألوف أن يتردد صوت منبه السيارة أمام البيت حيث يطالعه السائق الهندي بعمامته الملونة وابتسامته المعهودة من خلف المقود وهو يربت على الموضع المحاذي له، داعياً إياه للجلوس بجانبه ليحمله إلى شارع "الأكمكخانه".

وكان بدر يلتقي، في غرفة "الحجارة البابلية"، المستر "تومسون" والسكرتيرة الشرقية "المس بيل" وهما يشرفان على عملية نقل القطع الآثارية إلى تلك البناية الملحقة بمطبعة الحكومة في شارع المأمون، والتي أُختيرت لتكون أول متحف عراقي.

وكانت "الخاتون" قد اعتادت أن تستقبل "بدر" باسمة، وبعدما تتأمله لحظات بعينيها الملونتين مثل عيني دمية كانت تردد جملة واحدة اعتادت تكرارها مخاطبة بها زميلها:

– سبحان الله!.. كأني بهذا الصبي العراقي النسخة "النيجتف" منك!

فكان المستر "تومسون" يتحول إلى اللغة الإنكليزية ليحاورها بها وهو يطلق ضحكات منتشية كاشفاً منابت أسنانه المسودّة بفعل التدخين.

يوم الاثنين، الرابع والعشرين من حزيران – كما يتذكر بدر جيداً – استدار السائق بالسيارة – وقبل الوصول إلى شارع "الأكمكخانه" – إلى شارع المأمون حيث معالم الزينة كانت قد رُفعت على بناية المتحف العراقي، ولم تمر سوى دقائق حتى تقاطرت سيارات رجال البلاط الملكي على ذلك الموضع محيطة بسيارة فخمة ترجّل منها الملك فيصل الذي أشرف على افتتاح المتحف.

منذ ذلك اليوم بات المتحف وجهة بدر كلما حمله السائق الهندي بالسيارة السوداء إلى هناك، حيث تكون "الخاتون" قد سبقته – وفي صحبتها المستر "تومسون" بطبيعة الحال – إلى المتحف لترابط في القاعة الوحيدة التي نظمت فيها القطع الآثارية بحسب التسلسل الزمني، مراقبة باستمتاع زوار المتحف وهم يتجولون متهيبين بين تلك القطع الحجرية الشاخصة حولهم، مصغين بانتباه لملاحظات القيّم وهو يسرد لهم تاريخ كل واحدة منها.

ذات يوم فوجئ بدر، لحظة وصوله إلى المتحف، بـ"الخاتون" تقدم له مغلّفاً مخاطبة إياه بالعربية:

– هديتي لك اليوم تتكون من مطبوعين: عدد من مجلة "ناشيونل جيوجوفرافك" خاص بمقبرة "توت عنج آمون" التي أكتشفت منذ ثلاثة أعوام، والترجمة العربية التي صدرت منذ أسابيع لكتاب برستيد "العصور القديمة".

وأضافت متأملة إياه بعيني الدمية:

– آمل أن يذكّرك بي هذان المطبوعان مدة طويلة... ولكنْ ليس بطول أعمار ما تحيط بنا من قطع آثارية بالتأكيد!

وكان ذلك آخر عهد بدر بـ"الخاتون"؛ ذلك لأنها توفيت بعد أسابيع وهي نائمة في فراشها!

هكذا بدأت علاقة بدر بالآثار، وكان للمستر "تومسون" الدور الأساس في تعميق تلك العلاقة؛ فقد دأب، كلما أتيحت له الفرصة المناسبة، على اصطحابه في رحلاته إلى أماكن التنقيب ولاسيما في "أور" و"لكش"، وكانت رحلته الأولى إلى هناك أبعدها أثراً في وجدانه؛ ذلك لأنها كانت أول مرة في حياته يستقل فيها القطار.

وكان المستر "تومسون" قد حجز لتلك الرحلة عربة "بولمان" أُلحقت بالقطار، وكانت تلك العربة أقرب ما تكون إلى بيت متنقل كامل التجهيز، تتوفر فيها كل أسباب الراحة؛ فقد كانت مؤثثة بشكل رائع حيث توفرت فيها غرفة طعام وأخرى للنوم ضمت أربعة أسرّة: كل اثنين منها على جانب، وقد ثبت الواحد فوق الآخر. وكان أيضاً هناك حمّام ومطبخ، فضلاً عن مجال مخصص لراحة الموظف المكلّف بخدمة ركّاب العربة.

وكانت تسلية بدر، على مدى تلك الرحلة التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة، قد توزعت بين مطاردة الزنابير، التي كانت تقتحم العربة بكثافة لافتة للنظر، وتأمّل المناظر التي يمر بها القطار، والاستلقاء على السرير العلوي القريب من السقف الخشبي الصقيل.

في "مفرق أور" كانت في انتظارهما سيارة قال عنها "تومسون" إنها من طراز "فورد" وإنها من مخلّفات الحرب العظمى، وقد حملتهما على امتداد الميلين اللذين كانا يفصلانهما عن مواقع التنقيبات.

كان المنزل، الذي قُيّض لبدر أن يقضي فيه أياماً لا تنسى من حياته، محاطاً بأسلاك شائكة، تتقدمه ساحة مكشوفة مسوّرة، تقع على جانب منها قاعة الآثار، وعلى الجانب الآخر مكتب المهندس المعماري.

– هذه الجدران مشيّدة بالآجرّ المفخور المستخرج من مواقع التنقيب.

علّق المستر "تومسون" وهو يتقدم "بدر" مجتازاً الساحة. وأضاف ضاحكاً:

– آمل أن نحظى الليلة بنوم ثقيل تحت وطأة خمسة وعشرين قرناً هي عمر هذه الآجرات التي شهدت حكم كلكامش دون شك!

كان ثمة طباخ هندي مخمور في الغالب هو الذي يدير شؤون ذلك المنزل، فضلاً عن حارسين ريفيين مزودين ببندقيتين وأحزمة رصاص مهمتهما حماية البيت. وعلى مدى الأيام التي قضاها بدر هناك تسنت له معرفة أغلب رواد المنزل ولاسيما "ليوناردو وولي" رئيس البعثة وأكثر الموجودين نفوذاً، ومساعديه الثلاثة، فضلاً عن الأب "ليجرن"، خبير النقوش، و"ويتبرن"، و"جون روز"، والأب "باروز"، وأصغر أعضاء البعثة "مالوان".

وكانت هناك طبعاً زوجة "وولي" السيدة "كاترين" تلك المرأة المستبدة التي كانت مصدر رعب العمال؛ إذ كان يكفيها أن تظهر لهم، حينما كانوا يتورطون في نزاع، حتى كانوا يلوذون بالصمت لينصرفوا بعدها بهدوء خوفاً من أن يقعوا ضحية نقمتها التي لا رحمة فيها.

وقد حدّث "طومسون" "بدر" في إحدى المرات، وهو يغالب الضحك، عن لجوء هذه المرأة إلى ربط طرف خيط طويل بإبهام إحدى قدمي زوجها حينما ينفرد كل واحد منهما ليلاً بغرفته وذلك لتسحبه عند الحاجة – إذ كان نومها مضطرباً في العادة – لتوقظه من نوم ثقيل – بسبب إرهاقه بأعمال التنقيب على امتداد ساعات النهار – لم يكن ينفع معه الصياح!

وكان اصطحاب "تومسون" "بدر" إلى أحد مواقع التنقيب عن الآثار تجربة استثنائية هزته من الأعماق، وجعلته يرى في هذا العمل المثير حلم حياته: النبش في أعماق التلال بحثاً عما خلّفه الزمن من لقى وآثار يستدل بها على حضارات نهضت على أرض ما بين النهرين قروناً من الزمان قبل أن تندثر مفسحة المجال لحضارات جديدة سرعان ما انتهت إلى المصير نفسه.

بدت سفوح التلال، في ضوء شمس صباح ذلك اليوم، وقد اكتست، بعد الأمطار الأخيرة، باخضرار الأعشاب الممتدة على مدى البصر وقد طرزتها حمرة شقائق النعمان، وهنا وهناك تألقت زهور متعددة الألوان تكفل "تومسون" بذكر أسمائها مثل زهور الخزامى وقد اختلطت بها زرقة زهور السوسن مع ضربات من صفرة الزنبق.

وكان التل المنشود – الذي بقي العمال المزودون بالمعاول والمساحي والفؤوس والسلال يتوافدون عليه جماعات حتى تخطى عددهم المئتين – كان ذلك التل ينهض وسط كل ذلك الاخضرار على ارتفاع ستين قدماً وقد تخللت سفوحه الأخاديد والحفر التي خلّفتها أعمال التنقيب السابقة.

ومع الشروع في العمل ارتفع لغط العمال ووقع ضربات أدوات الحفر، تتخللها نداءات المشرفين التي قد تتحول أحياناً إلى صراخ وكلمات زجر. وكان المستر "وولي" في حركة دائبة بين الجموع، وعيناه تتخاطفان، من تحت حافة قبعته، بنظرات فاحصة مدققة.

– عماذا يبحثون؟

تساءل بدر بعدما عجز عن فهم سر ما يجري؛ إذ ما الغاية من انهماك هذا العدد الهائل من العمال في الحفر والتنقيب وجرف التراب؟

التفت "تومسون" نحوه وقد خفض عينيه ليتأمله لحظات باسماً قبل أن يجيبه:

– يبحثون عما خلّفه "يهوه" وراءه.

– ومن يكون هذا؟!

– إنه رب أرباب اليهود.

– استغفر الله العظيم؛ فلو كان الأمر كذلك فإنهم يبحثون في المكان الخطأ؛ ذلك لأنه يفترض بالسماء أن تكون مستقر الرب لا الأرض!

فتخلل "تومسون" بأصابعه شعر بدر وهز له رأسه وهو يعلق ضاحكاً:

– هاأنتذا صديقي الصغير تختصر الميتافيزيقا بضربة واحدة!

منذ ذلك اليوم – وعلى امتداد السنوات الثلاث عشرة اللاحقة حتى قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية – اعتاد بدر، قبل أن ينخرط بدوره في العمل في التنقيب عن الآثار، أن يطارد المستر "تومسون" بأسئلته المتعلقة بهذه الحرفة، مصغياً إليه وهو يكشف له أسرار هذا العالم الغامض والمثير في الوقت نفسه.

كان الاثنان ينصرفان عادة إلى مثل هذه الأحاديث كلما جمعتهما تلك العربة المترفة الملحقة بالقطار وهما في طريقهما إلى إحدى المناطق الآثارية، وكان أول ما حدّثه عنه يتعلق بواقعة تاريخية تعود إلى أكثر من خمسة عقود خلت – سنة ١٨٧٢ على وجه التحديد – حين أعلن عالم بريطاني مختص بالدراسات الآشورية اسمه "ج. سميث" أمام "جمعية الآثار التوراتية في لندن" عن اكتشاف مذهل زعزع ذلك اليقين الذي ظل راسخاً لدى الغرب عن "التوراة".

وكان ذلك الاكتشاف قد جاء في أعقاب عمل المختصين بالدراسات الآشورية على مدى خمسين سنة سبقت ذلك اليوم المشهود، حفلت بجهود مرهقة على حل رموز الكتابة المسمارية للرقم الطينية المكتشفة توّجت بالعثور على تاريخ مشابه لأدق تفاصيل رواية الطوفان الواردة في "التوراة"!!

وحدّث "تومسون" "بدر" كيف أن بلاد ما بين النهرين باتت، عقب ذلك الاكتشاف، مصدر اهتمام عدد كبير من رجال الدين المسيحيين؛ فأخذوا يتدفقون عليها منتحلين مختلف الصفات التي كانوا يتسترون بها على مهمتهم الحقيقية؛ فثمة من قدم كمنقب آثار أو طبيب أو تاجر أو سائح.

واستطرد موضحاً أن تقاطر هؤلاء الغربيين لم يقتصر على ذلك النمط من المغامرين؛ فثمة حركة تبشير بالدين المسيحي نشطت أواخر القرن التاسع عشر – سنة ١٨٨٩ على وجه التحديد – كانت مدينة "نيوبرونزويك" الأمريكية مركزها الرئيس حيث صادق عدد من شبان أمريكيين متحمسين على تأسيس منظمة تدعى "الإرسالية العربية الأمريكية" هدفها الرئيس التبشير بالمسيحية في منطقة الخليج والجزيرة العربية. وعقب القيام بدراسات ميدانية وإجراء لقاءات مع مبشّري الكنائس الأوربية الأخرى تم اختيار البصرة كمركز رئيس لأعمال الإرسالية وقاعدة لعملياتهم حيث كانت هناك قنصلية أمريكية تتكفل بحمايتهم من عداء السلطات العثمانية التي دأبت على فرض شروط قاسية على أعضاء البعثة مع مصادرة كتبهم وكراريسهم واللجوء إلى اعتقالهم أحياناً.

واستدرك "تومسون" منبهاً على أن التحاقه هو شخصياً بسيل المتدفقين على بلاد ما بين النهرين حصل بعد مرور سنوات على حركة التبشير التي كانت قد وسّعت أعمالها؛ فعمدت إلى بناء مدرسة للبنات في البصرة مزودة بمكتبة، كما أن أعضاء الإرسالية كانوا قد أفلحوا في القيام

برحلات إلى مدن جنوب العراق وقراه كانوا يوزعون فيها الكتب، ويفتتحون المكتبات الصغيرة، ويحاولون عقد الصلات مع بسطاء الناس.

التحق "تومسون"، في أول الأمر، بالقنصلية البريطانية في بغداد حيث كان حديث الساعة الذي يتناقله الموظفون بين غرف القنصلية وأروقتها يكاد يقتصر على الأحداث الأخيرة التي تكاد تعصف بالسلطنة العثمانية، وأبرزها إعلان "المشروطية" والحد من سلطة السلطان عبد الحميد، وسطوع نجم حزب "الإتحاد والترقي". وكان يرافق ذلك همس يتعلق بالتنويه بالصراع الخفي بين الدول الأوربية للاستحواذ على تركة "الرجل المريض"، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ماضية في تنافسها الشديد مع البريطانيين بترسيخ النفوذ عن طريق حملات التبشير؛ فاستغلت، عن طريق إرساليتها في البصرة، تفشي الأمية بإنشاء أول مدرسة للإرسالية سنة ١٩٠٨ كان يديرها المبشر "مورديك" لغرض التعليم ظاهراً، في حين كان الهدف الخفي تنصير التلاميذ؛ فبرغم أن منهاج المدرسة وضع بالعربية بيد أن أحد الدروس اليومية كان يركّز على قراءة الإنجيل وتفسيره، كما كان النشيد اليومي للتلاميذ أدعية مسيحية خالصة!

في السنة اللاحقة حصلت الإرسالية – بحجة تقديم خدمات صحية – على ترخيص بناء مستشفى "لانسنج" التذكاري؛ وبذلك توسعت مهام المبشرين الأمريكان فتهيأت لهم فرصة الذهاب بعيداً بنشاطاتهم؛ فلم يعد غريباً أن تصادف في أزقة المدن والقرى القذرة المغمورة في الغالب بالأوحال رجالاً بسحن متوردة وعيون ملونة وقد ارتدوا بزات فاخرة واعتمروا القبعات وهم يتجولون بالكتب المسيحية!

لم يصل "تومسون" إلى مدينة "الأسلاف" إلا بعد شهور انكبّ خلالها، في القنصلية البريطانية في بغداد، على دراسة آلاف الوثائق المتعلقة بهذه المدينة ولاسيما تلك التي تدور حول الصراع العشائري بين الفخذين المتناحرين من عشيرة "البواشق": "بيت طارش" و"آل مطلق". وكان قد أعدّ ملفات عن أبرز الرجال المتنفذين في المدينة وفي مقدمتهم "مانع الشيخ عاصي" – أول مدير للناحية المستحدثة بعد إلغاء "المشيخة" – و"فزع الطارش"، بيد أن ما لفت انتباهه تلك التقارير السرية المتعلقة بمبشرين أمريكيين أغلبهم أطباء من خريجي أعرق الجامعات الأمريكية تقف من ورائهم مؤسسات دينية تموّلهم بما يلزمهم مادياً ومعنوياً سعياً لتنصير أناس بسطاء أميين يقدسون معتقداتهم الدينية ويستميتون دفاعاً عنها!

وهكذا حرص "تومسون" على أن يتجنب طريقة المبشرين الأمريكان بالعمل وسط جمهور يؤمن بما يناقض ما جاء به هؤلاء المبشرون؛ فانخرط في ممارسة عمله في التنقيب عن الآثار متكتماً على مهمته الخفية التي كانت وراء قدومه إلى هذه المدينة.

كان البيت الذي استأجره يجاور بيت الأرملة "شذرة" – وكان يعلق ضاحكاً مذكّراً أنها المرأة نفسها التي شاء القدر أن تصبح، بعد سنوات معدودة، أم بدر! – حيث انطلق منه في ممارسة نشاطه في التنقيب عن الآثار الذي سرعان ما قاده إلى مخطوط "الراووق".

واعترف "تومسون" بأنه، أثناء انكبابه، في قنصلية بلاده في بغداد، على دراسة تلك التقارير المرفوعة عن "الأسلاف" – كونها إحدى البؤر العشائرية التي سببت الكثير من المتاعب للسلطة العثمانية – مر ذكر هذا المخطوط عليه أكثر من مرة، لكنه لم يوله الاهتمام الذي يستحقه ظناً منه أنه قد يكون ضرباً من ذلك النوع من المخطوطات التي تغصّ بها خزائن الكتب في هذه البلاد، بيد أنه سرعان ما أدرك مقدار تسرّعه في الحكم؛ فمن خلال إلمامه التدريجي بتاريخ المنطقة اكتشف الدور الحاسم الذي لعبه هذا المخطوط في تاريخ العشيرة: فقد بقي سجلاً حافلاً لما مرت بها هذه المنطقة من أحداث جسام توجت بحدوث معركة بين السلطة العثمانية والجد الأكبر للعشيرة انتهت بوقوع مجزرة بقيت الأجيال المتعاقبة تتناقل هول وقائعها حتى الوقت الحاضر.

وكان مما شحذ فضوله أكثر تناقض الآراء حول ما حصل بشكل يبعث على الدهشة: فمن قائل إن تلك المعركة انتهت بتصفية الجميع، ومن قائل إن عدداً من أبناء جد العشيرة خانوا أباهم بتواطئهم مع السلطة العثمانية للنفاذ بجلودهم، ومن قائل إن الأمر كله مختلق؛ فما من معركة حصلت، وما من ضحايا سقطوا؛ إنما انتهى الأمر بتصالح المشيخة المتمردة مع السلطة!

كل هذه الأمور جعلته يستميت للحصول على مخطوط "الراووق"، حتى إذا مرت شهور تبيّن في ختامها عقم محاولاته تلك قرر الاستعاضة عن فشله بإعداد بحث "أثنوغرافي" عن المخطوط سرعان ما شرع في تنفيذه مستثمراً في ذلك تشعّب صلاته في المدينة بين أرفع الناس شأناً وأدناهم مرتبة.

لقد واصل العمل في ذلك البحث الميداني – إلى جانب عمله في التنقيب عن الآثار – طوال تلك الفترة التي قضاها في المدينة والتي انتهت بتسلله هارباً منها على أثر قيام الحرب العظمى وشروع بلاده بريطانيا في غزو بلاد ما بين النهرين، حتى إذا ما عاد إليها مجدداً، بعد انهزام العثمانيين، بصفة نائب الحاكم العسكري للمدينة اكتشف أن نفوذه لن يسعفه أبداً لتحقيق حلمه بالاستحواذ على المخطوط، فقرر الاستمرار في بحثه الميداني الذي انتهى منه قبيل انفجار تلك الانتفاضة التي اشتهرت فيما بعد باسم "ثورة العشرين" والتي أفضت إلى أسره من قبل الثوار ليعرف، بعد إطلاق سراحه، بالمصير المحزن الذي انتهى إليه مخطوط "الراووق".

***

– لم يروِ لي "تومسون" كل هذه الأمور دفعة واحدة وبالطريقة التي لخصتها لك على شكل حكاية؛ ذلك لأنه كان يكتفي، في الغالب، بترديد بضع كلمات رداً على أحد أسئلتي المباغتة لينصرف بعدها إلى صحيفته أو الكتاب الذي بين يديه.

استدرك بدر موضحاً. وبعدما استدار نحو رياض ليصدر إليه تعليمات دفعت بهذا إلى أن يهرع نحو رفوف المكتبة لينبش وينقب مستعيناً أحياناً بالسلم الحديدي المتنقل للوصول إلى الرفوف العالية قبل أن يعود بحمل يتكون من مجموعة ملفات ركنها على المنضدة، عاد يخصني بكلامه:

– لم أرَ "تومسون" إلا وهو منصرف إلى ما شغف به: ممارسة عمله في التنقيب عن الآثار، أو الانكباب على الكتابة في بحوث تتوزع بين التاريخ والأنثربولوجيا، وكانت المحصلة هي هذه الملفات التي حرص على إهدائها إليّ وقد ترجم أغلبها بنفسه إلى اللغة العربية ليبسّر لي قراءتها، وسأهديها بدوري إليك عساها أن تعينك في مشروعك الروائي.

واستطرد بدر مذكّراً بأن تلك السفرات إلى مواضع التنقيب، وما تبودلت فيها من حوارات، جرت على خلفية من أحداث تاريخية تخللها انتحار أحد رؤساء الوزارة – عبد المحسن السعدون – ووفاة أول ملوك العراق – فيصل – وتنصيب ثاني الملوك – غازي – وحدوث أول انقلاب – بكر صدقي – وعشرات الأحداث الأخرى التي غفلت عنها الذاكرة. وكان هو، بدوره، قد كبر بطبيعة الحال، وكان قد أنهى دراسته في "المدرسة الأمريكية" فعُيّن موظفاً في الشعبة الفنية في المتحف العراقي، حيث تشرّب على مهل دقائق هذا العمل الذي أحبه إلى درجة العشق؛ فبات لا يشعر بالسعادة إلا حينما يغادر شقته القائمة في "عقد الصخر" ليجتاز تلك المسافة القصيرة التي تفصله عن مقرّ عمله ليقضي يومه بين "المختبر"، وغرفة "التصوير الشمسي"، وورشة "النجارة"، وقاعة "التسجيل وتصنيف الآثار".

كان قد انخرط في حياته الجديدة بكل مشاعره، لا شيء يذكّره بالماضي الذي يسعى إلى نسيانه إلا فرج: فكلما زاره في غرفته في ذلك البيت القائم في منطقة "البتاويين" استقبله بسخرياته وتهكمه، مذكّراً إياه بـ"هرولته" للاستجابة لنفير السيارة كلما دوى أمام باب البيت حيث يكون ثمة سائق هندي، في الغالب، في انتظاره خلف المقود وهو يربت على الموضع المحاذي له ليحمله إلى المستر "تومسون".

وكانت سخريات فرج تغدو – حينما يثمل – جارحة، تنطوي على إشارات عن أمور "معيّنة" حصلت بين "تومسون" وإحدى "جاراته"؛ حتى أن "بدر" طلب منه، في إحدى المرات، أن يكف عن أسلوبه المبتذل في "الغمز" و"اللمز"، فصاح فرج بعدما أطلق ضحكة ثملة:

– يا ليت الأمر توقف في حدود "غمزي" و"لمزي"!

– ما الذي ترمي إليه بهذا الكلام المبهم؟

– اسأل أمك!

– أليست أمي هي أمك نفسها؟

سأله بدر وهو يغالب وجيب قلبه محاولاً التهرّب مما يرمي إليه بذلك الكلام، بيد أن "فرج" ردّ دون أن تأخذه به شفقة:

– كانت أمي إلى أن حلّتْ تلك الليلة التي ضبطتها فيها متلبّسة بالجرم المشهود!

لم يستطع بدر النطق بحرف واحد مكتفياً بالتفرس في هذه السحنة التي شوهها السكر، في حين تساءل فرج ساخراً:

– ما لوجهك وقد شحب حتى حاكى وجوه الموتى بياضاً؟ أيعقل أنه لم يتطرق إلى سمعك من قبل همس عما جعل عينيك زرقاوين مثل عيون الأجانب؟

ورفع كفه ليباغته بتلك الصفعة المفاجئة على مؤخرة عنقه لولا أنه كان أسرع منه فقد أمسك بذراعه وهي في منتصف الطريق؛ فلواها ملقياً بثقل جسده على فرج الذي انهار من شدة السكر تحته على حافة السرير، ومرت لحظات والاثنان يتصارعان لاهثين في معركة خاطفة رجحت فيها كفة بدر منذ البداية؛ فصرخ في وجه أخيه المأخوذ مما حصل:

– حاول ألا تمد مخالبك القذرة نحوي منذ هذه اللحظة... أتسمع؟ يكفيك أن ترفع يدك عليّ في المرة القادمة لأكسرها لك!

وتراجع بدر وهو يغالب لهاثه ليتأمل أخاه من بعيد مبادلاً إياه نظرات ضارية، في حين تجمّع فرج على نفسه لينخرط فجأة في البكاء!

– أهكذا تكافئ أخاك الأكبر؟ أنسيت، وقد غدوت "أفندياً"، أنك تدين لي بكل هذه "الأبهة" الفارغة التي تحاول أن تحيط بها نفسك؟!

وتركه بدر يهذي، وسط شهقاته، على هواه وقد تحكّم به السكر تماماً؛ فمضى يتحدث عن ليلة مشؤومة جفل فيها من نومه على همس مريب، فوثب واقفاً ليهرع نحو باب حجرته، فإذا به يلمح المستر "تومسون" داخل البيت وقد انكبّ على باب حجرة أمهما، يناغيها من خلاله بهمس متوسل شبق، فتهيّأ ليملأ الليل صراخاً حال استنجاد أمه به، بيد أن ذلك لم يحصل؛ ذلك لأن ذلك الباب انشقّ بكل حذر لينغلق ثانية عقب دخول "تومسون"!...

ومضى فرج يبكي لحظات قبل أن يكمل:

– لم أصدّق ما رأيت، كدت أجن وأنا أرى أمي تعرج صباح اليوم التالي، وكأن شيئاً لم يحدث، إلى بيت هذا الكلب، بعد مغادرته إلى مخيم التنقيب، لتؤدي المهام التي كلفت بها من كنس وغسل وطبخ حتى أنني ظننت أن ما رأيته في الليلة الماضية كان محض وهم، قلت لعلني كنت أحلم فخيّل لي حصول ما حصل... ولكنْ هيهات؛ فقد تكرر الأمر، بل انكشف السر، وتناقل الجيران الفضيحة وباتت على كل لسان، ولم أدر ما الذي كانت ستتمخض عنه لولا نشوب

الحرب العظمى وانكشاف حقيقة "تومسون" وأنه كان قد اتخذ صفة منقّب عن الآثار في حين لم يكن أكثر من جاسوس... قائد شبكة جواسيس غطت غالبية المدن والقرى المتاخمة للحدود الإيرانية!!

***

أطفأت المصباح المنضدي وغادرت المكتبة، تاركاً "بدر" يواصل إغفاءته بين الوثائق والأوراق في انتظار لقاء جديد قد نعيد فيه عقد خيط ما انقطع، وعدت أواصل حياتي "الجديدة" وأنا رهين البيت منذ تفجيرات سامراء، معوّلاً على زوجتي بالإنابة عني في تحمّل الأعباء التي كانت منوطة بي وفي مقدمتها "التسوّق" وإيصال الصغار إلى مدارسهم، مهيئاً بذلك نفسي لتلقي لومها وتقريعها اليوميين لإصراري على التشبث بهذا الحي!

– وأين تريدين أن نذهب عزيزتي وأنت أدرى الناس بحقيقة أوضاعنا ولاسيما المالية؟

كنت أسألها لأضيف مذكّراً إياها بارتفاع إيجارات البيوت في المناطق الآمنة بعدما بلغت التصفيات الطائفية الذروة. لكنها لم تكن تنهزم؛ فقد كانت تسارع بمقاطعتي وكأنها وجدت الحل المناسب:

– لا حاجة إلى استئجار بيت في منطقة أخرى؛ بل الأفضل الهجرة إلى سوريا... إلى دمشق التي هاجر إليها أغلب الجيران حتى باتت تعج بحشود العراقيين.

– والأولاد؟ ومدارسهم؟

– حياتنا أهم من مواصلة تعليمهم... لنهاجر شهراً أو شهرين في انتظار أن يشبع الناس من القتل قبل أن نعود.

وكانت تستطرد، وهي تمسك دموعها بصعوبة، فتحدثني عن رعبها اليومي الذي تبدؤه مع أذان الفجر؛ فقد اعتادت أن تسارع باجتياز الحديقة نحو الباب الخارجي لتلقي نظرة مدققة على ما حولها، باحثة عن ذلك المظروف الذي تتوقع وصوله إلينا ذات يوم؛ ذلك لأنه بات من المألوف إنذار الأسر غير المرغوب فيها برمي مظروف يحتوي على رصاصة واحدة كإنذار بالإخلاء خلال أربع وعشرين ساعة!!

– إلى أين نولّي بوجوهنا حين وصول ذلك المظروف المرعب؟ هل فكرت بذلك؟

كانت تقطع استرسالها بالكلام لتطرح ذلك السؤال قبل أن تضيف وهي تضرب كفاً بكف:

– يكفيك أن تلقي بنظرة واحدة على الأسواق – حيث اعتدت التسوّق من قبل – لتدرك حقيقة ما يحصل: فغالبية الحوانيت ومحلات البقالة مقفلة، لا يجازف بفتح محله إلا عدد محدود يحرصون على إبقاء أبوابهم مفتوحة إلى النصف ليزودوك بالبضاعة وهم يتلفتون حولهم بقلق، في حين لا يلوح لك على امتداد السوق إلا بضع نساء مذعورات يتسوقن على عجل قبل أن يعدن إلى

بيوتهن وكأن كل واحدة منهن تحمد الله لأن الانحدار لم يبلغ بالقتلة إلى حد تصفية النساء أيضاً!

وفاجأتني ذات يوم، حال عودتها بالصغار من مدارسهم، بأن سحبتني من يدي نحو إحدى الغرف لتحدّثني دون مقدمات:

– أتدري ما الذي صادفته اليوم في طريقي؟ لم أكد أهمّ باجتياز فرع الكنيسة بالسيارة حتى لمحت منظراً جعلني أضغط على دوّاسة الوقود إلى آخرها لأنطلق بأقصى سرعة محاولة أن أجنّب الصغار رؤية ما لمحته خطفاً!

وصمتت لحظات قبل أن تستطرد في الكلام:

– كان ثمة أحد المغدورين راقداً على الرصيف في النزع الأخير وقد رفع إحدى يديه مستغيثاً وسط بركة دم!

واستطردت متحدثة عن اضطرارها، أكثر من مرة، إلى أن ترجع بسيارتها إلى الوراء قبل اجتيازها أحد الفروع وذلك حرصاً منها على ألا تقع أنظار الصغار – ولاسيما ندى – على إحدى الجثث مرمية على الرصيف وسط أكوام النفايات!!

– لقد باتت جثث الناس – مثل جثث الكلاب النافقة – ترمى على المزابل دون وجود من يجرؤ على إخلائها خوفاً من أن تكون مفخخة؛ ألا يجعلك ذلك تدير ظهرك لهذا الوطن المنحوس دون أي شعور بالندم؟

سألتني لتنفجر بنوبة بكاء هستيرية لم تصحُ منها إلا لحظة سألتها ندى، وكانت قد دخلت الغرفة على صوت نحيبها، عما بها؟

كنت أعذرها طبعاً على قلقها، بيد أن الاستجابة لإلحاحها بالسفر إلى دمشق كان أمراً شبه مستحيل، كما أن الانتقال إلى بيت آخر بات أمراً دون جدوى. وكان الأستاذ حسيب قد اعتاد أن يحذرني، باتصالاته الهاتفية المتباعدة، من الإقدام على هذا الأمر؛ ذلك لأن كل وافد جديد سيبقى مثار كثير من الشكوك؛ تعدّ المليشيات المتحكمة بالمناطق كلها عليه أنفاسه حتى وإن كان ينتمي إلى الطائفة نفسها.

وكان يضيف ناصحاً:

– خير لك البقاء في منطقتك؛ فقد توثقت صلاتك بجيران وأصدقاء قد يسعك التعويل عليهم في هذه الأيام السود!

نصيحة بدت أشبه بتميمة اعتدت رفعها على مدى شهور القتل والرعب والخطف اليومي التي جعلتني أؤمن بأن بوابة الجحيم فتحت على مصراعيها!!

وتوّجت تلك الأحداث بنبأ مقتل الزرقاوي الذي بالغ الأمريكان في التطبيل له في الفضائيات، عادّين إياه الفصل الختامي لما يجري دون أن يخطر لهم أن الأمور أفلتت من أيديهم، وأنه ما من وسيلة لوضع حد لها قبل أن تتوقف من تلقاء نفسها بشكل من الأشكال.

وبقيت زوجتي أشبه بتلك الحمامة التي أخذت على عاتقها مهمة إعلان انحسار الطوفان؛ فقد بدأت، في الأيام الأخيرة، تخفف من شكواها الدائمة عقب كل عودة لها من السوق: تبشّرنا مثلاً بظهور نقاط سيطرة رسمية هنا وهناك وما رافق ذلك من تضاعف أعداد المحلات التي تفتح أبوابها للزبائن، وظهور أرباب أسر في السوق للتسوّق بعد شهور تركوا المهمة خلالها لزوجاتهم.

كما أن الحياة دبّت في هاتفي النقّال من جديد؛ فأخذ يرن أكثر من مرة في اليوم لأفاجأ بأصوات أصدقاء يسألون متلهفين عن "الصحة والأحوال"، ودأب الأستاذ حسيب على اتصالات شبه يومية كان يحاول بها إقناعي بضرورة معاودة لقاءات يوم الجمعة في مقهى "الشابندر"، مزيناً لي الأمر بافتقاد هاني الأحمد وأمجد سالم إياي، زاعماً أن صديقي "الغندور" بهجت لطيف سأل عني أكثر من مرةٍ.

وفوجئت ذات يوم باتصال من "دنيا" – التي كانت قد غابت عن ذهني طوال احتدام الأحداث – لتخبرني، دون مقدمات، باختطاف يحيى!!

– وكيف اختطف؟

سألتها مدركاً بعد فوات الأوان مبلغ غباء سؤالي؛ فقد أجابتني متهكمة:

– كما يُختطف آلاف الناس!

– قصدي هو هل أنت واثقة من حصول ذلك؟

– طبعاً واثقة... وقد اتصل خاطفوه بزوجته وطالبوها بدفع فدية لقاء إطلاقه.

– وماذا حدث؟

– القصة طويل يا أستاذ وسأحدثك بتفاصيلها حال لقائنا في بغداد بأقرب فرصة.

أجابتني متبرمة، لتعتذر بعدها عن اضطرارها إلى الاستعانة بي في مثل هذه الظروف العصيبة لأنها لا تكاد تعرف من بغداد إلا مكاناً أو مكانين. وصمتت لحظات قبل أن تحسم أمرها:

– الكارثة أن هذا الاختطاف وقع في أسوأ ظرف إذ يحتمل أنني... حامل!!

فاجأتني "دنيا" بكلامها؛ فبقيت في حيرة مما أقول، بيد أنني سرعان ما حسمت أمري؛ فسألتها عما يقلقها وقد تزوجت يحيى – كما أخبرتني – بعقد شرعي مبرم من قبل الشيخ غازي فياض؟ فأجابتني وقد انفجرت باكية:

– هنا المشكلة؛ فهذا الشيخ اللعين لم يعد كما كان في الماضي: إذ إنه يسعى للفوز بمقعد في البرلمان في الانتخابات القادمة بعد فشله في الدورة الأولى!

– وما علاقة عقد زواجك بفوزه من عدمه في الانتخابات؟

– أعذرني؛ لا أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن طريق الهاتف. سأحدثك بأدق التفاصيل حين لقائنا في بغداد بعد أيام.

***

هكذا جددتُ اللقاء ثانية بـ"دنيا" في بغداد لأصطحبها إلى إحدى عيادات شارع الكندي حيث أكدت الطبيبة حملها؛ فحصل بيننا ما حصل، وقررتُ السفر إلى الأسلاف بعدما أتفقّد شارع المتنبي عقب تعرّضه لذلك الانفجار المروّع الذي أودى بالعديد من أصدقائي أصحاب المكتبات وباعة كتب الأرصفة.

وكان الأستاذ حسيب رجب قد اتفق معي، في أحد اتصالاتنا الهاتفية ـ والويل لي إن حنثت بذلك الاتفاق! ـ على اللقاء صباح اليوم التالي للانفجار في شارع المتنبي " لقاءً طللياً".

وأردف يسألني بحرقة لينتزع مني ذلك الوعد:

ـ ألا تستحق أطلال شارع المتنبي ومقهى "الشابندر" وقفة حداد؟

وهكذا، التقينا، في اليوم التالي، قرب "القشلة" العثمانية حيث الريح كانت تطيّر نتف الأوراق المحترقة من حولنا، مغطية أرض الشارع بالرماد، وثمة رائحة حريق خانقة تكاد تكتم الأنفاس يثقل الهواء.

لم نكد نصل إلى مقهى "الشابندر" حتى وقفنا مصعوقين، نتأمل بذهول ما خلّفه الانفجار المروع من دمار على امتداد الشارع؛ فإلى اليسار لم يبق من المقهى سوى هيكله الإسمنتي بعدما أطاح العصف بالواجهات الزجاجية المؤطرة بالألمنيوم لتلتهم النيران بعدها كل شيء: التخوت والطاولات ومئات الصور واللوحات والتلفاز وقفص البلابل.

وإلى اليمين تحوّل صف المكتبات، التي كانت تتراصف واجهاتها الزجاجية تحت طارمة تسندها عشرات الأعمدة الإسمنتية، تحوّل إلى مجموعة كهوف سود تملؤها أكوام الرماد. وكانت ثمة حفرة بعرض بضعة أمتار تتوسط الشارع ـ حيث انفجرت عربة الموت ـ وقد طفحت بمياه صفر موحلة تطفو عليها بقايا الكتب والأوراق، وهنا وهناك تناثرت، في أرجاء الشارع، هياكل سيارات متفحمة.

بدا المشهد عصياً على الوصف: فما نما وتطور وارتفع على مدى عقود من أعمارنا تلاشى، على حين غرة، عن الوجود!

توغلنا بضعة أمتار في الشارع، محاذرين الانزلاق بالأوحال أو التعثر بالركام المنتشر، مديرين أعيننا من حولنا ونحن نتفحص، بنظرات غير مصدقة، الخراب المهيمن على كل شيء.

توقفنا قرب الرصيف المرتفع في مواجهة المقهى. وسرعان ما التحق بنا عدد من روّاد المقهى المزمنين. بدوا مثل أفراد سرب طيور تحاول أن تجتمع من جديد بعدما فرقتها العاصفة. وقفوا قربنا دون أن يبادلونا التحية أو السلام. كانوا مثلنا يحاولون أن يفهموا مغزى ما حصل؛ إذ لم يسبق لهم أن مروا بتجربة مماثلة تحولت فيها المكتبات إلى ساحة قتال!

ـ وقع التفجير في الساعة العاشرة والنصف صباحاً.... في ذروة الزحام!

نطق بها أحدهم وكأنه يكلّم نفسه، وسرعان ما أعقبه آخر فقال وهو يتلفت حوله بحيرة:

ـ في تلك اللحظة اهتزت الأرض من تحت قدميّ وأنا أجتاز شارع الرشيد قرب جامع "الحيدرخانة"، فلم أملك إلا أن أسأل نفسي: أهو زلزال أم صاعقة؟ لكنني سرعان ما أدركت كل شيء؛ فقد رأيت سحابة دخان هائلة تتصاعد من جهة شارع المتنبي!

ـ كان منظر الشارع رهيباً، أدعو ربي ألا يريني مثله ثانية أبداً؛ فواجهات المكتبات، على الجانبين، كانت قد تحوّلت إلى أفران تنفث إلى الخارج كتل لهب هائلة الحجم، وكان الناس يتراكضون في كل اتجاه وثمة صرخات استغاثة تنطلق من سيارات شبّت فيها النيران!

وتكلم آخر بالطريقة نفسها، طريقة المسرنم الذي يتكلم وهو نائم:

ـ لم تكد تتقاطر سيارات الإطفاء والإسعاف فتشرع خراطيم المياه معركتها مع ألسنة اللهب حتى تم تطويق الشارع، ومنعنا من الدنو من المكتبات؛ فارتفعت نداءات متوسلة وثمة من يسأل عن أبيه أو أخيه أو ابنه أو أحد أقاربه الذي حاصرته النيران في الداخل.

ـ وكانت النتيجة احتراق أكثر من سبعين محلاً بين مكتبة ومطبعة ومحل بيع قرطاسية، فضلاً عن احتراق أكثر من خمس وعشرين سيارة.

وتبارى الواقفون من حولنا في ذكر وقائع ما حصل معددين أسماء الشهداء الذين عُرف أكثر من خمسين منهم بين الجثث المجهولة المتفحمة، فضلاً عن عدد من المتقاعدين والمتقاعدات الذين كانوا بصدد تسلم رواتبهم الهزيلة من المصرف القائم في البناية التراثية.

هكذا بقيتِ الأصوات تتعالى من حولي، في حين وجدتني استعيد ذكرياتي عن هذا الشارع الأثير إلى نفسي حينما كنت على موعد أسبوعي معه. وكان الأستاذ حسيب قد انهمك بإزالة النفايات عن حافة الرصيف مهيئاً إياها لجلوسه، فأخبرته بأنه آن لي العودة إلى البيت مبدياً استعدادي لإيصاله بسيارتي إلى أقرب مكان من بيته.

ـ اذهب رافقتك السلامة.

أجابني ليردف بكل جدية وقد جلس على حافة الرصيف:

ـ دعني اليوم اشمت على هواي بامرئ القيس؛ فأين "بعر الآرام" مما أرى؟

وانشغل بإيقاد سيجارة انصرف إلى تدخينها بتعطش متحدثاً، مع كل نفثة دخان، عن مأساة صاحب مقهى "الشابندر" العجوز؛ فقد نكب بأربعة من أبنائه دفعة واحدة فضلاً عن أحد أحفاده:

ـ... فقد كان هؤلاء الرجال ـ كما تعلم ـ أرباب أسر؛ فأصغرهم تخطى الثلاثين من عمره. وكانوا ـ لسوء حظهم ـ لحظة الكارثة منكبين على طباعة كتاب في تلك المطبعة الصغيرة المجاورة للمقهى قبل أن ينسفها الانفجار؛ فتناثرت أجسادهم وسط أكوام الرماد، وهناك صديقنا عدنان سلمان الذي تلاشى جسده وسط لهب النيران التي شبت في مكتبته وبرفقته عامله الشاب أحمد فضلاً عن رجل متقاعد اعتاد المرور بالمكتبة عقب تسلّم راتبه التقاعدي لسداد ما بذمته.. و"واثق الحيالي".. أتعرفه؟ إنه ذلك الشاب الطويل النحيل الذي لم يمض على زواجه سوى أشهر، لقد استشهد بدوره وله بذمتي مبلغ من النقود، وكذلك المسكين "عبد شندي" الذي هو أب لعدد من الأطفال المعاقين وراثياً؛ فقد اختلط دمه ولحمه بكتبه البائسة، واستشهد أيضاً حسين عبود الذي رزق بابنه البكر قبل أسابيع، أما الشقيقان "اللدودان" فقد طار جسد كل واحد منهما ليسقط جثة هامدة بعيداً عن جسد الآخر بعشرات الأمتار...

ودّعته على أمل أن ألتقيه غداً في مجالس الفاتحة التي ستقام على أرواح الضحايا... وهكذا: كان عليّ، على مدى أيام، التنقّل بسيارتي بين مناطق تتوزع على أطراف بغداد ـ مثل "الطالبية" و"المشتل" و"الثورة" و"حي العامل" ـ لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بشق النفس؛ فالاختناقات المرورية باتت من أبرز سمات الشوارع: تجابهك، كل بضعة أمتار، نقطة سيطرة تبدو كأن مهمتها تقتصر على عرقلة حركة سير المركبات عوضاً عن تفتيشها؛ فالسيارات المفخخة دائبة على أداء مهمتها: لا يكاد يمر يوم لا تنفجر فيه أكثر من واحدة وسط حشود الناس، مخلّفة وراءها الجثث والأشلاء والدماء وصفير عربات الإسعاف وهي تحاول عبثاً اختراق الزحام بحملها وصولاً إلى أقرب المستشفيات.

وكانت هناك أيضاً معضلة الاهتداء إلى الأماكن التي تقام فيها عادة مجالس الفاتحة؛ وذلك لأن لجوء السلطات الأمنية إلى تقطيع بغداد إلى "كانتونات"، محيطة الأحياء السكنية والأسواق بعوارض إسمنتية عملاقة، أحال العاصمة إلى متاهة لا سبيل إلى اجتيازها وصولاً إلى الأماكن المنشودة إلا باكتشاف المنافذ الجديدة المؤدية إليها!

كانت تلك العوارض القبيحة تجابهني بجهامتها أينما تحركت بالسيارة حتى أنني لم أتنبه إلى أن الشتاء قد أوشك على الرحيل مفسحاً المجال لفصل الربيع القصير العابر إلا حينما شممت، في إحدى المرات، شذا عطر نفاذ طغى على رائحة الوقود والغبار سرعان ما تبين لي أن مصدره بضع شجيرات ورد تسلقت إحدى العوارض لتغطيها بحمرة ورودها كأجمل تحد من الطبيعة للقبح!

كانت المكبّرات، وهي تصدح بأصوات مقرئي القرآن الذين اشتهر أمرهم على مدى عقود من الزمن ـ مثل عبد الباسط عبد الصمد، و"أبو العينين"، والشعشاعي وغيرهم ـ كانت أول علامة لي على قرب الوصول، حتى إذا ما ركنت سيارتي وسط صف السيارات الواقفة ودنوت،

على وقع واحد من تلك الأصوات الجبارة التي تجعل الجسد يقشعر هولاً وخشوعاً، من السرادق أو من باب المسجد أو الحسينية المشرع اكتنفني ذلك الحزن المقيم الذي لا يتطلب بذل جهد ليعلن عن نفسه؛ فسليل بلاد ما بين النهرين أدمن ذرف الدموع منذ آلاف السنين.

كنت أشعر وكأن بغداد كلها في حداد على ما حصل: تشاركني في تذوق القهوة المرة بعدما أكون قد بسطت كفيّ على ركبتي مشاركاً الجالسين بقراءة سورة الفاتحة على روح الفقيد.

هكذا بقيت، على مدى أيام، أتنقل من مجلس فاتحة إلى آخر حيث التقيت أغلب أصدقاء المقهى وفي مقدمتهم بهجت لطيف الذي كان من دأبه الاختفاء شهوراً ليفاجئني بزيارة مباغتة سواء في بيتي أم المقهى.

بدت صفة "الغندور" ـ التي اعتاد الأستاذ حسيب إطلاقها عليه ـ جديرة به حقاً؛ فكل ما فيه أوحى لي بأنه قادم لحضور حفلة زفاف لا مأتم: فقد كان يرتدي بزة جديدة كأنه فصّلها لهذه المناسبة، ازدانت بربطة عنق راقية. وكانت تفوح منه رائحة عطر نفاذة تدير الرؤوس!

كما التقيت، في أحد المجالس، مهند سالم الذي كان يغلي غضباً ونقمة، حتى إذا ما سألته عما يغضبه؟ صاح قائلاً، وهو يجيل بعينيه الجاحظتين على اقرب الجالسين إليه، إن حيّه تحول إلى معتقل لا ينقصه سوى سجّان مزوّد بمفتاح يتحكّم في أوقات خروجه من بيته وعودته إليه!

وعلى النقيض منه كان هاني الأحمد دائم الانشغال بنفسه: ما من مرة جمعتني المصادفة به في مجلس فاتحة إلا ورأيته يتلفت حوله بقلق دون أن يكف عن مسح العرق عن صلعته بمنديله المبلل حاثاً إياي على الإسراع بالمغادرة، وحين سألته، في إحدى المرات، عما يقلقه؟ اعترف لي هامساً بأنه يعاني من "رهاب" مجالس الفاتحة، ولاسيما حينما تقام في سرادق منصوب وسط الشارع؛ إذ لا يبعد أن تقتحم سيارة مفخخة ـ كما حدث أكثر من مرة في هذه الأيام ـ الخيمة لتلحق الحضور، بلمح البصر، بالفقيد!

كما التقيت غافل النجار في أكثر من مجلس. بدا كعهدي به: حليق الذقن وقد ارتدى إحدى بزاته القديمة مع ربطة عنق تناسبها في اللون. وكان يحرص على بسط كفيه على ركبتيه ليشارك كل قادم جديد في قراءة سورة الفاتحة معقباً إياها بترديد الـ"الله بالخير" المعهودة، لكنه لم يكن ينسى، لحظة المغادرة، وهو يصافح أقارب الشهيد، أن يدسّ، في كف كل واحد منهم، ورقته العتيدة المطويّة بإحكام!!

وكان الأستاذ حسيب الوحيد الذي لم يكن يكف عن ذرف الدموع؛ فما من مرة صادفته في أحد المجالس إلا ورأيته ينافس أفراد أسرة الشهيد في البكاء، مبرهناً بذلك على زيف تظاهره بالصلابة والعناد؛ فقد كان ينطوي على قلب من ذهب مترع بالعواطف الجيّاشة!

بعد انتهائي من حضور مجالس الفاتحة لم يبق أمامي سوى الاستمرار في تنضيد صفحات روايتي التي شرعت فيها عقب آخر لقاء لي مع "دنيا" في انتظار أن أحدد يوم سفري إلى

الأسلاف، بيد أنني فوجئت بأحمد وطه يفصحان عن تململهما من استئثاري بالحاسوب؛ فأحمد مثلاً زعم ـ والزغب الخفيف الآخذ بالنمو على شفته العليا يهتز انفعالاً ـ أنه لا مفر له من الاستعانة بـ"الانترنت" لأسباب تتعلق بدراسته ـ وكان قد دخل المرحلة الإعدادية ـ أما طه ـ وكان قد أصبح في المرحلة المتوسطة ـ فقد صارحني دون لف أو دوران باستحالة أن يهدأ له بال قبل حلّ إحدى معضلات لعبة "تومب رايدر"، هذه اللعبة التي كانت تبدو وكأنها سلسلة معضلات تأخذ إحداها بتلابيب الأخرى؛ لا يكاد طه يهلل منتصراً بعد حلّه واحدة حتى يتجهم وهو يرى نفسه بإزاء أخرى أكثر تعقيداً من السابقة!

وكانت هناك ندى بطبيعة الحال: لا تكاد تنتهي من حل "واجباتها البيتية" ـ وقد أصبحت تلميذة في الصف الرابع الابتدائي ـ حتى تطاردني بكنية "بابي" التي يفترض بي على إثرها التنازل لها صاغراً عن الحاسوب لتنصرف بدورها إلى ممارسة الألعاب الخاصة بها مثل "باربي" و"طرزان" وما أشبه!

كان عليّ إذن اغتنام أية فرصة تتاح لي لغرض تنضيد تلك الصفحات، مستثمراً ـ في حالة توفر التيار الكهربائي ـ ساعات الصباح حينما يكون البيت قد خلا من الصغار بعد ذهابهم إلى مدارسهم. كما كنت أجد في ساعات الليل المتأخرة فرصة ذهبية لمواصلة العمل بعدما يكون الجميع قد ناموا، معولاً على مولّد المنطقة الكهربائي الذي يستمر عادة في العمل حتى الفجر.

وهكذا أخذتني الحماسة في العمل في روايتي، مفكراً بأن تأخري عن السفر بضعة أيام لن يغير في الأمر شيئاً؛ ففي وسع "دنيا" أن تلبث يومين أو ثلاثة أيام أخرى في انتظار حصول "المعجزة" التي ستنتشلها من محنتها.

بيد أن اتصالاً هاتفياً مفاجئاً منها قطع عليّ المضي في عملي؛ إذ إنها كانت تترقب وصولي إلى الأسلاف على أحر من الجمر؛ فبرغم أنها سوغت اتصالها ذاك بقلقها عليّ وعلى أفراد أسرتي بعدما ضربت موجة جديدة من العنف العاصمة، انفجرت خلالها عشرات السيارات المفخخة وسط الناس، لكنها نوهت، بشكل عرضي، بأن كل رنّة من هاتفها تجعل قلبها يثب في صدرها ظناً منها أن المتصل ليس سواي وقد وصلت إلى الأسلاف التزاماً بالوعد الذي قطعته على نفسي!

طمأنتها على وضعي، وأكدت لها عزمي على القدوم إلى الأسلاف خلال اليومين القادمين على وجه التحديد، فتنفست الصعداء، واعترفت بأن سبب اتصالها لم يقتصر على قلقها عليّ فحسب، بل لكون الظنون قد أخذت بها كل مأخذ حتى خيل لها أنني لا يبعد أن أكون قد صرفت النظر عن القيام بهذه الرحلة، فطمأنتها من جديد مؤكداً لها أنني سأكون عند وعدي هذه المرة.

صباح يوم اليوم التالي، وقبل استيقاظ الصغار، أبلغت زوجتي، على مائدة الفطور، بقراري بالسفر إلى الأسلاف غداً؛ فرمقتني، على عادتها، بنظرة استنكار ودهشة. تأملتني لحظات

صامتة، واصلت بعدها تناول فطورها كأني بها تقّلب، مع كل لقمة تزدردها، الأمر على وجوهه المختلفة سعياً منها لكشف الغرض الكامن خلف هذه السفرة المفاجئة.

ـ ما الذي ذكّرك الآن بالأسلاف بعد مرور سنوات على تلك الرحلة المشؤومة التي توّجت باعتقالك؟!

سألتني بعد دقائق وقد انصرفت إلى ارتشاف شايها، فسألتها بدوري عمّا يستدعي طرح هذا السؤال وقد سبق لي أن سافرت إلى هناك عشرات المرات؟ فأوضحت بهدوء:

ـ آنذاك كنت تسافر لغرض الإلمام بالتفاصيل التي ستعينك على كتابة روايتك الجديدة، مستثمراً ذكريات بدر فرهود الطارش الذي كان يلاحقك باتصالاته الهاتفية إن تأخرت عن السفر بضعة أسابيع.

ـ تماماً... وسأسافر الآن للغرض نفسه.

ـ عجباً!... ولكن "بدر" مات، ومضت سنوات على موته!!

صاحت مستنكرة، فبادلتها النظر لحظات وقد أسقط في يدي، وفكرت بضرورة مكاشفتها بالدافع الحقيقي الكامن وراء هذه الرحلة، ولم يمنعني عن ذلك سوى تعهدي لـ"دنيا" بالتكتم المطلق على سرها وعدم البوح به لأي مخلوق؛ فلم أجد مفرّاً من أن أجيبها بأول ما خطر لي:

ـ صحيح أن "بدر" مات... بيد أن الأسلاف لم تمت بطبيعة الحال؛ فهي لا تزال موجودة هناك قرب الحدود الإيرانية، تمور بأحداث جسام تعاقبت منذ الاحتلال، ومن المؤكد أنها ستثري روايتي بشكل استثنائي إن أفلحت في استثمارها.

عادت تتفحصني بنظرة مدققة وقد لاذت بالصمت، بيد أن كل ملمح فيها كان يوحي بأنها لم تقتنع بما سمعت. كان عليّ أن أدرك أن صمتها ليس سوى هدنة مؤقتة ستتمخض، خلال الساعات القادمة، عمّا لا يحمد عقباه.

وتلقّى الأولاد بدورهم خبر سفر بشيء من دهشة تحوّل ـ بسبب تجهّم أمهم ـ إلى خوف؛ حتى أن "أحمد" ذكّرني بما يشاع عن افتقاد الأمن على الخطوط الخارجية؛ فقطّاع الطرق نشطوا في الآونة الأخيرة: لا يكاد يمر أسبوع لا يسطون فيه على أكثر من سيارة سالبين أصحابها نقودهم وأمتعتهم، هذا إن لم يخطفوهم لغرض مساومة أسرهم في دفع ما يقررون من فدية لقاء إطلاق سراحهم.

وسارعت زوجتي، في تحركها داخل المنزل بالطريقة التي تضمن لها ألا تفوتها كلمة واحدة، سارعت إلى مؤازرة ابنها؛ فقد جاءنا صوتها من المطبخ وهي تصيح:

ـ ما يقوله أحمد صحيح؛ إذ إن سفر الأفراد لم يعد مأموناً، إنما تتم سفرات جماعية بين المحافظات على شكل قوافل تتكون من بضع سيارات تقلّ رجالاً مسلحين لغرض ضمان الأمن للركاب في اجتيازهم الصحارى المقطوعة عن الدنيا.

ـ حسن... لن أسافر بسيارتي في هذه الحالة، بل سأنظمّ إلى إحدى هذه القوافل وأمري إلى الله!

قلتها رافعاً صوتي حرصاً على ألا تفوت زوجتي كلمة واحدة عساها أن تهدأ، ولكن عبثاً؛ فالهزيمة السريعة ليست من شيمها. بدت، لأمر ما، غير مقتنعة بهذه الرحلة. كانت كل حركة من حركاتها ـ حتى تحريكها للمغرف في قدر الطعام الموضوعة على النار ـ تفصح عن عدم اقتناعها!

كان عليّ التجمّل بالصبر تاركاً المهلة الكفيلة بكشف أوراقها كلها؛ فالأعوام الطويلة التي قضيناها معاً علّمتني أنها لن تفصح عمّا في بالها إلا على مراحل قد يكون انفرادنا ليلاً في غرفة النوم أكثر تلك المراحل حسماً؛ وذلك ما حصل في واقع الحال: إذ لم أكد أنتهي من إعداد حقيبتي الصغيرة، داسّاً فيها قطع الملابس اللازمة لسفرة لا تستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة فضلاً عن أدوات الحلاقة وفرشاة الأسنان وما أشبه، لم أكد أنتهي من هذا العمل وأطفئ الضوء متحسساً طريقي إلى الفراش حتى تناهى إلى سمعي صرير السرير المزدوج على أثر تقلّب زوجتي مبتعدة بجسدها عني بطريقة أنبأتني بقرب حلول مرحلة الحسم.

لم يكن الأمر يتطلب مني ـ وأنا أتطلع في الظلام، مرهفاً السمع لتكتكة الساعة الجدارية الرتيبة ـ سوى الانتظار. ويبدو أن انتظاري طال حتى أنني كنت موشكاً على أن أغفو لحظة جفلت على صوت زوجتي وهو يتردد في صمت الغرفة:

ـ عيب يا رجل... عيب!... لقد كبرت، وأبيّض شعرك كله، وابنك أحمد أضحى بطولك وقد اخضرّ شاربه، فكيف تسوغ لنفسك ـ وأنت بهذا العمر ـ العودة إلى ألاعيبك؟

ما معنى هذا الهذيان؟ وعن أية ألاعيب تتحدث؟

انتظرت لحظات على أمل أن تفصح عمّا تعنيه، حتى إذا ما لم تفعل اضطررت إلى أن اسألها عن مغزى كلامها ذاك؟ فأجابتني من فورها:

ـ ألا تعرف معزى كلامي حقاً؟ أهي طريقة جديدة لاستغفالي؟

ـ أقسم بأنني أجهل مقصدك تماماً!

أجبتها وأنا أمد يدي في الظلام محاولاً الإمساك بيدها لولا أنها سارعت بسحبها كمن لدغت لتواصل الكلام وقد تهدج صوتها:

ـ لم أعد تلك الغرّة الساذجة التي تنطلي عليها مثل هذه الألاعيب، لقد كبرت بدوري يا رجل ووخط الشيب شعري وآن لي أن أحظى ولو بقليل من الاحترام منك!

ـ أيعقل أن يثير قراري بالسفر إلى الأسلاف كل هذا الغضب؟

ـ سفرك إلى الأسلاف؟!... هه... اضحك على غيري بهذا الزعم، أما أنا فمنذ أيام... منذ لجوئك، كل بضع دقائق، إلى هاتفك النقّال لتطلب به رقماً معيناً عشرات المرات في اليوم... ومنذ استجابة الطرف الآخر لك بعد دلال مصطنع وانطلاقك نحو السلم لترتقي الدرجات وثباً

لتنفرد بالمكتبة حيث تفرغ ما في قلبك دون رقيب... منذ حصول كل هذه الأمور تحت سمعي وبصري وأنا أتجول في البيت كالمجنونة في انتظار اللحظة التي لن يسعك بعدها كتمان السر... وها هي تلك اللحظة وقد أزفت، فإذا بك تزعم أنك بصدد السفر إلى الأسلاف ممارساً بذلك لعبتك القديمة التي كادت تعصف بهذا البيت... أتتذكر؟ لولا صبري وتحمّلي إكراماً للصغار ألم يكن كل شيء قد انتهى بيننا؟!

يا إلهي!... لا يعقل ذلك!... ما الذي ذكّرها بـ"مي"؟

ـ أتعنين علاقتي القديمة بـ"مي"؟

ـ وتقولها بملء فمك؟!

تساءلت قبل أن تجهش في البكاء مكررة بين شهقة وأخرى:

ـ عيب يا رجل... عيب. لقد كبرنا معاً... كبرنا عن مثل هذه الأمور الصبيانية التي قد تليق قريباً بأحمد.. عيب... والله عيب!

تركتها تبكي، حتى إذا ما فرّجت بعض الشيء عن انفعالها كلّمتها معاتباً وأنا أمد يدي نحوها من جديد:

ـ سأسامحك، هذه المرة، على سوء ظنك بي، تاركاً للزمن مهمة أن يكشف لك أنك واهمة في ظنونك كلها؛ فعلاقتي العابرة بـ"مي" انتهت منذ سنوات، وهي بدورها ـ كم تعلمين ـ هاجرت إلى إحدى الدول الأوربية عقب الاحتلال مباشرة؛ فكيف إذن أعيد ألعابي معها؟

ـ ما أدراني؟ قد تكون هناك غيرها!

أجابتني وقد استكانت لي بعد محاولاتها المتكررة الإفلات من يدي، فعلّقتُ مداعباً:

ـ لشدّ ما تضحكني غيرتك عليّ وأنا بهذا العمر!

وسارعت أضيف وقد احتضنتها بين ذراعي:

ـ لا... بل إنها تسعدني... فما لي لا اعترف بهذا الأمر؟ يسعدني أن تغار عليّ حبيبة العمر وتوهمني بأنني لست عجوزاً لا يرجى منه خير!

ـ مكّار!... ستبقى ذلك المكّار الذي خدعني بلسانه الذرب قبل أعوام لا تعد ولا تحصى!

تكلّمتْ بصوت ناعس وقد توسّدتْ ذراعي دافنة وجهها في صدري، فواصلتُ حديثي، وأنا أمسد شعرها ـ كما كان شأني معها في شبابنا ـ مذكّراً إياها بأجمل ما مرت بنا من أيام، شاعراً بها تستجيب لي بهمهمات مبهمة وقد أخذ النعاس منها كل مأخذ، حتى إذا ما انتظمت أنفاسها وقد استغرقت في النوم سحبت ذراعي المخدّرة بهدوء من تحت رأسها.

أصغيتُ إلى تنفسها العميق لحظات محاذراً أن يصدر عني ما يسبب في تعكير نومها.

لعلها المرة الأولى التي تستغرق فيها بالنوم مطمئنة البال بعد تلك الفترة العاصفة التي أوشك فيها هذا البيت على الانهيار.

***

كانت أول مرة أصل فيها إلى الأسلاف دون أن يكون في استقبالي أحد؛ فرياض اختار الإعلان عن معاداتي عقب موت بدر مباشرة وتسلّمه تركته، ويحيى اختفى، خطف أم قتل؟ كل شيء بات متوقعاً وسط هذه الفوضى الضاربة بأطنابها في البلاد طولاً وعرضاً.

كان الكراج المكتظ بالسيارات الداخلة والخارجة، وبحشود القادمين والراحلين، يضج بصخب الأصوات بشكل يبعث على الدوار: دوي أجهزة التنبيه بمختلف نغماتها، نداءات باعة المرطبات والوجبات السريعة، استغاثات المتسولين التي ترافقها كلمات الدعاء والاستعطاف المعهودة.

سارعت بالخروج لأدلف إلى أول سيارة استجابت لإشارتي. طلبت من السائق إيصالي إلى أكثر الفنادق قرباً من مركز المدينة، فعدد لي مجموعة أسماء لم يسبق لي السماع بها. ذكرت له اسم فندق كان قد علق بذاكرتي منذ طفولتي، فأوضح وهو يدقق النظر في المرآة الداخلية ليرى أي معتوه في رفقته:

– الفندق الذي تسأل عنه تحول إلى مخزن شأن عشرات الفنادق القريبة من الأسواق التجارية.

فطلبت منه إيصالي إلى أي فندق لا يزال قائماً قرب تلك الأسواق، فأجابني وهو لا يزال يدقق النظر في المرآة:

– تأمر...أستاذ!

كان الفندق الذي نزلت قربه، وسط ضجة أصوات المؤذنين التي انطلقت فجأة بالأذان، يقع فوق سلسلة دكاكين وصالون حلاقة تجاوره "علوة"، وثمة سلم طويل يؤدي إليه تغمره العتمة. وكان في استقبالي في الأعلى كهل بمنامة قذرة لم يولني أدنى التفاتة؛ فقد كان منشغلاً بإرسال سيل من السباب والشتائم من خلف مكتبه الخشبي الذي توسطته رقعة شطرنج يجاورها هاتف وصينية طعام تتطاير فوقها أسراب ذباب:

– ابن القندره.. ابن النعال.. كم مرة نبهتك على ضرورة أن تحلل خبزتك؟ هل ما أمنحه إياك صدقة أم لقاء عمل تؤديه؟

وعلى مقربة منه كان ثمة صبي في حدود الثانية عشرة من عمره، بدشداشة مقلّمة ورأس حليق، يتلقى سيل الشتائم مبتسماً، مكتفياً بترديد لازمة وحيدة لا يمل من تكرارها:

– أنت الذي ألححت عليّ باللعب... والله أنت الذي طلبت مني ذلك.. أليس كذلك؟

وازدادت شتائم صاحب المنامة ثقلاً؛ فأخذ يضمنّها، هذه المرة، كل المفردات التي تفصح عن أفعال جنسية تقشعر لهولها الأبدان!

انتظرت حتى أفرغ الرجل ما في جعبته ليتنازل بمنحي نظرة متسائلة من عينين جاحظتين لا يكفّ جف إحداهما عن الاختلاج بحركة عصبية تلقائية، وحينما طلبت منه توفير غرفة لي لا

يشاركني فيها أحد صاح بالصبي بعدما ناولني مفتاحاً كان معلقاً وسط سلسلة مفاتيح على لوحة مستطيلة بإطار معلقة على الحائط خلف ظهره:

– هيا.. تحرّك يا حيوان.. ارشد الأستاذ إلى غرفة رقم ثلاثة.

وكانت الغرفة المنشودة صغيرة بسريرين، تشرف نافذتها الوحيدة، التي تشغل الحائط المواجه للباب كله، على سوق في الأسفل تضج بحشود المتبضعين حول عربات وبسطات متوزعة هنا وهناك، وثمة سيارة حمل كبيرة يتراكض مجموعة حمالين إليها صعوداً وهبوطاً مفرغين إياها من أقفاص الفاكهة.

– تأمر بشيء أستاذ؟

تنبهت إلى صوت الصبي، وحين استدرت نحوه وجدته وقد انتهى من ترتيب أحد السريرين فلبث واقفاً في انتظار "البقشيش" المتوقع، فسألته، وأنا أناوله ما استللته من أحد جيوبي، عما دفع صاحب الفندق إلى أن يكيل له هذه الشتائم كلها؟ فأجابني وهو يغالب الضحك:

– أي صاحب فندق هو هذا الأعور يا أستاذ؟ إنه ليس أكثر من مدير فندق "قصر الزهور" هذا...

وأردف وهو يقهقه مديراً قبضته المكورة قرب جبينه:

– إنه ليس أكثر من معتوه، يتعامل مع لعبة الشطرنج تعامله مع لعبتي الطاولة والدومينو، يعمل المستحيل ليغلبني في "دست" واحد، وحينما يفشل يفرغ كل ما في جوفه بتلك الطريقة التي شهدتها قبل لحظات.

ناولته مبلغاً آخر وأنا أطلب منه الإسراع بإسعافي بوجبة مشويات مع قوري شاي، حتى إذا ما جاءني بما طلبت سارعت بتناول الطعام لأعمد بعدها إلى مغادرة الفندق وقد قررت التوجه إلى بيت بدر فرهود الطارش حيث اعتدت أن ألتقيه قبل وفاته؛ فهو المكان الوحيد الذي كان محط رحالي في سفراتي السابقة طوال سنوات الحصار حينما كنت منشغلاً بتجميع صفحات الأرشيف التي ستنبثق منها روايتي المنتظرة.

حملتني سيارة أجرة إلى المكان المنشود عبر شبكة شوارع لم أعتد سلوكها في الماضي، وحينما استفسرت من السائق عن الأمر أوضح لي أن ذلك يعود لأن معظم الشوارع التي تمر قرب بيوت المسؤولين أغلقت بعوارض كونكريتية. واستطرد ضاحكاً:

– المشكلة أن عدد المسؤولين الجدد في تزايد مستمر؛ يكفيك أن ترمي بفردة حذاء في الهواء لتسقط على رأس واحد منهم!

ومضى يتمتم بكلام مبهم حافل بالشتائم واللعنات بحق مجموعة أسماء لم يسبق لي السماع بها، حتى إذا ما دنونا من البيت أوقف سيارته بإزاء عارض إسمنتي أغلق أمامنا السبيل.

– تفضّلْ ها هو واحد من هؤلاء المسؤولين: لص عريق في اللصوصية، لا يكفيه ما ورثه من بدر من عقارات وأموال طائلة دونها أموال قارون؛ بل إنه يعمل جاهداً على الحصول على المزيد.. والمزيد.. والمزيد وكأنه باقٍ إلى يوم يبعثون!

وأمامي، في الجانب الآخر من الشارع، لاحت لي واجهة البيت وقد توسطتها الشرفة المعهودة، بيد أن ما أثار انتباهي خلو الحديقة الواسعة من أيما شجرة، لا شيء يعترض بصرك في اتجاه الواجهة سوى مساحة فارغة!

– ما الذي جرى لحديقة البيت التي كانت – بما احتوت من صنوف الأشجار والنباتات – موضع رعاية بدر؟

سألت السائق وأنا أناوله أجرته، فأجابني قائلاً إن "رياض" أمر بقطع الأشجار كلها على أثر محاولة لاغتياله اتخذ القتلة من الأشجار لهم غطاء. واستطرد مقهقهاً وهو يعود بسيارته إلى الوراء:

– تكفينا بضع سنوات لتخلو الأسلاف من الأشجار كلها؛ فمحاولات الاغتيال جارية، لله الحمد، على قدم وساق!

تخطيت الحاجز الإسمنتي، واجتزت الشارع نحو الجانب الآخر، حيث انتصب مولّد عملاق بحجم شاحنة قرب باب الحديقة يكاد بهديره يصم السمع، وفي مواجهته ثمة "كابينة" خشبية صغيرة اندفع منها خارجاً شاب مزود ببندقية كلاشنكوف بقي يتتبعني بنظرة متفحصة وأنا أدنو منه.

كان حليق الرأس، يرتدي الملابس التي شاعت منذ الاحتلال: بزة عسكرية مزودة بالعديد من الجيوب والأزرار تتطابق تماماً مع بزات "المارينز".

– نعم؟

ردد تلك الكلمة اليتيمة التي ضاعت وسط الهدير الجبار، فرفعت صوتي سائلاً إياه عن رياض صبار بشار، فسألني بعدما تأملني لحظات بنظرة مدققة إنْ كنت على موعد معه؟ وحينما أجبته سلباً رجع إلى كابينته مؤكداً أن "الأستاذ" غير موجود، فلم أجد ضرورة لمجادلته؛ فهدير المولد خير دليل على أنه يكذب.

قضيت ساعات العصر في التسكع هنا وهناك، معرجاً في أثناء ذلك على بعض الأماكن مثل المقهى المحاذي للبحيرة، الذي التقيت فيه نجيب الكذاب أول مرة، فرأيته على حاله خلا أنني لم أتعرّف على أي واحد من الجالسين، كما مررت بالمتحف؛ فهالتني مظاهر الإهمال البادية عليه وكأنه هجر: فالنفايات كانت مكومة قرب البوابة المركزية، وثمة أكثر من نافذة خلت من الزجاج. وكان البيت التراثي، الذي حشرت في سردابه المثقل برائحة الغائط مع مجموعة

موقوفين، آخر الأماكن التي تفقّدتها؛ فرأيته دون أبواب أو نوافذ، وقد اسودّت جدرانه بآثار حريق هائل لم يبقِ على شيء.

ليلاً، وعلى وقع سيل من الشتائم والسباب الذي كان وكيل الفندق يصبه على رأس غلامه على أثر انتهاء "دست" شطرنج جديد بالنتيجة المتوقعة، اتصلت بـ"دنيا" لأخبرها أنني في الأسلاف، فتساءلت عما أعنيه بكلامي؟ فعمدت إلى إطباق باب الغرفة مكرراً في الهاتف ما سبق لي قوله، فشهقت من هول المفاجأة بعدما أدركت ما أعنيه، وعادت تسألني، هذه المرة، لماذا لم أمر عليها في بيتها إذن؟ فسألتها متعجباً:

– وكيف أهتدي إلى بيتك الذي لم تسبق لي معرفة موقعه؟

– ما أغباني!.. لقد فاتني هذا الأمر حقاً...

أجابتني وصوتها مفعم بالسعادة. وبعدما شكرتني بحرارة داعية العذراء إلى أن تحميني في حلي وترحالي ذكرتْ لي عنوان بيتها الواقع غربي الأسلاف، عند "تل العاشق"، قرب كنيسة المدينة الوحيدة المهملة بعدما تركها آخر رجل دين مسيحي اضطر إلى الهجرة عقب تلقيه سلسلة تهديدات كانت تخيّره بين إشهار إسلامه أو دفع "الجزية"، فاتفقت معها على اللقاء ضحى اليوم التالي.

وصلت إلى المكان المنشود وقد أوشك النهار على الانتصاف. كان البيت مظلماً ليس بسبب انقطاع الكهرباء المعهود فحسب، بل لأنه بدا أشبه بكهف تصل إليه بعد هبوط بضع درجات عن مستوى أرض الزقاق حتى أن "دنيا" اعتذرت إليّ ضاحكة وهي تقودني من يدي نحو غرفة جانبية مكتظة بأشباح رجال ونساء في أرذل العمر ذكّروني، بشعرهم المنفوش وبظهورهم المحنيّة وسيقانهم الغليظة المعوجّة، بإحدى لوحات "رامبرانت".

– متى سنلتقي أسرةِ يحيى؟

– لننتظر ريثما نبلّغهم بصولك.

رجتني "دنيا" وهي تضع أمامي، على طاولة واطئة، صحن معجّنات سرعان ما تبعته بإستكانات الشاي.

– وأين يقع بيتهم؟

– على بعد خطوات، في مواجهة بيتنا.

أجابتني لتلتفت بعدها نحو الجالسين في الغرفة سائلة إياهم، بلغتهم الخاصة، عن شيء ما؛ فانشغل الجميع بالبحث والتنقيب بين الأرائك والطاولات قبل أن يعثروا على شال نولوه إياها مبدين لها كل دلائل الإخلاص والخضوع.

في بيت يحيى كانت الأضواء تسطع بفعل مولّد كهربائي كان هديره يملأ الأسماع، وفي غرفة الاستقبال واجهتني صورة كبيرة له معلقة على الحائط المقابل وهو فيها بنظارته الطبية وقد

ارتدى الملابس نفسها التي كان يرتديها في آخر لقاء لنا في بغداد: البزة الرمادية عينها مع ملحقاتها: ربطة العنق الزرقاء المثبتة إلى القميص بالدبوس الذهبي. وكانت امرأته الغارقة بملابسها السود – وقد لفت حول رأسها فوطة متوجة بعصاّبة مشدودة إلى مستوى الحاجبين – قد انزوت على إحدى الأرائك محاذرة أن تلقي عيناها عينيّ، وهي لا تكف عن الدعاء لي راجية الله أن ينصرني على أعدائي بـ"جاه المصطفى".

همست "دنيا" معتذرة، نيابة عن "ضرتها"، لخلو البيت من الرجال؛ ذلك لأن يحيى لم يرزق – كم أعلم – إلا بحشد بنات، فسألتها بصوت خفيض عما يفترض بي الآن عمله؟ فرمقتني بنظرة استنكار رفعتْ بعدها صوتها مذكّرة المرأة الأخرى أنني من أقرب أصدقاء يحيى إليه وأنني جئت من بغداد لغرض إثارة القضية مجدداً عند الجهات الحكومية، فتساءلت المرأة بصوت باكٍ وهي تضرب كفاً بكف:

– وما الذي يتوقعه من تلك الجهات يا أختي وهي التي لا حول لها ولا قوة في مثل هذه الأمور؟

– حدّثيه إذن عن كيفية حصول الأمر.

– ألم تحدثيه أنت؛ فأنت أدرى بدقائق ما حصل بعدما وقفت معنا على امتداد أيام المحنة؟

– لا لم أحدثه؛ فالأفضل أن يسمع القصة منك أنت.

حثّتها "دنيا" نافدة الصبر، فمضت المرأة تكرر كلمات التفجّع، داعية الله أن يقتصّ من المجرمين الذين قاموا بهذا العمل، حتى إذا ما أفرغت ما في جعبتها انطلقت تتحدث عن ذلك "اليوم المشؤوم" وكيف أنها تنبهت إلى هاتفها النقال وهو يدق، بعد مغادرة يحيى البيت إلى مقر عمله في المنفذ الحدودي، لينقطع الاتصال قبل أن تتمكن من فتحه، وحين راجعت قائمة المتصلين تبيّن لها أن المتصل لم يكن سوى يحيى نفسه، فحدّثها قلبها بحصول أمر ما؛ فمنذ تفاقم عمليات الخطف والتصفيات الطائفية ويحيى يتوجس من أمر ما يعدّ له.

– بعثت بصغرى بناتي لتستدعي صديقتي "دنيا" التي هي أشبه ما تكون بأختي؛ تؤازرني في الملمات والأوقات الصعبة، ولم تمر سوى دقائق حتى قدمت متسائلة عما حصل؛ فحدثتها بالأمر.

ختمت المرأة قصتها تاركة "دنيا" تنوب عنها في الكلام؛ فتحدثت هذه عن تلك الدقائق المتوترة وهي تبادل صديقتها النظر في انتظار أن يعاود الهاتف الرنين، لكنهما فوجئتا بكبرى بنات يحيى – تلك التي كانت قد ترملت قبل أسابيع على أثر ذهاب زوجها الشاب ضحية واحد من التفجيرات الإجرامية – تندفع داخلة عليهما الغرفة مهرولة وهي تلوّح بهاتفها مرددة بشكل هستيري أن أمراً ما جرى لأبيها؛ فقد كلّمها صوت غريب من هاتفه ليكيل لها أقذع الشتائم قبل أن يخبرها بأنه سيعاود الاتصال بعد دقائق!

بدت الأرملة الشابة في الرمق الأخير، لا تكاد تستطيع الوقوف، وقد زادت ملابس حدادها السود وجهها الشاحب بياضاً.

وكانت أمها تتلمس ما حولها كالعمياء وهي تتنفس بعسر، لكنها انتفضت لتهبّ واقفة في اللحظة التي عاود فيها الهاتف الرنين؛ فاختطفته "دنيا" لتكتشف أن المتصل شخص غريب أخبرها، دون مقدمات، وفي ظنه أنها زوجة يحيى، أنه يعرف كل شيء عن بيتها وأسرتها وأقربائها وجيرانها والحي الذي تسكن فيه؛ فلا مسوّغ لتقدم على حركة طائشة تعقّد الأمر على زوجها. وحين حاولت "دنيا" الكلام أخرسها المتصل بصرخة محذّرة، أعقبها بقوله إن المطلوب منها فقط هو الإصغاء إلى أوامره وتنفيذها دون مناقشة، وكان أول تلك الأوامر الإسراع بتحويل رصيد إلى رقم هاتف زوجها المخطوف ليتسنى له الاستمرار في الاتصال لغرض تحديد قيمة الفدية المطلوبة وموعد دفعها!!

فصدعن لطلبه، ولبثن ثلاثتهن في انتظار أن يعاود ذلك الشخص الاتصال، بيد أن ذلك لم يحصل على امتداد ذلك اليوم الرهيب الذي ضاق فيه البيت بأعداد الوافدين؛ فعلى مدى ساعات تدفق سيل الأقارب بعد سماعهم بالنبأ. وكان أول سؤال يطرحه كل قادم جديد هو إنْ كان الخاطفون قد عاودوا الاتصال؟

وكانوا قد توزعوا بين أرائك الصالة وغرفة الاستقبال وقد خيّم الوجوم عليهم خلا الأطفال الذين أخذوا يظهرون إمارات التذمر والاستياء بعدما مرت عليهم ساعات وهم مهملون دون طعام أو شراب، فلجأت "دنيا" إلى المطبخ لتعد لهم وجبات سريعة أسكتت جوعهم.

عند منتصف الليل رنّ الهاتف، فاستيقظ من كان نائماً من أثر الإرهاق، وكانت المكالمة قصيرة حدد فيها المختطفون قيمة الفدية بخمسة دفاتر عليهم تحضيرها خلال يومين لا أكثر!

وبعدما حسبوا المبلغ بالعملة العراقية تبين لهم أنه في حدود أكثر من ستين مليوناً، فأخذ الجميع يتبادلون النظر، وكانت أبنته الوحيدة التي وثبت مغادرة الصالة لتعود بعد دقائق بعلبة مصوغاتها قائلة:

– في وسعنا بيعها صباح الغد؛ فلا حاجة لي بها إذ إنني لم القَ عليها نظرة منذ استشهاد زوجي.

وعلى الفور تحمّس الآخرون؛ فأخذ كل واحد منهم على عاتقه مهمة الإسهام بجزء من المبلغ بمن فيهم "دنيا" التي تبرعت بمصوغاتها الذهبية. ولم يكد يمضي اليومان المحددان حتى تم تجميع المبلغ كاملاً غير منقوص.

عند الظهيرة عاود أحد الخاطفين الاتصال ليحدد صباح الغد، الساعة العاشرة، موعداً لدفع الفدية، منبهاً على ضرورة أن تتكفل النساء بحمل الفدية دون الرجال، والحرص على القدوم إلى المكان المنشود بسيارة أجرة؛ محذراً من استعمال إحدى سيارات هؤلاء الأقارب الذين كاد شارعهم

يضيق بها؛ فهم، كما سبق لهم أن أخبروها، على معرفة بكل ما يدور حولها، وأكد صدقه بأن ردد على سمعها أرقام معظم تلك السيارات!

– ولكن أين يقع ذلك المكان المنشود؟

تساءل أحد الحضور بحيرة، فحاولت "دنيا" معاودة الاتصال بهم ولكن دون جدوى؛ فالهاتف، كما هو متوقع، بقي مقفلاً.

صباح اليوم التالي بكّر الجميع في الاستيقاظ، واتفقوا على أن تذهب "دنيا" وبرفقتها الأرملة بالفدية، بيد أن زوجة يحيى أصرت على مرافقتهما، فارتدت النساء الثلاث ملابس الخروج في انتظار أن يعاود الخاطفون الاتصال، وذلك ما حصل في التاسعة وعشر دقائق إذ طلبوا الإسراع بركوب أول سيارة أجرة وانتظار اتصالهم الهاتفي ليحددوا الاتجاه الذي ينبغي سلوكه!

لم يكدن يدلفن إلى أول سيارة أجرة صادفنها في الشارع حتى دق الهاتف، وكان المتصل أحد الخاطفين الذي سألها ساخراً عن جدوى اصطحاب امرأتين معها؟ وهل تحسب نفسها ذاهبة في نزهة؟ أمرها بعدها بالتوجه إلى منطقة "تل الأربعين".

– إنهم يراقبون كل حركاتنا وسكناتنا!

همست "دنيا" مخاطبة المرأتين الأخريين اللتين لم تغادرا وجهها بعيونهما. ولم يكد الخاطفون يعاودن الاتصال حاثين على الإسراع في الوصول إلى المكان المنشود حتى أوقف السائق سيارته إلى جانب الطريق وقد انتابته الشكوك، فطلب منهن النزول راجياً إياهن أن يعذروه لإقدامه على هذا العمل؛ فهو رب أسرة لا معيل لها سواه.

لم يكدن يضطررن إلى الترجل من السيارة حتى اتصلوا من جديد طالبين منهن التوجه نحو "السدة الحديدية"، ونصحوها بأن تحرص على عدم إثارة شكوك سائق السيارة اللاحقة!

– من الواضح أنهم يتعقبوننا خطوة خطوة!

همست "دنيا" طالبة من زميلتيها عدم التلفت حولهما بحثاً عنهم!

غادرن السيارة الثانية عند المكان المنشود ليوقفن سيارة ثالثة توجّهتْ بهن – بحسب إرشادات الخاطفين – نحو الشارع المؤدي إلى "الكورنيش" حيث طلب الخاطفون منهن الترجل واختيار واحدة منهن لحمل مبلغ الفدية والسير به راجلة في اتجاه المتحف، وحين أخبرت "دنيا" من معها بطلب الخاطفين تشبثت زوجة يحيى بذراع ابنتها مانعة إياها من الاستجابة لهم خوفاً من أن يخطفوها هي هذه المرة. وطال الجدل بين النساء الثلاث وسط دهشة المارة، وهددت الأم بأنها سترمي بنفسها تحت أول سيارة قادمة إن لم يستجب لها، بيد أن ابنتها حسمت الأمر بأن سارعت باختطاف كيس النقود والسير في الاتجاه المطلوب وهي تقول:

– دعوني أقم بهذه المهمة؛ ذلك لأنه ما من شيء بقي لدي يجعلني أتشبث بالحياة!

وعاود المختطفون الاتصال بـ"دنيا" آمرين إياها بالعودة من فورها بالمرأة الأخرى إلى البيت وترك المرأة الغارقة بالملابس السود لأداء المهمة بعد تزويدهم برقم هاتفها.

في البيت مرّ الوقت بطيئاً بشكل لا يصدّق لم تكف "دنيا" خلاله عن ذرع المسافة الفاصلة بين الصالة وغرفة الاستقبال وسط صمت الجالسين، حتى إذا ما مر وقت ثقيل بطول دهر دقّ قلبها هلعاً لحظة سماعها هدير سيارة تقف في الشارع، وسرعان ما دلفت الأرملة إلى البيت وهي لا تكاد تبصر طريقها، فهرعت نحوها لتقودها من يدها نحو الصالة دون أن تكفّ عن سؤالها عما جرى؟ فتنقلت المرأة بعينيها بين العيون المتطلعة إليها لتستقر بهما في النهاية على أمها التي كان وجهها يحاكي وجوه الموتى بياضاً.

ولاحظت "دنيا" مقدار ما تبذله الأرملة من جهد لتتماسك قبل أن تحدثهم عما جرى: فقد سارت على امتداد ذلك الشارع الطويل، والخاطفون يتصلون بها بين دقيقة وأخرى موجهين إياها نحو المكان المنشود، حتى إذا ما وصلت إلى موضع معين أمروها بالوقوف على الرصيف ومد يدها المحمّلة بكيس النقود في اتجاه الشارع مديرةِ وجهها في الاتجاه المعاكس، فصدعت لأمرهم حيث سمعت سيارة مسرعة تمر بها ليختطف واحد من ركابها الكيس، حتى إذا ما مرت لحظات عاود أحدهم الاتصال بها لينهال عليها بأقذع الشتائم لكون الفدية بالعملة العراقية لا بالدولار مما سيتطلب عدّها وقتاً طويلاً للتأكد من أنها كاملة!.. وبعدها لم يعاودوا الاتصال بها برغم أنها لبثت أكثر من ساعة وهي واقفة في موضعها لا تريم حراكاً.

– ويحيى؟ لماذا لم يخلوا سبيله ما دمنا قد دفعنا لهم الفدية كاملة غير منقوصة؟!

تساءلت الزوجة وهي تدير عينين منداتين بالدموع في الوجوه، فتوسلت "دنيا" إليها أن تهدأ، وانصرفت إلى الهاتف محاولة الاتصال دون جدوى بالخاطفين.

وأنهت "دنيا" حديثها قائلة:

– منذ ذلك اليوم باتت مهمتي الوحيدة مراجعة مراكز الشرطة حيث طالعتني مئات الصور لمخطوفين تمّت تصفيتهم بعد تعذيبهم بأكثر الوسائل دموية وبشاعة، كما لم أترك مستشفى من مستشفيات المدينة إلا وزرته لغرض مراجعة السجلات الخاصة بالجثث المجهولة الهوية.

وران الصمت على الغرفة حيث لا شيء يسمع، وسط هدير المولّد المتواصل، سوى صوت نشيج المرأة المكتوم.

– بمن تشكّون؟ من من أصدقاء يحيى أو زملائه في المنفذ الحدودي قد يكون له دور في ما حصل؟

تساءلتُ بحيرة، فانبرت المرأتان تؤكدان أن أعداء يحيى كثيرون؛ ففضلاً عن الحسّاد والمنافسين على العمل في موقع يدرّ على العاملين فيه الذهب اشتهر يحيى بموهبة استثنائية في خلق الأعداء له؛ فعلى النقيض مما عرف به في الماضي من وداعة وقدرة على التحمّل بات في

السنوات الأخيرة عصبياً يثور ويغضب إلى درجة الجنون لأتفه سبب حتى أن أفراد أسرته – ولاسيما زوجته – باتوا يشكون في سلامة قواه العقلية!

واقترحت "دنيا" عليّ ضرورة لقاء الأستاذ نجيب شكري؛ ففضلاً عن كونه أقرب أصدقاء يحيى إليه يبقى خير الملمّين ببعض الأمور الخفيّة المتعلقة بالعمل في ذلك المنفذ، فوجدت اقتراحها وجيهاً وسهل التنفيذ؛ فقد جمعتنا أيام التوقيف في ذلك السرداب المثقل برائحة الغائط بصداقة آن لي الآن استثمارها على خير وجه!

ودعت زوجة يحيى مؤكداً لها أنني سأبذل ما في وسعي لإنقاذ زوجها، فتعقّبتني حتى باب بيتها وهي لا تكف عن الدعاء لي متوسلة إلى الله أن ينصرني على أعدائي بـ"جاه المصطفى".

وفي بيت "دنيا" كانت في انتظاري وليمة حقيقية؛ إذ لم أكد أجلس على إحدى أرائك تلك الغرفة المظلمة حتى أخذ أفراد الأسرة العجائز – نساء ورجالاً – يتسابقون للاحتفاء بي: يتدافعون واحداً في أعقاب الآخر ليثقلوا المائدة بمختلف أنواع الأكلات والمقبّلات والحلويات.

كان منظرهم، وهم يتمايلون بأجسادهم الضخمة المترهلة يميناً وشمالاً، حاملين بكل حرص الصحون والكؤوس، يقطع نياط القلب. وكانت بينهم واحدة دائمة الحيرة: تبحث في كل مرة لحظات عن الموضع الذي تضع فيه ما جاءت به من مخللات أو خضر وسط الصحون التي ضاقت بها المائدة، حتى إذا ما نجحت في مهمتها ابتسمت لي بحياء وخفر قبل أن تندفع خارجة لتعود بعد لحظات بصحن جديد.

اعتذرتُ لـ"دنيا"، بصوت خفيض، عما سببته لها ولمن معها من إرهاق، فسارعت تؤكد أن الأمر، على عكس ما أتخيل، مبعث سعادة لهم؛ فمنذ حدّثتهم البارحة عن قدومي اليوم وضرورة أن يتهيئوا لاستقبالي بالطريقة التي تليق بي دبّت فيهم الحيوية والنشاط؛ فأخذوا يترقبون وصولي بكل لهفة وشوق، عامدين، منذ البارحة، إلى استذكار مهاراتهم القديمة في عمل بعض الأكلات والحلويات وشتى تلك الأصناف اللذيذة التي كانت تسحرهم في شبابهم.

وأضافت بصوت متهدج من فرط التأثر:

– انظر إليهم!.. إنهم ليسوا أكثر من حشد عاجز يبعث على الشفقة!

واستطردت وهي تمسح خلسة دمعة سالت على خدها على الرغم منها:

– من أجلهم فقط تحمّلتُ طراد رياض المحموم، بل حتى زواجي بيحيى – وما سبّب لي من محنة حملي – جاء في سبيلهم؛ فبرغم حبي إياه لكنني جازفت بالزواج سراً إكراماً لهم؛ فهم أعجز من أن يتدبروا شؤونهم وحدهم حتى ولو على امتداد يوم واحد!

وفي مواجهتي، في الجانب الآخر من المائدة، كان ثمة عجوز نحيل بمنامة حائلة اللون قد تهالك على أريكته وهو يستنشق من "بخاخه" تلافياً لنوبة ربو ألمّت به دون أن ينسى الابتسام لي بوداعة كلما التقت أعيننا مصادفة.

لم أكد أغادر بيت "دنيا" حتى قررتُ السعي من فوري إلى لقاء نجيب الكذّاب وعدم تضييع الوقت في مهمة أيقنت باستحالة أن أخرج منها بنتيجة. وكانت زوجتي قد أخذت تطاردني بين ساعة وأخرى باتصالاتها الهاتفية بحجة قلقها عليّ بعدما طالت سفرتي أكثر مما كانت تتوقع!

اهتديت إلى عنوان نجيب أسرع مما توقعت؛ فقد اكتشفت أنه بات واحداً من أهم الشخصيات المتنفّذة في الأسلاف: لا أكاد أسأل عنه حتى يتبرع أكثر من واحد لإرشادي إلى عنوانه، بل ثمة شخص لحوح أصر على اصطحابي إلى المكان المنشود، ولم أتمكن من التخلص منه إلا بعدما انتزع مني وعداً بأن أبلّغ "الأستاذ" تحياته!

وكانت البناية التي اتخذ منها مكتباً لاتصالاته التي يدير من خلالها عمله في المنفذ الحدودي داراً مترفة كان يشغلها في السابق أحد الأجهزة الأمنية، وكانت قد أحيطت بسلسلة الموانع المعهودة من عوارض إسمنتية عملاقة وأسلاك شائكة ومطبات صناعية ومصابيح كاشفة تضيئها على مدار الساعة.

وكما توقعت؛ اعترض سبيلي في غرفة الاستعلامات مجموعة حراس مدججين بالسلاح، لم يسمحوا لي بمقابلة "الأستاذ" دون موعد سابق، وزادوا الأمر تعقيداً بتأكيدهم أن الحصول على مثل هذا الموعد يتطلب الانتظار أسابيع قد تتحول إلى أشهر!

ووسط يأسي وأنا في حيرة من كيفية التصرف جاءني الفرج على شكل صرخة دهشة أطلقها أحد الداخلين في أعقابي سرعان ما تبينت أنه لم يكن سوى حمزة "مقطاطه" بشحمه ولحمه:

– أهلاً أهلاً بأستاذي العزيز!

وانقض عليّ ليعانقني بذراع واحدة في حين أبقى الذراع الثانية، الحاملة صينية صغيرة تعبق برائحة الكباب النفاذة، مرفوعة عالياً.

– من؟ حمزة؟ أنت آخر من كنت أتوقع أن أراه ضمن "حاشية" نجيب!!

صحت وأنا أبادله القبل متأملاً بدهشة هيئته الجديدة وقد أحاط وجهه الطفولي السمين بلحية خفيفة عصية على النمو كما يبدو، وكان يرتدي – عوضاً عن ملابسه الزيتونية التي اعتدت أن أراه فيها في الماضي – دشداشة بيضاء بسعة خيمة، وثمة طاقية باللون نفسه تعلو رأسه، والعديد من الخواتم الفضية تزين أصابعه الغليظة!

– ذلك من متطلبات حياتنا الجديدة أستاذي... "أكل عيش" كما يردد المصريون في أفلامهم.

أجابني ضاحكاً ليستدير بعدها نحو الحراس معنّفاً إياهم بصرامة:

– لِمَ تتركونه واقفاً في انتظار دوره لمقابلة "الأستاذ" كأي صعلوك من صعاليك الأسلاف؟

وأضاف مردداً عناوين رواياتي بالطريقة الخاطئة القديمة نفسها:

– ألم تعرفوا بعد أنه صاحب الثلاثية التي كرسها لمدينتنا: "الرواق" و"عندما يحلق الباشق" و"اليوم السابع"؟

وأهاب بي لأتقدمه إلى الداخل، دون أن يولي موافقة الحراس أدنى اهتمام، حيث دخلنا غرفة استقبال بالغة السعة، مؤثثة بشكل مبالغ فيه بتلك الطريقة التي لا يعمد إلى إتباعها عادة إلا من يحاول الثأر من ماضيه البائس: فأينما وجهت بصري جابهتني الأرائك والطاولات والمصابيح والثريات وأحدث الأجهزة الكهربائية من تلفاز وحاسبة... إلخ وقد تراكمت بأبعد الطرق علاقة برهافة الذوق.

– سأوصل صينية الكباب إلى صاحب المعالي الأستاذ الكذّاب وأعود خلال لحظات.

استأذنني ليدلف بصينيته إلى باب يبدو أنه يؤدي إلى غرفة داخلية، تاركاً إياي أتأمل، هذه المرة، صورة كبيرة بالأبيض والأسود، معلقة على الحائط في مواجهتي، لشيخ ملتحٍ اعتمر عمامة بيضاء وقد تقاطع شريط أسود مع إحدى زواياها.

– هل عرفته؟

سألني حمزة وقد غادر الغرفة الداخلية مطبقاً بابها وراءه بحذر، فعدت أدقق النظر دون جدوى في وجه صاحب الصورة الذي لم تسبق لي رؤيته.

– إنها صورة ذلك القريب الذي أعدم في زمن النظام السابق والذي اعتاد نجيب أن يمطره بأقذع الشتائم واللعنات، كلما ورد ذكره، زاعماً أن صلة القربى التي تربطه به هي سبب استهدافه بحملات الاعتقال من بين فينة وأخرى.

– سبحان مغيّر الأحوال!

لخّصت دهشتي بتلك الكلمات؛ فعلّق حمزة بصوت خفيض رامقاً باب الغرفة الداخلية بنظرة محاذرة:

– إنه لا يكفّ الآن عن الترحّم عليه لكونه يدين إليه بكل الترف الذي بات يتقلّب فيه بسبب تلك الصلة!

– ألم تخبره بمقدمي؟

– لا؛ فالأفضل تركه يملأ بطنه بالكباب بعدما سكر البارحة حتى الفجر في حفلة خاصة أقامها هنا مع فرقة من "الكاوليه" بمناسبة ذكرى استشهاد قريبه الشيخ المعمم هذا.

– يحتفل بذكرى استشهاد قريبه – رجل الدين – بمعاقرة الخمر؟ عجبي!

– وما صلة نجيب الكذّاب بالدين أستاذي؟

سألني حمزة وقد تهالك جالساً على أريكة وثقت من متانتها لكونها صمدت تحت ثقله الجبار. ومضى يسرد لي – دون أن يغادر باب الغرفة الداخلية بعينيه – سيرة نجيب الجديدة التي تحوّل فيها إلى رجل مرهوب الجانب، يكاد يتخطى محافظ الأسلاف نفسه بسطوته؛ فبفضل

صلة القربى القديمة تلك، وعمله أثناء أسره في إيران في صفوف "التوابين"، استحوذ هو وأبناؤه وأقاربه على الإشراف على المنفذ الحدودي دون منافس، يلعب على هواه بالدولارات لعباً.

- حمزة!

جاءنا نداء نجيب، على حين غرة، من خلف الباب المطبق، فرد حمزة تلقائياً وقد وثب واقفاً بخفة عجيبة لا تناسب جرمه:

- حاضر أستاذي!

وهمس وهو يندفع ملبياً النداء مردداً مثلاً شعبياً:

- "من يتزوج أمي فهو عمي"... سأخبره الآن بقدومك بعدما "تزقنب".

ولم تمر لحظات حتى انفتح باب الغرفة على سعته، واندفع نجيب نحوي وهو يردد:

- أشرقتْ وأنورتْ... أهلاً بزميل السجون والمعتقلات!

وانقضّ عليّ معانقاً إياي بشوق حقيقي. ومرت لحظات بقينا نردد خلالها الأسئلة المعهودة عن الصحة والأحوال قبل أن يرجوني أن أعاود الجلوس، في حين أخذ هو يذرع الأرض جيئة وذهاباً كما كان دأبه خلال تلك الأيام الثلاثة التي جمعنا معاً ذلك السرداب اللعين المثقل برائحة الغائط.

واستأذنه حمزة ليأتي بالشاي، فصاح في أعقابه آمراً إياه بجلب علبة سجائر أيضاً، ومضى يواصل ذرع الأرض بمنامته المقلمة التي ذكّرتني بالمنامة التي كان يرتديها أيام السرداب. وبدا كما عهدته آنذاك: نحيلاً طويل القامة، لا شيء تغير فيه خلا شعره الذي كان قد صبغه.

- أعرف سبب تشريفك إياي بزيارتك؛ إنه يحيى شفيق، أليس كذلك؟

فاجأني بكلامه ذاك، واستطرد مخيّباً آمالي سلفاً:

- أتصدّقني لو اعترفت بأنني لا أقلّ عنك جهلاً بمصيره؟

ووقف فوق رأسي متأملاً إياي لحظات قبل أن يجلس بجانبي على الأريكة نفسها وهو يقول:

- أعرف طبعاً أنك لن تصدّقني، ولكنْ تلك هي الحقيقة.

وانهمك يحدثني طويلاً عن عمله المرهق المحفوف بالأخطار في المنفذ الحدودي، وعن استهدافه هو شخصياً بأكثر من عملية انتهت إحداها بمقتل أحد أفراد حمايته وجرح آخرين، وكيف أنه حاول مراراً أن ينبه يحيى على ضرورة التزام الحيطة والحذر، ولكنْ دون جدوى ولاسيما بعدما تورط بشراء بيت في أرقى أحياء بغداد السكنية شارع الأميرات؛ ذلك لأنه لم يستطع سداد الثمن الفاحش المتفق عليه؛ فاضطر إلى توقيع بضع كمبيالات تستوجب السداد في تواريخ محددة مما دفع به إلى المجازفة بتمرير صفقات غير مأمونة عبر الحدود كانت آخر واحدة منها تتألف من خمس وعشرين "تريله"!

– أتدرك ما الذي تعنيه "التريله" الواحدة؟ إنها شاحنة عملاقة بحجم قطار، تتراوح حمولتها بين خمسة عشر طناً وعشرين، فتخيّل ضخامة صفقة تتكون من خمس وعشرين "تريله"!!

استدرك موضحاً قبل أن يواصل الكلام عن تلك الصفقة التي أسهم فيها أغلب الرجال المتنفذين في الأسلاف وفي مقدمتهم رياض صبّار بشّار الذي جازف بمبلغ كبير دفع به إلى أن يتصل بنجيب يومياً سائلاً عن موعد عبور تلك "التريلات" الحدود؟ حتى إذا ما تمّ الأمر وتخطت تلك التريلات "وادي الزود" فوجئتْ بوحدة من "قوة التدخّل السريع"، التي يشرف عليها الأمريكان، تعترض سبيلها شمالي المدينة على أثر تلقيها بلاغاً سرياً يفيد بحصول تجاوز للتعليمات المتّبعة. وبعد فحص عيّنات من الحمولة تبيّنت صحة ذلك البلاغ؛ ذلك لأنها كانت تتكون من لحوم الدواجن والبيض عكس ما كان مثبّتاً في الوثائق الخاصة بها عن كونها مقتصرة على الحلويات والمكسرات والفواكه المجففة!

– وما الضير من تتكون حمولة تلك "التريلات" من لحوم الدواجن والبيض عوضاً عن تلك المواد؟!

قاطعته متسائلاً، فأجابني رامقاً إياي بنظرة غير مصدقّة:

– بل هناك ضير وألف ضير؛ فقد صدر قرار بمنع استيراد لحوم الدواجن ومشتقاتها من الدول المجاورة منعاً باتاً وحتى إشعار آخر!

– لماذا؟!

– بسبب تفشي وباء أنفلونزا الطيور!!

بادلته النظر لحظات غير مصدّق ما سمعت؛ أيعقل أن الخسة بلغت بيحيى – وهو الرجل المثقف عاشق الروايات – درجة بات معها يعمل على تمرير لحوم ملوّثة لقاء الحصول على النقود؟ و"دنيا"؟ أكانت على علم بكل ذلك دون أن تخبرني به سعياً منها لـ"استخدامي" لانتشال شريكها في اللعبة؟ يا إلهي!!... ما الذي جرى للناس؟! ما سر هذا السقوط الجماعي غير المعقول؟

وثبت واقفاً وقد قررت العودة إلى بغداد في اليوم نفسه نافضاً يدي عن الأمر كله. وكان نجيب قد وقف بدوره وأخذ يحدثني عن أمر ما لم أفقه منه شيئاً. ودلف حمزة داخلاً محملاً بصينية الشاي.

– لن أدعك تذهب دون أن تشرب الشاي من يد حمزة ابن أخت أخطر محامٍ أنجبته الأسلاف في تاريخها...

ومضى نجيب يحدثني – في محاولة منه لتلطيف الجو – عن أيوب "العرضحالجي" واستيلائه على بناية المحكمة القديمة محوّلاً إياها إلى مكتب محاماة تتصدره الطاولة المبقّعة

بآثار أعقاب إستكانات الشاي تلك التي اعتاد أن يدبّج عليها عرائضه في المقهى سعياً منه لنصرة الفقراء والمظلومين!

– وعبود؟... عبودي صبي عطا "الديو"؟ أسمعت بآخر أخباره؟ لا؟ أصغِ إذن إليّ لحظات؛ فما جرى له يميت الثكلى من شدة الضحك!

وأنطلق يتحدث، مطلقاً، بين فينة وأخرى، ضحكة لا يستطيع لها منعاً، عن اختطاف "عبودي" من قبل إحدى الميليشيات الأصولية التي دأبت على تحذيره من مغبة تماديه في "شذوذه" على هواه ولاسيما مع الأمريكان، ولم تطلق سراحه إلا وهو بين الحياة والموت على أثر إلصاق إليتيه بالصمغ "الأميري" مما تطلب إجراء عملية جراحية أنقذته من موت محقق!

– وهل تاب؟

تساءل حمزة مستنكراً وهو يتحرك بجسده الضخم هنا وهناك وقد تزوّد بخرقة يمسح بها كل ما تطاله يداه. وأردف وقد التفت في اتجاهنا:

– أبداً؛ فهو الآن، وبدفع من الأمريكان، بصدد إنشاء جمعية لحماية المناويك!!

– قل المثليين يا متخلّف!... متى تتثقف فتهذّب ألفاظك؟!

صاح به نجيب وهو يكاد ينهار في موضعه من شدّة الضحك، بيد أن حمزة واصل تمتماته دون أن يكف عن تنقله مبدياً دهشته لكون من كان يسمى في الماضي بـ"المنيوك" أضحى بفضل الاحتلال يحمل اسم "مثلي". وتوقف على حين غرة وسط الغرفة ليهز خرقته طارحاً علينا سؤالاً حاسماً:

– أنا قبل الاحتلال كان اسمي حمزة، وها أنذا أحمل الاسم نفسه بعد الاحتلال، فما معنى أن يتحول "المنيوك" إلى "مثلي"؟

– كيف فاتك يا حمزة أن التغيير شملك أنت بدورك؟ فقبل الاحتلال كنت تعمل في دائرة مهمتها حجز الناس وتعذيبهم، في حين تعمل الآن عملاً حراً لا شأن لك بذلك الدور القذر!

خاطبه نجيب غامزاً إياي بإحدى عينيه، فتجمد حمزة في موضعه وهو يتنقل بيننا بنظرة حائرة، لكنه سرعان ما حسم أمره فعلق وقد عاد يواصل عمله في المسح والتنظيف بهمة ونشاط:

– لا علاقة لعملي بتغيير اسمي؛ فحمزة يبقى حمزة حتى لو اشتغلت "نزاحاً" في المجاري!

وعدنا نجلس على الأريكة لنحتسي الشاي؛ فطلبت من "نجيب" أن يواصل حديثه عما جرى بشأن تلك "التريلات" الخمس والعشرين، فأخبرني، بعدما أوقد سيجارته، أنها تركت في موضعها في الأرض الخلاء شمالي الأسلاف دون أن يجرؤ طرف على التصرف؛ فالقضية باتت تشكل خرقاً للقانون، ولولا إسراعه بالتدخل لكان قد ألقي القبض على يحيى منذ اليوم الأول لكونه المسؤول عن إدخال تلك الشحنة الهائلة التي سرعان ما دب فيها العفن؛ فصدر قرار بإفراغ تلك "التريلات" مما تحمل: فارتفع هناك تل هائل من لحم الدواجن المتعفن سمم أجواء المدينة بما

أشاع من رائحة فضيعة كانت الرياح الشمالية تحملها إلى أقصى الجنوب، فعمدت السلطات المسؤولة إلى إحراق الشحنة في يوم مشهود تجمّع فيه آلاف الناس هناك مراقبين تلك المحرقة الهائلة بما أشاعت هذه المرة من رائحة غريبة هي خليط من رائحة الشواء والعفونة!!

– أتكون تلك الصفقة إذن هي سبب اختطاف يحيى؟

سألته بعدما أنهى حديثه، فأجابني وهو يطلق سحابة دخان ملء فمه ومنخريه:

– دون شك.

– في هذه الحالة من الذي يقف خلف العملية؟ من هو الأقرب للشك من الذين كانوا يحيطون بيحيى؟

فصحح لي ضاحكاً:

– الأدق أن تسألني بمن لا أشك؛ فقد نجح يحيى، ببراعة لا يحسد عليها، بأن يحوّل نصف ساكني الأسلاف إلى أعداء!

بدا من الواضح أنني لن أخرج من حديثي مع نجيب بنتيجة؛ فلبثت أواصل معه الكلام بعض الوقت لاستأذنه بالانصراف حالما سنحت لي الفرصة.

كنت في عجلة من أمري لنفض يدي عن الأمر كله والإسراع بالعودة إلى بغداد؛ فانزويت جالساً على تخت مقهى مررت به مصادفة حيث اتصلت، عن طريق الهاتف، بزوجتي مطمئناً إياها بأنني سأكون عندها غداً في البيت، اتصلت بعدها بـ"دنيا" لأبلغها بأنني لم أخرج من لقائي نجيب بنتيجة.

– والشيخ غازي فياض؟ متى تلتقيه؟

– أخشى أن نتيجة هذا اللقاء الجديد ستكون مماثلة.

– لماذا كل هذا اليأس يا أستاذ؟ لا يعقل أن تفقد الأمل لمحض لقائك مسخاً اشتهر بلقب "الكذّاب"؟

– لعله ليس الكذاب الوحيد في هذه المدينة!

– ما الذي ترمي إليه بكلامك المبطّن الغريب هذا؟!

سألتني "دنيا" منتفضة، فأفحمتها بحديث نجيب عن تلك "التريلات" الخمس والعشرين المحمّلة بأطنان من لحم الدواجن الملوّث بأنفلونزا الطيور والتي تخطت الحدود تحت إشراف يحيى، فقاطعتني منفعلة:

– ومن أين تيقنت أنها كانت ملوّثة في حين لم يكن يحيى يتعامل إلا مع أكثر المناشئ التزاماً بالشروط الصحية؟

– المهم أنه لم يلتزم بالقانون القاضي بمنع استيراد اللحوم... أيسعك إنكار ذلك؟

– لا طبعاً لا يسعني إنكار ذلك، كما لا يسعني إنكار أن الناس يُخطفون من بيوتهم ليقادوا معصوبي العيون إلى جهات مجهولة، وأن آخرين يُذبحون على الهوية، وأن أسراً تُنذر بإخلاء بيوتها، ضمن التصفيات الطائفية، خلال أربع وعشرين ساعة لتحل أسر أخرى في مكانها، وأن...

وانفجرت في بكاء هستيري استمر لحظات، حتى إذا ما سيطرت على نفسها اعتذرت لكونها قد أقحمتني في أمر بالغ التعقيد، مؤكدة أنني لستُ ملوماً لو صرفت النظر عن المضي في قضية مبهمة بهذا الشكل، واستدركتْ مؤكدة أنها لم تعد شخصياً تأبه للأمر كله ذلك لأنها عزمت على اتخاذ قرار حاسم سيكون مبعث دهشتي حين اسمع به، فقاطعتها سائلاً إياها إن كان ذلك القرار يتعلق بإجهاض جنينها؟ فسمعتها تطلق ضحكة أقرب ما تكون إلى أنّة ألم رددت بعدها جملة، قبل أن تقفل الخط، ذكّرتني بكلام يحيى الجارح الذي جعلني أغادر سيارته مصفقاً بابها ورائي:

– ستظل، يا سيدي، أسير كتبك، غير مدرك عمق الهاوية التي تردينا فيها جميعاً نحن العراقيين!

قررتُ لقاء الشيخ غازي فياض في اليوم نفسه قبل أن أنطلق عائداً إلى بغداد صباح اليوم التالي، وحين سألت صاحب المقهى عنه لحظة دفعت حسابي أجابني ضاحكاً:

– تراه مرابطاً في الجامع الكبير على مدار الساعة لا حباً بالله طبعاً، بل سعياً للفوز بمقعد في البرلمان في الدورة القادمة؛ يعمل منذ الآن على الترويج لحملته الانتخابية!

واستقبلني الشيخ غازي بالحفاوة المتوقعة؛ فبعدما ضمني إلى صدره أخذ يتناوب في تقبيل وجنتيّ مردداً جملته الأثيرة إلى نفسه:

– أهلاً مولانا.. أهلاً، قدمت أهلاً ووطأت سهلاً.

بدا منهمكاً بتوجيه مجموعة من الشباب الملتحين المنشغلين بنصب أجهزة تكييف في حرم الجامع المفروش بمختلف أنواع السجاد، وكان قد اعتمر عمامة ناصعة البياض قال عنها حينما رآني أرمقها بنظرة فضول:

– لا تنخدع بالمظاهر أستاذي؛ فهي تدخل ضمن عدة الشغل!

وأضاف بطريقته المبطّنة الحافلة بالأسرار وهو يغمز في اتجاه صحبه الشباب مقهقهاً بانطلاق:

– وهؤلاء "المريدون" هم الذين سيتكفّلون بالشغل نفسه!

واستطرد يحدثني عن عزمه على ترشيح نفسه للانتخابات البرلمانية القادمة بعد فشله في الدورة السابقة بادئاً حملته من بيت الله حيث كسا الأرض بالسجاد الشيرازي الفاخر، كما استبدل بالمراوح السقفية القديمة مراوح جديدة ليحلّ الآن دور أجهزة التكييف، دون أن ينسى تذكير روّاد الجامع، كلما جمعته المصادفة بمجموعة منهم، بالآية القائلة "إنّا مكّنا له في الأرض وآتيناه من

كل شـيء سبباً"؛ مؤكداً أن الإرادة الإلهيـة شـاءت أن يكـون هـو سـبباً فـي إحاطـة هذا الجـامع برعايته واهتمامه!

بـدا منـشرحاً، فكهـاً، لا يـضيره أن يـسخر مـن نفسه وخططـه التـي يـسعى مـن ورائهـا إلـى الحصول على ذلك المقعد البرلماني العتيد؛ فاغتنمت الفرصة بمصارحته أنني سعيت إلى لقائه لغـرض معـين، فقـاطعني مؤكـداً أنـه يكفينـي أن أفـصح عـن غرضـي ليـسارع بتلبيتـه، بيـد أنـه استدرك، حالما ذكرت له قضية زواج يحيى و"دنيا"، وقد أمسك بزندي ليقودني بعيداً عن صحبه الشباب:

– ... إلا هذه القضية الملتبسة؛ ذلك لأنني غير مستعد لأورط نفسي، وفي هذه الظروف الدقيقة التي باتت الانتخابات فيها على الأبواب، في أمر عقد زواج مسلم على مسيحية انتهى باختطاف أحد طرفي العقد!

– ولكن المرأة حامل!..أنسيت ذلك؟ كيف تريدها أن تتصرف دون وجود من يؤكد صحة زواجها شرعاً من رجل أختطف؟!

– تتصرف مولانا مثلما تصرفت امرأة من بني قومها مرت بالمحنة نفسها قبل أكثر من ألفي سنة!

وأضاف وهو يقهقه مستمتعاً:

– لقد آن لنا أن نتشرّف بمجيء الدجال بعد مرور هذه السنوات كلها!!

غادرته دون وداع على وقع قهقهاته الكريهة لأتخذ سبيلي، من فوري، نحو الفندق حيث استقبلني المشرف، على غير المألوف، مرحباً بي، من وراء مكتبه، بحرارة. وبعدما صرخ بصبيه آمراً إياه بالإسراع بإعداد سريري في الغرفة، صاح منتشياً وجفن إحدى عينيه يرف بتلك الطريقة العصبية:

– لقد حطمته. لقنته درساً لن ينساه؛ فقد جردت ملكه من وزيره وقلعتيه وفيليه وحصانه، ولم أجهز عليه في أحد مربعات الرقعة إلا بعد القضاء على أغلب جنوده؛ فعالجته بـ"كش" حاسمة لم تقم له بعدها قائمة!!

وفي الغرفة استقبلني الصبي ضاحكاً وقد انتهى من تهيئة السرير. وعلّق قبل أن يغادرني:

– أرأيت مبلغ سعادة الأعور بالفوز؟!

– لفرحته ما يسوّغها؛ فقد فاز عليك بـ"دست" تاريخي!

– وهل تصدّق أنه فاز بجهده الشخصي؟ أبداً؛ بل أتحتُ له فرصة الفوز بعدما تيقّنتُ من أنه أخذ يفكر جدياً بالاستغناء عني!!

***

غادرتُ الأسلاف، مثلما وصلت إليها، دون أن يكون في استقبالي أو وداعي أحد. وقضيت ساعات الرحلة منكفئاً على نفسي، أتجنب مبادلة الركاب الكلام حتى أن جاري سألني بمنتهى الجدية إن كنت أشكو من ألم في أسناني؟

في البيت هرع الجميع لاستقبالي لحظة صرّ باب الحديقة منفتحاً، وطوقت ندى عنقي بذراعيها لتنهمر بقبلاتها المعهودة على وجنتيّ انهمار قطرات المطر، ولم أكد استبدل ملابسي لتجمعني مائدة الغداء بأفراد أسرتي حتى طويت صفحة تلك الرحلة الخائبة وكأنها لم تكن.

هكذا عدت أمارس حياتي على وتيرتها المعهودة، محاولاً، على مدى الشهور اللاحقة، وضع اللمسات الأخيرة على روايتي، باذلاً جهدي للوصول بها إلى نهاية مقنعة تنسجم مع سياق الأحداث.

بيد أن شعوراً دفيناً بالإثم كان يطفو على السطح كلما طالعتني، على شاشة الحاسوب، أسماء بعض الأشخاص ولاسيما يحيى و"دنيا"؛ ففجيعتي بالأول كانت تقترن عادة بجهلي بمصير الثانية: كيف تصرفتْ مع "كارثة" حملها الذي من المؤكد أنه تحوّل إلى فضيحة مجلجلة بعدما تكفّل الزمن بكشف المستور؟!

وجاءني الجواب، بعد مضي أكثر من سنة، على شكل رسالة – قد تكون خير خاتمة للرواية – فوجئتُ بها ذات يوم في بريدي الالكتروني، كانت مرسلة من "دنيا" التي أعلنت فيها هجرتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد مرور أسابيع على لقائنا في الأسلاف ذلك اللقاء الأخير. كتبت بتلك الصراحة الجارحة التي اكتشفتها فيها منذ خطف يحيى:

"لا تسألني عن البقعة التي استقرّ بي المقام فيها خلف "بحر الظلمات"؛ فكل بقاع الأرض لم تعد تعني لديّ شيئاً منذ خيّم هذا الليل الحزين على وطني فهجرته دون وداع، مستهدية سبيلي بنعيب الغراب الذي سيظل يلاحقني أينما وليت بوجهي؛ فكل البقاع تتشابه، سيدي العزيز، ما دامت جهنم قد أمست بحجم الكون كله"!

وحملها؟ ما مصير جنينها الكارثة؟

سألتُ نفسي وأنا أتخطى سطور تلك الرسالة، مرجئاً العودة إليها فيما بعد، لأعثر على بغيتي في المقطع الأخير:

"أنا الآن في أقصى الغرب الأمريكي، يطالعني المحيط الهادئ من خلال شرفة شقتي، وعلى الأرض يتقلّب ابني يحيى الصغير قرب قدميّ رامقاً إياي بنظرة دهشة من عينيه المشابهتين لعيني أبيه مستغرباً لأنني تأخرتُ في إرضاعه، غير مدرك أنني تأخرتُ، على امتداد عمري، في أمور كثيرة وفي مقدمتها أنني كدت اجعل منه موضوعاً للمساومة وهو جنين في أحشائي طمعاً في الاستحواذ على بيت مترف يقع في شارع الأميرات – نعم لم لا أصارحك اللحظة بالحقيقة؟ – لولا أنه جعلني أحسم أمري وأقرر الهجرة: حصل ذلك يوم اتصلتَ بي هاتفياً

منبئاً إياي بفشل مسعاك مع نجيب الكذّاب؛ فوسط انفعالي وأنا أرد عليك منتحبة فوجئتُ بأول ركلة منه في بطني؛ فقررتُ لحظتها نفض يديّ عن كل شيء والنجاة به، هو ابني الوحيد وسط زبانية جهنم"!!

إشارة

استفاد الروائي من الإلمام ببعض الأمور التي تخص الرواية من المصادر الآتية:

١ – مذكرات مالوان – ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي – دار المأمون – بغداد

٢ – ثرثرة فوق دجلة – خالد بسام – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت

٣ – ولادة إله – جان بوتيرو – ترجمة جهاد الهواش وعبد الهادي عباس – دار الحصاد

٤ – بغداد المتنبي والناس – قحطان حبيب الملاك (مقالة زين النقشبندي)

٥ – جيرتروود بيل – من أوراقها الشخصية – ترجمة نمير عباس مظفر – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت

٦ – مقالة على الأنترنت للروائي العراقي عبد الجبار ناصر